أبحاث في علم التجويد

الدكتور غانم قدوري الحمد



دار عمار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

أبحاث في علم التجويد

الطَّبْعَة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٦.٥/٣/٢٠٠١)

رقم التصنيف : ١ر٢٢٣

المؤلف ومن هو في حكمه : د. غانم قدوري الحمد

عنوان الكتاب : أبحاث في علم التجويد

الموضوع الرئيسي : القرآن الكريم/ علم التجويد/ قراءة القرآن

بيانات النشر : دار عمار للنشر والتوزيع - عمان

* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

(رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٦٥٨/٣/٢٠٠١)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين. وبعد:

فإن الصحوة الإسلامية المباركة المعاصرة تستهدي بالقرآن الكريم، وصارت تلاوته شعاراً لها، ونوراً تستضيء به في مسيرتها، وتنوعت وسائل تعليم أحكام التلاوة، فمنها كتب علم التجويد، ومنها الأشرطة الصوتية المسجلة، ومنها الأشرطة المرئية والمسموعة، ومنها حلقات التعلم على يد المشايخ والمعلمين.

والمتأمل في كتب تعليم قواعد التلاوة المؤلفة في السنين الأخيرة خاصة، والمستمع لأداء المرتلين من جيل الشباب على وجه الخصوص، تستوقفه ملاحظات وظواهر تتعلق بتلاوة القرآن، وبأحكام التلاوة المدونة في كتب علم التجويد، فهناك تباين ظاهر بين أداء بعض الأحكام وطريقة وصفها في كتب التلاوة، كما أن هناك اختلافاً بين نطق عدد من الأصوات وطريقة وصفها في الكتب.

وكان ذلك قد لفتَ نظري منذ سنوات، وكتبتُ عدة أبحاث، في فترات متتابعة، تعالج بعضاً من تلك الظواهر، وصارت عندي قناعة بضرورة اعتناء القائمين على أمر تعليم تلاوة القرآن بتلك القضايا، حتى تلتقي كلمتهم على رأي موحد فيها، وحتى تتوحد صور الأداء فيها، وتعاد صياغة ما كُتِبَ عنها في كُتُبِ التلاوة، صيانة للقرآن الكريم من تطرق الاختلاف إلى تلاوته.

ولا شك في أَنَّ قراءة القرآن سُنَّةٌ يأخذها الآخِرُ من الأوَّل، وتعتمد على المشافهة والتلقي، لكن ـ كما يقول الشيخ محمد المرعشي المتوفى سنة ١١٥٠هـ: «لما طالت سلسلة الأداء تخلل أشياء من التحريفات في أداء كثير من شيوخ الأداء، الشيخ الماهر الجامع بين الرواية والدراية، المتفطن لدقائق الخلل في

المخارج والصفات، أعز من الكبريت الأحمر! فوجب علينا أن لا نعتمد على أداء شيوخنا كل الاعتماد، بل نتأمل فيما أودعه العلماء في كتبهم من بيان مسائل هذا الفن، ونقيس ما سمعنا من الشيوخ على ما أُودع في الكتب، فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فالحق ما في الكتب»[1].

وقول المرعشي: إن الحق ما في الكتب ليس على إطلاقه أيضاً، لأن مؤلفي الكتب ليسوا معصومين من الخطأ، إلى جانب أن عدداً من موضوعات هذا العلم قد اختلفت عبارة المؤلفين عنها، والمرعشي نفسه قد صرح بذلك حين قال: «لما ختمتُ رسالتي المسماة بجهد المقل، شرحتها وأظهرت مواضعها المبهمة لينتفع بها أدنىٰ الطلبة، وسميته (بيان جهد المقل) وأُوصيهم أن لا يعجلوا يتخطئتي بسبب مخالفة ما ذكرته في هذه الرسالة ظاهر ما يفهم من كلمات المؤلفين في هذا الفن، فإن كلماتهم قلَّ ما خلت عن المسامحات، ولا يستبعدوا أن أعثر على الخطأ في كلمات بعضهم، فأثبتُ المسألة في هذه الرسالة على وجه الصواب»[2].

وجرى كثير من الباحثين في زماننا على جمع ما كتبوه من أبحاث في كتاب واحد، لما في ذلك من حفظ لتلك الأبحاث، وتيسير الرجوع إليها والإفادة منها أيضاً، وقد دفعني ذلك إلى ضم ما كتبته من أبحاث في علم التجويد إلى بعضها لتنشر في كتاب واحد، إن شاء الله، لاستجاشة همم العلماء والدارسين للاعتناء بالموضوعات التي تناولتها هذه الأبحاث، وللإجابة على التساؤلات التي أثارتها، وهي قضايا مهمة تستحق البحث والاهتمام لتعلقها بتلاوة القرآن الكريم وبوسائل وأساليب تعليمها.

---

(١) بيان جهد المقل ٣ظ، ١ظ، والمرعشي هو محمد بن أبي بكر الملقب بساجقلي زاده، من علماء الدولة العثمانية، له عدة مؤلفات في علم التجويد وقراءة القرآن، منها (جهد المقل في التجويد) الذي حققه أخي الدكتور سالم قدوري الحمد، ونال به شهادة الدكتوارة من كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٩٢.

(٢) نفس الهامش السابق.

ويضم هذا الكتاب الأبحاث الآتية:

١- نشأة علم التجويد ومعالمه الأولى.

٢- مناهج كتب تعليم قواعد التلاوة: عرض ومناقشة.

٣- إخفاء النون: حقيقته الصوتية وطريقة أدائه لدى القراء المعاصرين.

٤- إخفاء الميم في النطق العربي.

٥- قضية الضاد في العربية.

٦- اللحن الخفي في الدرس الصوتي العربي.

وكنتُ حين كتبتُ هذه الأبحاث قد حرصت على أمرين:

الأول: الرجوع إلى المصادر الأصلية القديمة في علم التجويد، وكان أكثرها مخطوطاً حينئذ، وكان لذلك فوائد منها تصحيح بعض الحقائق التاريخية المتعلقة بنشأة هذا العلم، ومنها الوقوف على مادة علمية نافعة أغفلت ذكرها الكتب المتأخرة.

الثاني: الرجوع إلى كتب علم الأصوات اللغوية الحديثة، لتوضيح بعض الحقائق الصوتية التي تلقي ضوءاً على عدد من قضايا التلاوة القرآنية، وهو جزء من منهج علماء التجويد الأوائل الذين استعانوا بما كتبه علماء العربية عن المخارج والصفات والإدغام حين كتبوا قواعد هذا العلم ودَوَّنُوا أُصوله، «والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها» أو كما قال ﷺ.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يتجاوز عن خطئي فيه، وأن ينفع به، هو حسبنا، ونعم الوكيل.

غانم قدوري الحمد
المكلا ـ حضرموت
٢٨/ شوال/ ١٤٢٠هـ
٣/ ٢/ ٢٠٠٠م

(١)

علم التجويْد
نشأته ومَعَالمه الأولىٰ

مقدمــة[١]

بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

فقد كنت في شهر رمضان من عام ١٣٩٧هـ أفكر في مقدار ما يمكن أن يقدمه علم الأصوات اللغوية المعاصرة في دراسة علم التجويد، وحاولت أن أدون شيئاً في ذلك، لكني توقفت عن الكتابة بعد صفحات قليلة، حين شعرت بالحاجة إلى الاطلاع على المصادر القديمة في علم التجويد، دون الاكتفاء بالرسائل الموجزة والمتون المختصرة التي آل إليها هذا العلم في أيدي الناس، في زماننا، فأرجأت الكتابة وشمرت عن ساعد الجد في البحث عن الكتب القديمة المؤلفة في علم التجويد، لأَقِفَ على صورة هذا العلم، كما صاغتها أقلام الأفذاذ من علماء السلف، في عصور الازدهار العلمي.

ولا زلت منذ ذلك التاريخ أتتبع كتب علم التجويد القديمة، وأحاول الحصول على نسخ منها، مخطوطة ومطبوعة، حتى تجمع لديّ ـ بحمد الله تعالى ـ قدر صالح منها. وتغير ـ بفضل ذلك ـ ما كان في ذهني من صورة علم التجويد التي عرفتها من خلال الرسائل الموجزة المؤلفة في فترات متأخرة أو من خلال ما

---

(١) نُشِرَ هذا البحث في مجلة كلية الشريعة بجامعة بغداد، في العدد السادس ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

كتبه بعض المحدثين اعتماداً على تلك الرسائل. فما أوسع الفرق بين الكتب القديمة الزاخرة بالدراسة الصوتية العميقة، وبين الرسائل الموجزة التي يقرأ الناس فيها هذا العلم اليوم!

وقد فتح لي ذلك التتبع لمصادر علم التجويد آفاقاً من البحث واسعة، ولكنني آثرت الوقوف أولاً عند قضية أساسية، هي البداية لكل ما سيتلوها من أبحاث في هذا العلم، إن شاء الله، هذه القضية هي البحث عن بداية التأليف في هذا العلم، وظهور أول كتاب خاص به.

والذي جعلني أقف عند هذا الموضوع قبل غيره هو غموض نشأة هذا العلم، عند من كتبوا عنه في زماننا، على قلة ما كتبوا، فقد قال بعضهم، وهو يتحدث عن جهود اللغويين العرب في دراسة الأصوات[١]: «وأسهم علماء التجويد والقراءات القرآنية بقدر لا يُجحد في هذا الميدان، ولسنا نملك لهذا النوع من الدراسة مادة كافية تسمح بتتبع تطوره ووصف المراحل التي قطعها حتى صار علماً مستقلاً هو علم التجويد...».

وتحدث بعض من كتب في هذا العلم من المحدثين عن ذلك، فقال[٢]: «قال بعضهم: واضعه الأئمة القراء. وأول من دَوَّنَ فيه قيل: أبو مزاحم الخاقاني، وقيل: موسى بن عبيد الله المقرئ البغدادي. وقال بعضهم: دَوَّنَ هذا العلم أئمة القراءة في عصر التدوين عند اختلاط العرب بالأعاجم، وفساد اللسان، محافظة على كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وأَوَّلُ من أفرده بالتأليف موسى بن عبيد الله بن خاقان البغدادي المتوفى سنة ٣٢٥هـ».

لعل هذا هو كل ما يمكن أن يعثر عليه الباحث عند المحدثين حول نشأة

---

(١) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب ص٧٧.

(٢) فرج توفيق الوليد: قواعد التلاوة وعلم التجويد ص١٧.

علم التجويد، على ما فيه من إيجاز وغموض وتناقض، فقولهم: «أول من دَوَّن فيه قيل: أبو مزاحم الخاقاني، وقيل: موسى بن عبيد الله المقرئُ البغدادي...» دليل على غموض نشأة هذا العلم لدى المعاصرين، لأن أبا مزاحم هو موسى بن عبيد الله!

وإذا كان علم المُحْدَثِينَ في هذا الموضوع قد انتهى عند حد القول بأن أبا مزاحم الخاقاني هو أول من دَوَّنَ علم التجويد أو أفرده بالتأليف، وهو ما سبق إلى ذكره ابن الجزري[1]، فإن وراء ذلك قضايا تحتاج إلى بيان، فمَنْ هو أبو مزاحم الخاقاني؟ وما كتابه الذي دَوَّنَ فيه هذا العلم؟ وأين ذهب ذلك الكتاب؟ ولماذا تأخر تدوين هذا العلم إلى عصر الخاقاني؟ وما هي علاقة علم التجويد بالدراسات الصوتية عند علماء العربية المتقدمين؟ هذه قضايا لا زالت بحاجة إلى بيان وتوضيح.

وكذلك فإن من دوافع هذا البحث هو أن في تتبع الأُصول التاريخية لعلم التجويد والبحث عن مصادره الأُولى القديمة فائدة جليلة، هي ما يمكن أن يسفر عنه هذا النوع من الدراسة من مادة علمية مخبوءة، ومن مصادر قيمة مَنْسية، يمكن أن تفيد الباحثين في دراسة الأصوات العربية، وتفيد الناطقين في تصحيح نطقهم وتقويم ألسنتهم.

وإلى جانب هذا كله فإن الكشف عن بداية تدوين علم التجويد، ومعرفة المؤلفات المتقدمة فيه يعتبر بحد ذاته عملاً علمياً يستحق ـ قبل غيره ـ من الدارسين المهتمين بهذا النوع من البحث المتصل بالنشاط اللغوي، كلَّ جهد.

وسوف أحاول بحث ما أشرت إليه من قضايا بنشأة علم التجويد من خلال هذه المباحث الخمسة:

---

(١) انظر: غاية النهاية ٢/ ٣٢١.

الأول: الدراسات الصوتية العربية قبل أبي مزاحم الخاقاني.
الثاني: أبو مزاحم الخاقاني: حياته، وقصيدته في التجويد.
الثالث: تأثير قصيدة أبي مزاحم في جهود اللاحقين.
الرابع: أول المؤلفات في علم التجويد بعد القصيدة الخاقانية.
الخامس: مصطلح (علم التجويد).

المبحث الأول

الدراسات الصوتية العربية قبل أبي مزاحم الخاقاني

اهتمت بدراسة الأصوات العربية طوائف من علماء السلف، أشهرها النحويون واللغويون وعلماء قراءة القرآن الكريم، وهذه الطوائف وإن كانت جهودها متصلة إلا أن النحويين واللغويين كانوا يعالجون الموضوع من خلال ما ورد إليهم من كلام العرب نثره وشعره، بينما كان علماء القراءة يدرسون الأصوات العربية ويطبقونها على الأمثلة القرآنية بصورة خاصة.

وكانت الدراسات اللغوية العربية قد بلغت مرحلة متقدمة من حيث غزارة المادة وكثرة التأليف، في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكذلك كانت رواية القراءات ودراستها والتأليف فيها، خلال هذين القرنين، نَشِطة وعميقة، لكن ذلك كله لم يُنْتِجْ ـ على ما يبدو ـ كتاباً مستقلاً في دراسة الأصوات العربية حتى جاء أبو مزاحم الخاقاني المتوفى سنة ٣٢٥هـ، فوضع اللبنة الأُولى في هذا الاتجاه، حين نظم قصيدته في حسن أداء القرآن[١].

---

(١) ذكر ابن النديم في الفهرست (ص٥٢، ٥٥، ٥٩، ٦٦، ٨١، ٨٥) عدة كتب، تتصل موضوعاتها ـ على ما يظهر من أسمائها ـ بالإصوات والنطق ومخارج الحروف وهي:
١- كتاب اللغة ومخارج الحروف وأصول النحو ـ لأبي علي الحسن بن داود النقاد (ت قبل ٣٥٠هـ).
٢- كتاب الأصوات ـ لمحمد بن المستنير الملقب بقطرب (ت ٢٠٦هـ). =

ولعل جهود اللغويين والنحويين في ميدان دراسة الأصوات، قبل أبي مزاحم الخاقاني، تنحصر في:

١- ما كتبه الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) في مقدمة كتاب «العين» عن مخارج الحروف وصفاتها[١].

٢- ما كتبه سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان ت ١٨٠هـ) في «الكتاب» في باب الإدغام، وفي مواضع متفرقة أخرى من كتابه[٢].

٣- ما كتبه المبرد (محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ) في كتابه «المقتضب» عن الأصوات العربية في (أبواب الإدغام)[٣].

= ٣- كتاب الأصوات ـ لعبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٧هـ).
٤- كتاب الأصوات ـ لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش (ت ٢٢١هـ).
٥- كتاب الحروف ـ لعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ).
٦- كتاب الحروف ـ لمحمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ).
٧- كتاب النطق ـ لأبي علي الحسن بن عبد الله الأصفهاني.
٨- كتاب النطق ـ لأبي القاسم عبد الله بن محمد الأزدي.

وإذا كان الكتاب الأول يتضمن باباً عن مخارج الحروف فإن كتب الأصوات الثلاثة قد تكون في موضوع أسماء أصوات الإنسان والحيوان والطبيعة، كما يفهم من النقول الثلاثة التي نقلها السيوطي من كتاب لابن السكيت (ت ٢٤٤هـ) في الأصوات (انظر: المزهر ١/ ٥٥٩ و ٥٦٦، ٢/ ٢٠٥) وهو الموضوع الذي تحدث عنه أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) في كتابه «فقه اللغة وسر العربية» في الباب العشرين (في الأصوات وحكايتها) (انظرمقدمة تحقيق كتاب الحروف للخليل بن أحمد ـ للدكتور رمضان عبد التواب)، ولا يعرف شيء عن كتابَي «النطق» فيما اطلعت عليه من مصادر. وكان قد نُشِرَ منذ فترة طويلة «رسالة في الحروف العربية» منسوبة للنضر بن شميل (ت ٢٠٤هـ)، تدور حول قضايا صرفية ونحوية، ولا علاقة لها بدراسة الأصوات (انظر ـ البلغة في شذوذ اللغة ص١٥٩ ـ ١٦٧).

(١) انظر: العين ١/ ٥٢ ـ ٦٧.

(٢) انظر: الكتاب ٤/ ٤٣١ ـ ٤٣٦، ومواضع أخرى متفرقة فيه.

(٣) انظر: المقتضب ١/ ١٩٢ ـ ٢٣٦.

ولم يؤلف اللغويون والنحويون كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع قبل أبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) الذي ألف «سر صناعة الإعراب» في موضوع الأصوات العربية خاصة.

أما علماء قراءة القرآن فلم يفردوا لموضوع الأصوات وتجويدها كتاباً مستقلاً قبل أبي مزاحم الخاقاني (ت ٣٢٥هـ)، الذي يعتبر أول من قام بذلك، وإن كانت قصيدته تعد شيئاً يسيراً بالمقارنة بما بلغته دراسة التجويد على يد علماء القراءة الذين عاشوا بعد قرن من عصر الخاقاني.

وقد تضمنت كتب القراءات إشارات كثيرة إلى قضايا صوتية صارت فيما بعد جزءاً من علم التجويد، لكنها ظلت موجزة وغير منظمة حتى فترات متأخرة، حين أخذ علماء القراءة يُصَدِّرُونَ كتبهم ببعض مباحث علم التجويد، على نحو ما فعل أبو الخير محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) في كتابه الكبير «النشر في القراءات العشر».

وكان التأليف في القراءات وتدوينها في الكتب قد بدأ منذ أواخر القرن الهجري الأول[1]. وكثرت كتب القراءات في القرنين الثاني والثالث، وقد أحصى باحث معاصر أربعة وأربعين كتاباً منها، حتى زمن أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد[2]، الذي توفي سنة ٣٢٤هـ، قبل وفاة أبي مزاحم بعام واحد.

ويكاد كتاب «السبعة في القراءات» لابن مجاهد يكون أقدم كتاب معروف في زماننا من كتب القراءات القديمة، ويتضمن هذا الكتاب نُتَفاً من موضوعات علم التجويد والدراسة الصوتية.

ولا يعني ذلك أن المتقدمين من علماء القراءة لم يهتموا بالتجويد، فالواقع

---

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١/٦٣، وفؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي ١/١٤٧.

(٢) عبد الهادي الفضلي: قراءة ابن كثير ص٦٠ ـ ٦٥

أنهم كانوا يطبقون أُصول التجويد تطبيقاً عملياً، وهم ينقلون القراءات بالتلقين والمشافهة، مثلما كانت الأجيال الأُولىٰ من الصحابة والتابعين يُجَوِّدُونَ القرآن، وهم لم يدرسوا هذا العلم في الكتب، وإنما كان ذلك مرتبطاً بتلقيهم القرآن مُجَوَّداً، إلى جانب تمكنهم من الفصاحة، وخلوص ألسنتهم من العجمة. وقد قال الأستاذ محمد المرعشي (ت ١١٥٠هـ ـ ١٧٣٧م) الملقب بساجقلي زاده في كتابه القيم (جهد المقل)[١]: «وتجويد القرآن قد يحصله الطالب بمشافهة الشيخ المجود، بدون معرفة مسائل هذا العلم، بل المشافهة هي العمدة في تحصيله، لكن بذلك العلم يسهل الأخذ بالمشافهة، وتزيد المهارة، ويصان به المأخوذ عن [طروء] الشك والتحريف». فكانت مباحث علم التجويد مرتبطة بالقراءات ورواياتها، ارتباطاً عملياً تطبيقياً، حتى ميَّزها علماء القراءة بكتب مستقلة في القرن الهجري الرابع وما بعده.

ولعل القارئ يتساءل عن الفرق بين كتب القراءات وموضوعها وكتب التجويد وموضوعها ويقول: ألا يمكن اعتبار بداية التأليف في القراءات بداية للتأليف في علم التجويد؟ والواقع أن علم القراءات وعلم التجويد، وإن كانا يرتبطان بقراءة القرآن الكريم، فإن بينهما اختلافاً في ما يتناوله كل منهما من قراءة القرآن، وفي منهج كل منهما في طريقة تناول موضوعه.

وقد قال الأستاذ محمد المرعشي المذكور قبل قليل[٢]: «إن قلت: ما الفرق بين علمي التجويد والقراءات؟ قلت: علم القراءات علم يُعْرَفُ فيه اختلاف أئمة الأمصار في نظم القرآن في نفس حروفه أو صفاتها، فإذا ذكر فيه شيء من ماهية صفات الحروف فهم تتميم، إذ لا يتعلق الغرض به. وأما علم التجويد فالغرض منه معرفة ماهيات صفات الحروف، فإذا ذكر فيه شيء من اختلاف الأئمة فهو تتميم، كذا حقق في الرعاية».

---

(١) جهد المقل ورقة ٢ظ.

(٢) المصدر نفسه.

وكتاب «الرعاية» الذي يشير إليه المرعشي في آخر قوله السابق هو كتاب «الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة» لأبي محمد مكي بن أبي طالب المتوفى سنة ٤٣٧هـ. الذي تحدث في أكثر من موضع فيه عن الفرق بين العلمين. فمن ذلك قوله في باب تجويد الهمزة[١]: «تقدم ذكر أصول القراءة واختلافهم في الهمز وتليينه وحذفه وبدله وتحقيقه وغير ذلك من أحكامه في غير هذا الكتاب، فلا حاجة بنا إلى ذكر ذلك، وكذلك ما شابهه، فليس هذا كتاب اختلاف، وإنما هو كتاب تجويد ألفاظ ووقوف على حقائق الكلام، وإعطاء اللفظ حقه ومعرفة أحكام الحروف التي ينشأ الكلام منها، مما لا اختلاف في أكثره».

وقال في باب الذال[٢]: «وإذا تكررت الذال وجب بيانها نحو ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص]، فهذا قد اجتمع فيه في اللفظ ثلاث ذالات، فبيانه لازم، وقد ذكرنا في غير هذا الكتاب ما تُدغم فيه الذال وغيرها من الحروف مما اختلف القراء فيه، فأغنى عن ذكر ذلك في هذا الكتاب. فتلك الكتب كتب تُحْفَظُ منها الرواية المختلف فيها، وهذا الكتاب يُحْكَمُ فيه لفظ التلاوة التي لا خلاف فيها، فتلك كتبُ روايةٍ، وهذا كتابُ درايةٍ».

ووضح مكي في أكثر من موضع في كتاب الرعاية أن علم التجويد هو في ما لا اختلاف فيه بين القراء. يقول في أول الكتاب[٣]: «ولست أذكر في هذا الكتاب إلا ما لا اختلاف فيه بين أكثر القراء». ويقول في باب الذال[٤]: «واعلم أيها الناظر في هذا الكتاب أن أكثر ما نحض على بيانه والتحفظ به ليس بين القراء فيه اختلاف». ويقول في باب الباء[٥]: «وما اختلف فيه القراء من إدغام

---

(١) الرعاية ص١٢٨.

(٢) الرعاية ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٣) الرعاية ص٤٢.

(٤) الرعاية ص١٧٦.

(٥) الرعاية ص٢٠٥.

الباء وإظهارها فهو في كتاب الاختلاف. وهذا الكتاب إنما هو كتاب اتفاق، ليس هو كتاب اختلاف، فيلزمنا ذلك».

فليست كتب القراءات ـ إذن ـ هي نفسها كتب التجويد، وليست بداية التأليف فيها بداية للتأليف في علم التجويد، ولكن يبدو أن التأليف في القراءات كان ممهداً لجمع مسائل التجويد في كتب مستقلة، على نحو ما سنوضح في الصفحات التالية.

المبحث الثاني

أبو مزاحم الخاقاني (حياته وقصيدته في التجويد)

أولاً: حياة أبي مزاحم الخاقاني:

هو موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان[1]، أبو مزاحم، المشهور بالخاقاني، العالم البغدادي المقرئ.

وهو من أسرة اشتغل أكثر من واحد من رجالها في الوزارة للخلفاء العباسيين، فكان أبوه عبيد الله وزيراً للخليفة المتوكل (جعفر بن المعتصم بن الرشيد

---

(١) خاقان: اسم لكل ملك من ملوك الترك، قال أبو منصور: وليس من العربية في شيء، (ابن منظور: لسان العرب مادة خقن)، وجاء في هامش معجم الشعراء، للمرزباني (ص٢٩٠ هامش ١). أن اسم (خاقان) جد أبي موسى هو (النضر بن موسى بن أبي الضحى: مسلم بن صبيح، مولىسعيد بن العاص) إ.هـ. وأبو الضحى مسلم بن صبيح هو أحد ثقات التابعين، من أهل الكوفة، ترجم له مؤلفو كتب الطبقات، فذكره ابن سعد (الطبقات ٦/ ٢٨٨)، وابن أبي حاتم (كتاب الجرح والتعديل ج٤ ـ ق١/ ١٨٦)، وابن حجر (تهذيب التهذيب ١٠/ ١٣٢). لكن الخطيب البغدادي ذكر أن أبا مزاحم هو مولى لبني واشح، من الأزد، رهط سليمان بن حرب (تاريخ بغداد ١٣/ ٥٩). وسليمان من أهل البصرة. كان ثقة في الحديث، وتوفي سنة ٢٢٤هـ، (انظر: تاريخ بغداد ٩/ ٣٣). وما اطلعت عليه من مصادر تاريخية لا يسعف في تحقيق ما جاء في هامش معجم الشعراء، ولا في توضيح حقيقة ولاء أبي مزاحم أو أصولها القديمة. =

ت٢٤٧هـ) والمعتمد (أحمد بن جعفر المتوكل ت ٢٧٩هـ). وظل عبيد الله في الوزارة حتى تُوُفِّيَ سنة ٢٦٣هـ[١]. وكذلك اشتغل بالوزارة ومناصب الدولة أخوه أبو علي محمد بن عبيد الله (ت ٣١٢هـ)، وابن أخيه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبيد الله (ت ٣١٤هـ)[٢].

ولد أبو مزاحم سنة ٢٤٨هـ، وكان عمره حين وفاة أبيه خمس عشرة سنة تقريباً[٣]. وتقلُّ الأخبارُ في المصادر التاريخية عن نشأته الأولى وأيام شبابه، وهي قليلة كذلك بالنسبة لكثير من تفصيلات جوانب حياته المختلفة.

وإذا كانت المشاركة في الأمور السياسية والإدارية سبباً في شهرة كثير من أفراد أسرة أبي مزاحم، فإن العلم والاشتغال به كان السبب في شهرة أبي مزاحم، فقد اعتزل ما كان فيه أفراد أسرته من جاه السلطان، واتجه إلى دراسة علوم القرآن والحديث واللغة والأدب، والاشتغال بتدريسها، فجلب له ذلك الذكر الحسن الجميل بين الناس في حياته وبعد مماته في ذي الحجة لإحدى عشرة خَلَوْنَ منه سنة ٣٢٥هـ[٤]، عن عمر ناهز السابعة والسبعين.

وقد أجمع مَن ترجموا لأبي مزاحم على وصفه بالثقة والعلم بالقرآن والحديث والعربية، مع الديانة والتمسك بالسنة. قال المرزباني عن أبي مزاحم[٥]: «كان راوية مأموناً على ما رواه من الآثار والأخبار».

وقال أبو عمرو الداني في وصفه[٦]: «كان إماماً في قراءة الكسائي، ضابطاً

---

(١) انظر: الخطيب، تاريخ بغداد ١٣/ ٥٩، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣١٠.

(٢) نفس الهامش السابق.

(٣) المرزباني، معجم الشعراء ص٢٩٠، والخطيب، تاريخ بغداد ١٣/ ٥٩.

(٤) انظر: المصدرين السابقين.

(٥) معجم الشعراء ص٢٩٠.

(٦) انظر: ابن الجزري، غاية النهاية ٢/ ٣٢١.

لها، قرأ عليه غير واحد من الحذاق، منهم أحمد بن نصر الشذائي، ومحمد بن أحمد الشَّنَبُوذي وغيرهما. قال: وكان أبوه وجَدُّه وزيرين لبني العباس، وكذلك أخوه أبو علي محمد بن عبيد الله. وترك أبو مزاحم الدنيا، وأعمل نفسه في رواية الحديث، وأقرأ الناس، وتمسك بالسنة. قال: وكان بصيراً بالعربية شاعراً مجوداً».

وقال الخطيب[(١)]: «كان ثقةً، دَيِّناً، من أهل السُّنَّةِ».

وقال الذهبي يصفه بأنه[(٢)]: «المقرئُ، المحدِّثُ، من أولاد الوزراء... وكان من جلَّة العلماء».

وقال عنه أبو الخير بن الجزري[(٣)]: «إمام مقرئٌ مُجَوِّدٌ، مُحَدِّثٌ أصيل، ثقةٌ سُنِّيٌّ».

وكان أبو مزاحم شاعراً مُجَوِّداً، كما وصفه الداني، وقد ذكره المرزباني في «معجم الشعراء»، ويبدو أن له شعراً كثيراً.

قال المرزباني[(٤)]: «وحُبُّ معاوية بن أبي سفيان قد غلب عليه، حتى قال فيه أشعاراً كثيرة، فدوَّنها العامة عنه». ولا شك في أنه قال شعراً في غير هذا المعنى من أغراض الشعر، لكنه اجتنب المدح لأجل المنفعة، واجتنب الهجاء في شعره. وروى المرزباني من شعر أبي موسى أربعة أبيات، تدل على نوع الشعر الذي كان يقوله، وهي قوله[(٥)]:

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٥٩.

(٢) معرفة القراء ١/٢١٩.

(٣) غاية النهاية ٢/٣٢٠.

(٤) معجم الشعراء ص٢٩١.

(٥) المصدر نفسه ص٢٩١.

الشعرُ لي أدبٌ أَسْلُو بحكمته ... وما سبيلي فيه المادحُ الهاجي
ولستُ ما صانني المولى ووَفَّقَنِي ... إلى هجاءٍ ولا مَدْحٍ بمحتاج

وقوله:

لعزةِ العلمِ يسعىٰ الطالبون له ... إليه، والعلمُ لا يسعىٰ إلى أَحَدِ
وكلُّ مَنْ لا يصونُ العلمَ يظلمُه ... ومَن يَصُنْهُ بعدلٍ يُهْدَ للرَّشَدِ

وكان نقشُ خاتم أبي مزاحم «دِنْ بالسُّنَنْ، موسىٰ تُعَنْ»[1] وهي عبارة تدل على تعلق بالشعر، كما تدل على تمسك بالسنة.

ومما يدل على تعلق أبي مزاحم بالشعر وتمكنه من العربية أنه حاول استخدام الشعر في بحث قضايا العلم، فنظم قصيدته الرائية في حسن أداء القرآن، ونظم قصيدة أخرى في السُّنَّةِ أو الفقهاء، مما سنتحدث عنه بعد قليل، وربما غلبت على شعر أبي مزاحم الحكمة والنظرة العقلية، كما يتضح من الأبيات القليلة السابقة من شعره.

ولعل أبا مزاحم قضى أكثر أيام حياته في بغداد، وهذا لا يمنع من أن يكون قضى بعض الوقت في سامراء، مقر عمل أبيه، أو في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث يحج المسلمون ويجاورون أياماً وشهوراً، وقد جاء في بعض المصادر أن أبا بكر محمد بن الحسين الآجري كان يروي قصيدة أستاذه أبي مزاحم في حسن أداء القرآن في مكة[2]. ولعله أَمَّ بلداناً أخرى لم يرد لها في المصادر التي اطلعت عليها ذكر.

وكان أبو مزاحم الخاقاني من طبقة الحفاظ أبي بكر أحمد بن موسى بن

---

(١) المصدر نفسه ص٢٩١، والخطيب، تاريخ بغداد ١٣/ ٥٩.
(٢) كتاب في التجويد، لعلَّه لأبي العلاء الهمذاني العطار، ورقة ٥٥و.

العباس بن مجاهد (ت٣٢٤هـ) قارئ أهل بغداد في زمانه، المشتهر بتأليفه كتاب «السبعة في القراءات»[١]. وقد شارك أبو مزاحم ابن مجاهد في كثير من شيوخه، كما شاركه في عدد من تلامذته.

وكان أبو مزاحم قد درس على يد كثير من كبار علماء القراءة والحديث في زمانه، فذكر الخطيب البغدادي من شيوخه الذين سمع منهم الحديث جماعة، هم[٢]:

١- أبو الفضل عباس بن محمد الدوري البغدادي الحافظ (ت٢٧١هـ).

٢- أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي البصري الضرير الحافظ (ت ٢٧٦هـ).

٣- أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي السُّلَمِي (ت ٢٨٠هـ).

٤- أبو بكر أحمد بن علي المروزي (ت ٢٩٢هـ).

٥- أبو جعفر محمد بن غالب التمتام البصري نزيل بغداد (ت ٢٨٣هـ).

٦- أو محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة البغدادي (ت ٢٨٢هـ).

٧- أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل البغدادي الحافظ ابن الحافظ (ت ٢٩٠هـ).

٨- عبد الله بن أبي سعد الوراق.

٩- إسحاق بن يعقوب العطار.

١٠- يعقوب بن يوسف المطوعي.

وذكر ابن الجزري من شيوخه في القراءة جماعة، هم[٣]:

١- أبو بكر الحسن بن عبد الوهاب البغدادي الوراق.

---

(١) انظر ترجمة ابن مجاهد عند: ابن الجزري: غاية النهاية ١/ ١٣٩.

(٢) تاريخ بغداد ١٣/ ٥٩.

(٣) غاية النهاية ٢/ ٣٢٠، وانظر ١/ ٤٣٩.

٢- أبو الحسن إدريس بن عبد الكريم البغدادي الحداد (ت ٢٩٢هـ).
٣- أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن عيسى المقرئ.
٤- أبو جعفر محمد بن فرج الغساني البغدادي النحوي (ت بعد ٣٠٠هـ).
٥- أبو عبد الله محمد بن يحيى الكسائي الصغير (ت ٢٨٢هـ).
٦- أبو عبد الله أحمد بن يوسف التغلبي البغدادي.
٧- أبو العباس محمد بن أحمد بن واصل البغدادي (ت ٢٧٣هـ).

وتذكر كتب التراجم جماعة من العلماء الذين أسهم أبو مزاحم في تكوين ملكاتهم العلمية، حين تتلمذوا عليه وأخذوا العلم عنه، فذكر الخطيب البغدادي من العلماء الذين رَوَوْا عنه جماعة، هم[(١)]:

١- أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، الإمام المحدث القدوة (ت ٣٦٠هـ).
٢- أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن أبي هاشم المقرىء (ت ٣٤٩هـ).
٣- أبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين البغدادي (ت ٣٨٥هـ).
٤- المعافى بن زكريا بن يحيى (ت ٣٩٠هـ).
٥- أبو عمر محمد بن العباس بن محمد بن حيويه.
٦- يوسف بن عمر القواس.

وذكر ابن الجزري جماعة من العلماء أخذوا القراءة عن أبي مزاحم، هم[(٢)]:

١- أبو بكر أحمد بن نصر الشذائي البصري (ت ٣٧٣هـ).

---

(١) تاريخ بغداد ١٣/٥٩، وقد وجدت أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي (ت ٣٦٨هـ) ينقل مباشرة اثنتي عشرة رواية عن أبي مزاحم الخاقاني، وذلك في كتابه «أخبار النحويين البصريين» تتعلق ببعض أخبار اللغويين والنحويين المتقدمين، فيقول مثلاً: «حدثنا أبو مزاحم موسى بن عبيد الله قال: حدثنا...»، (انظر: أخبار النحويين البصريين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦، ص٤٣ و٧٣ و٧٩ و٨١ و٨٢).

(٢) غاية النهاية ٢/٣٢٠، وانظر ١/١٠٨ و ١/٤٦٢، والذهبي: معرفة القراء ١/٢١٩.

٢- أبو بكر أحمد بن الحسين بن شاذان البغدادي البزاز.

٣- أبو القاسم زيد بن علي العجلي الكوفي (ت ٣٥٨هـ).

٤- أبو الفرج محمد بن أحمد بن إبراهيم الشنبوذي (ت ٣٨٨هـ).

ولا شك في أن عالماً هؤلاء تلامذتُه وأولئك أساتذته جدير بأن ينال المنزلة العالية التي تحدث عنها مَن ترجموا له، وإذا كان أبو مزاحم قد عاش ما يقرب من السبعة والسبعين عاماً (٢٤٨ ـ ٣٢٥هـ)، فإن الاهتمام به وبإنتاجه لا يزال يتجدد على ألسنة الدارسين وأقلام الباحثين، خاصة قصيدته في حسن أداء القرآن، التي يشير إليها العلماء على أنها أول مُؤَلَّفٍ كُتِبَ في علم التجويد، فلنتحدثْ عن هذه القصيدة، وعما تركت من أثر في كتب التجويد، بادئين بتحديد مؤلفات أبي مزاحم.

ثانياً: مؤلفات أبي مزاحم الخاقاني:

لم يكتب أبو مزاحم كُتُباً، حسبما عرفتُ من المصادر، ولكنه نظم قصيدتين موجزتين، فيما كان مشتغلاً به من علم القرآن والسنة. فلم تذكر المصادر له سوى هاتين القصيدتين، ولم يُعْرَفْ له غيرهما، لكن بعض المؤلفين اضطربت عبارتهم في تحديد مؤلفاته، بما يوهم أن لأبي مزاحم قصائد علمية غيرهما.

قال الذهبي(١): «ونظم القصيدة المشهورة في التجويد فأجاد».

وقال ابن الجزري(٢): «هو أول من صنف في التجويد، فيما أعلم، وقصيدته الرائية المشهورة، وشرحها الحافظ أبو عمرو. وقد أخبرني بها وبقصيدته الأخرى في السنة أبو حفص عمر بن الحسن المراغي بقراءتي عليه...».

---

(١) معرفة القراء ١/ ٢٢٠.

(٢) غاية النهاية ٢/ ٣٢١.

وهذا يدل على ما ذكرناه من قبل من أن لأبي مزاحم قصيدتين، واحدة في التجويد، والأخرى في السُّنَّة. لكن حاجي خليفة ذكر في كتابه «كشف الظنون» قصيدة أبي مزاحم في التجويد، فقال[1]: «وأول من صنف في التجويد موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني البغدادي المقرئ، المتوفى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة، ذكره ابن الجزري».

وقال في موضع ثان[2]: «القصيدة الخاقانية، لموسى بن عبيد الله بن يحيى الخاقاني أبي مزاحم، في التجويد شرحها أبو عمرو الداني، المذكور في «التيسير».

وقال في موضع ثالث[3]: «القصيدة الرائية في علم الإنشاء [؟]، لأبي مزاحم موسى بن عبد [؟] الله بن خاقان الحالي».

وقال أخيراً، وهو يتحدث عن القصيدة النونية لعلم الدين السخاوي[4]: «ولأبي مزاحم موسى بن عبد [؟] الله بن يحيى الخاقاني المتوفى سنة ٣٢٥هـ قصيدة نونية في التجويد، ذكرها السخاوي في آخر قصيدته، مادحاً لها بقوله:

وٱعلمْ بأنكَ جائِرٌ في ظلمها ... إن قِسْتَـهَا بقصيـدةِ الخاقاني

كأنه يفضلها على قصيدة الخاقاني».

ويبدو أن ما ذكره حاجي خليفة ما هو إلا قصيدة أبي مزاحم الرائية، التي قالها في حسن أداء القرآن، ولعل حاجي خليفة لم يطلع عليها فاضطربت عبارته حين ذكرها، فوصفها بالقصيدة الخاقانية، والرائية، والنونية!

---

(١) كشف الظنون ١/ ٣٥٤.

(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ١٣٣٩.

(٤) المصدر نفسه ٢/ ١٣٤٨.

وقال إسماعيل باشا البغدادي في كتابه «هدية العارفين»[1]: «الخاقاني: موسىٰ بن عبيد الله بن يحيى الخاقاني، أبو مزاحم، المقرئ، المتوفى سنة ٣٢٥هـ، له القصيدة الخاقانية في القراءة، قصيدة في التجويد».

ويبدو أن عبارة إسماعيل باشا الأخيرة قد أوهمت مؤلف «معجم المؤلفين» الأستاذ عمر رضا كحالة، فقال في ترجمة الخاقاني[2]: «من آثاره: قصيدة في التجويد، والقصيدة الخاقانية في القراءة».

ولا أشك في أن الصواب في تحديد مؤلفات أبي مزاحم هو ما ذكره خير الدين الزركلي من أن لأبي مزاحم قصيدة في التجويد، وقصيدة في الفقهاء[3].

وقد ذكر القصيدتين الأستاذ فؤاد سزكين في «تاريخ التراث العربي»[4]. وذكر المكتبات التي تحتفظ بنسخ مخطوطة منهما[5]. والذي يعنينا الحديث عنه هنا من قصيدتي أبي مزاحم هو القصيدة الرائية في التجويد، التي مطلعها:

أقول مقالاً معجباً لأُولي الحِجْرِ ولا فخرَ إنَّ الفخرَ يدعو إلى الكِبْرِ

---

(١) هدية العارفين ٢/ ٤٧٨.

(٢) معجم المؤلفين ١٣/ ٤٢.

(٣) الأعلام ٨/ ٢٧٥.

(٤) تاريخ التراث العربي ١/ ١٦٥. وانظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٤/ ٥.

(٥) قصيدة أبي مزاحم في الفقهاء، أو في السنة، أولها:

أعوذ بعزةِ الله السلامِ وقدرته من البدع العظامِ
أُبَيِّنُ مذهبي فيما أراه إماماً في الحلال وفي الحرام

وعدة أبياتها ثمانية عشر بيتاً، وآخرها:

وما قال الرسول فلا خلافٌ له يا ربِّ فأبلغه سلامي

انظر: فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الملكية ببرلين، وضع إلفارت ١/ ١٩٠.

ثالثاً: القصيدة الخاقانية:

هناك سؤال تلزم الإجابة عليه قبل ذكر نص القصيدة، وهو: هل سَمَّىٰ أبو مزاحم قصيدته باسم معين؟

لم يُنْقَل أن أبا مزاحم الخاقاني سَمَّىٰ قصيدته في التجويد باسم معين، ولذلك فإن الذين يذكرونها ينسبونها إلى أبي مزاحم مرة، أو يصفونها بصفة تتصل بموضوعها مرة أخرى.

فحين نقل أبو الحسن علي بن جعفر السعيدي (توفي في حدود ٤١٠هـ) أبياتاً منها، قال: «وقال أبو مزاحم في قصيدته»[١]، وحين شرحها أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) سمى شرحه (شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني). وقال في في المقدمة منها: «التي قالها في القراء وحسن الأداء»[٢]، وقد ذكر ابن الجزري هذا الشرح في ترجمة أبي عمرو الداني باسم: «كتاب شرح قصيدة الخاقاني في التجويد»[٣].

وعندما نقل أبو القاسم إبراهيم بن أحمد الخرقي (ت ٣٧٤هـ) قصيدة أبي مزاحم، قال[٤]: «سمعت أبا مزاحم موسىٰ بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني، يقول في حسن أداء القرآن»، وحين ذكرها أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥هـ) في فهرسته سَمَّاها «قصيدة أبي مزاحم موسى بن عبيد الله الخاقاني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في وصف القراءة والقراء»[٥].

---

(١) التنبيه ورقة ٦٨و.

(٢) شرح قصيدة أبي مزاحم ورقة ١٢٧و.

(٣) غاية النهاية ١/ ٥٠٥.

(٤) انظر كتاب التجويد لعلَّه لأبي العلاء الهمذاني العطار، ورقة ١٥٦و.

(٥) فهرست ما رواه عن شيوخه ابن خير ص٧٢.

وذكرها بعض مصنفي كتب التراجم باسم «القصيدة الخاقانية»[1]. وذكرها آخرون باسم «قصيدة في التجويد»[2].

فتسمية القصيدة بالخاقانية ترجع - إذن - إلى اسم مؤلفها أبي مزاحم الخاقاني، وتسميتها: قصيدة في التجويد، أو في وصف القراءة والقراء، أو في حسن أداء القرآن، ترجع إلى موضوعها الذي تتحدث عنه.

وتتألف القصيدة الخاقانية من واحد وخمسين بيتاً، نظمت في بحر الطويل[3]، وقد اعتمدت في تحقيق نصها على نسختين: الأولى ناقصة، تتضمن واحداً وثلاثين بيتاً منها فقط، وهي شرح الداني للقصيدة الخاقانية. والثانية نسخة كاملة، محفوظة في مكتبة الجامع الأزهر[4]، وهذا هو نص القصيدة[5]:

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ٢/ ١٣٣٧، وإسماعيل باشا: هدية العارفين ٢/ ٤٧٨.

(٢) إسماعيل باشا: هدية العارفين ٢/ ٤٧٨، وعمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٣/ ٢٤٢، والزركلي: الأعلام ٨/ ٢٧٥، وفؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ١٦٥.

(٣) جاء في فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الملكية ببرلين (١/ ١٨٩): إن الخاقاني ألحق بقصيدته خمسة أبيات أخرى، من بحر الكامل، منها قوله:

أبياتها أحد وخمسون اعتلت ... فوق القصائد فهي للخاقاني

(٤) النسخة التي اعتمدنا عليها في شرح القصيدة الخاقانية للداني هي المحفوظة في مكتبة جستر بتي برقم (٣٦٥٣/ ١٠) وقد حصلت على نسخة مصورة منها، ورمزت لها بحرف س. أما النسخة الأخرى فهي ضمن مجموع (ورقة ٣١ - ٣٦)، ومحفوظة في المكتبة الأزهرية تحت رقم [١٩٢]١٦٢٣٠ وقد حصلت منها على نسختين منقولتين باليد، قام بنسخ كل واحدة منها بعض الإخوة، فجاءت النسختان متطابقتين، بحمد الله، وهو ما يزيد ثقتنا بصحة النقل من تلك النسخة، فجزى الله الأخوين الكريمين خيراً، وقد رمزت لها بحرف هـ.

(٥) لم أحاول التعليق على نص القصيدة إلا بما يتعلق بإقامة النص، اعتماداً على وضوح عبارتها وخشية من الإطالة، عسى أن تتاح فرصة أخرى تتسع لتحليل القصيدة وبيان طريقة بنائها، وما تضمنت من موضوعات.

١- أقولُ مقالاً مُعْجِباً لأُولِي الحِجْر

ولا فَخْرَ إنَّ الفخرَ يدعو إلى الكِبْرِ

٢- أُعَلِّمُ في القولِ التِلاوةَ عائذاً

بمولاي من شَرِّ المباهاةِ والفَخْرِ[١]

٣- وأسأله عَوْني عِلْمَ ما نَوَيْتُـهُ

وحفظِيَ في دِيني إلى منتهىٰ عُمْرِي

٤- وأَسألهُ عني التجاوزَ في غدٍ

فما زال ذا عَفْوٍ جميلٍ وذا غَفْرِ

٥- أَيَا قارئَ القرآنِ أَحْسِنْ أَداءَهُ

يُضَاعِفْ لكَ اللهُ الجزيلَ مِنَ الأَجْرِ

٦- فما كلُّ مَنْ يتلُو الكتابَ يُقِيمُهُ

ولا كُلُّ مَنْ في الناسِ يُقْرِئُهم مُقْرِي

٧- وإنَّ لنا أَخْذَ القراءةِ سُنَّةً

عن الأَوَّلِين المقرئينَ ذوي السَّبْرِ[٢]

٨- فللسبعةِ القراءِ حَقٌّ على الوَرَىٰ

لإقرائِهِمْ قرآنَ رَبِّهُمُ للوتْرِ

---

(١) س (الفجر) هـ (الفخر) وجاءت الكلمة في البيت الذي ورد في فهرس المكتبة الملكية ببرلين (١/ ١٨٩) كما في هـ.

(٢) س (الستر)، هـ (السبر). وقد جاء البيت السابع قبل السادس في هـ. وفي كتاب التجويد الذي رجحنا أنه لأبي العلاء الهمذاني (ورقة ٥٥و) جاء ترتيب الأبيات كما في س.

٩- فبالحرمينِ ابنُ الكثيرِ ونافعٌ

وبالبصرة ابنُ العلاءِ أبو عَمْرِو[١]

١٠- وبالشام عبدُ الله وهو ابنُ عامرٍ

وعاصمٌ الكوفيُّ وَهْوَ أبو بَكْرِ

١١- وحمزةُ أيضاً والكسائيُّ بعدَه

أخو الحِذْقِ بالقرآنِ والنحوِ والشِّعْرِ[٢]

١٢- فذو الحِذْقِ مُعْطٍ للحروفِ حقوقَها

إذا رتَّلَ القرآنَ أو كان ذا حَدْرِ

١٣- وترتيلُنا القرآنَ أَفْضَلُ للذي

أُمِرْنَا بهِ مِنْ مُكثنا فيهِ والفِكْرِ[٣]

١٤- وأمَّا حَدَرْنَا دَرْسَنَا فمُرَخَّصٌ

لنا فيه إذ دِينُ العبادِ إلى اليُسْرِ[٤]

١٥- أَلاَ فٱحفظوا وَصْفِي لكم ما ٱختصرتُهُ

ليَدْرِيَهُ مَنْ لم يكُنْ منكمُ يَدْرِي

---

(١) س (ابن الكثير)، هـ (ابن كثير). والأول هو الذي يناسب الوزن.

(٢) س (أخو)، هـ (حوى).

(٣) س هـ (مكثنا) وفي المفيد شرح عمدة المجيد لابن أم قاسم (ورقة ١١٧و) جاءت الكلمة في البيت الذي نقله المؤلف (لبثنا).

(٤) تقدم البيت الرابع عشر على الثالث عشر في (هـ) وجاء ترتيب الأبيات كما أثبتناه في (س) في كتاب المفيد شرح عمدة المجيد لابن أم قاسم (ورقة ١١٧و).

١٦- ففي شَرْبَةٍ لو كان عِلمي سقيتُكُم
ولم أُخْفِ عنكم ذلك العِلْمَ بالذُّخْرِ[(١)]

١٧- فقد قلتُ في حُسْنِ الأداءِ قصيدةً
رَجَوْتُ إلاهي أن يَـحُطَّ بها وِزْري

١٨- وأبياتُها خمسونَ بيتاً وواحدٌ
تَـنَظَّمُ بيتاً بعد بيتٍ على الإثْرِ

١٩- وباللهِ توفيقي وأَجْرِي عليه في
إقامَتِنا إعرابَ آياتِه الزُّهْرِ

٢٠- ومَنْ يُقِمِ القرآنَ كالقِدْحِ فَلْيَكُنْ
مطيعاً لأمرِ اللهِ في السِّرِ والجَهْرِ

٢١- ألا اْعلمْ أَخي أَنَّ الفصاحةَ زيَّنَتْ
تلاوةَ تالٍ أَدْمَنَ الدَّرْسَ للذِّكْرِ[(٢)]

٢٢- إذا ما تَلا التالِي أَرَقَّ لِسَانَهُ
وأذْهَبَ بالإدمانِ عَنْهُ أَذَى الصَّدْرِ

٢٣- فأَوَّلُ عِلْمِ الذكرِ إتقانُ حِفْظِهِ
ومعرفةٌ باللحن مِن فيك إذ يَجْرِي[(٣)]

---

(١) س (بالذخر)، هـ (بالدخر).

(٢) كذا في (س) وفي (هـ). ألا فاعلمن أن التلاوة زينت.

(٣) (س) وفي شرح الواضحة لابن أم قاسم (ورقة ٧٩و): ومعرفة باللحن من فيك إذ يجري، وفي (هـ): ومعرفة باللحن منه إذا يجري. =

٢٤- فكُنْ عارفاً باللَّحْنِ كيما تُزِيلَهُ

فما للذي لا يعرفُ اللَّحْنَ من عُذْرِ(١)

٢٥- فإن أَنْتَ حَقَّقْتَ القراءَةَ فٱحْذَرِ الزِ

زيادةَ فيها وٱسْأَلِ العونَ ذا القَهْرِ(٢)

٢٦- زِن الحرفَ لا تُخرِجْهُ عَنْ حَدِّ وَزْنِه

فوزنُ حروفِ الذكرِ من أَفْضَلِ البرِّ(٣)

٢٧- وحُكْمُكَ بالتحقيقِ إن كنتَ آخذاً

على أحدٍ أن لا تزيدَ على عَشْرِ(٤)

٢٨- فَبيِّنْ إذنْ ما يَنْبَغِي أَنْ تُبِينَهُ

وأدْغِمْ وأَخْفِ الحرفَ في غير ما عُسْرِ

٢٩- وإنَّ الذي تُخْفِيه ليس بمُدْغَمٍ

وبينهما فَرْقٌ فَفَرِّقْهُ باليُسْرِ

٣٠- وقُلْ إنَّ تسكينَ الحروفِ بجَزْمِهَا

وتحريكُهَا بالرَّفْعِ والنَّصْبِ والجَرِّ

= وفي مقدمة في الوقف والابتداء لأبي الأصبغ السماني (ورقة ١٣٨ظ): ومعرفة باللحن فيه إذا يجري.

(١) س ومقدمة في الوقف والابتداء لأبي الأصبغ السماني (ورقة ١٣٨ظ) (فما) هـ وما.

(٢) كذا في (س)، وفي هـ: وإن خفيت عنك القراءة فاحذر...

(٣) س (أفضل)، هـ (أعظم).

(٤) س (على أحد)، هـ (على أخذ).

٣١- فحَرِّكْ وسَكِّنْ واْقْطَعَنْ تارةً وصِلْ
ومَكِّنْ ومَيِّزْ بَيْنَ مَدِّكَ والقَصْرِ

٣٢- وما المدُّ إلا في ثلاثةِ أَحْرُفٍ
تُسَمَّى حروفَ اللينِ بَاحَ بها ذِكْرِي

٣٣- هِيَ الألِفُ المعروفُ فيها سُكُونُهَا
وواوٌ وياءٌ يَسْكُنَانِ معاً فَاْدْرِ

٣٤- وخَفِّفْ وثَقِّلْ واْشْدُدِ الفَكَّ مُذْ أتىٰ
ولا تُفْرِطَنْ في الفتحِ والضمِ والكَسْرِ

٣٥- وما كان مهموزاً فكُنْ هامِزاً له
ولا تَهْمِزَنْ ما كان لَحْناً لَدَىٰ النَّبْرِ

٣٦- فإنْ يَكُ قبلَ الياءِ والواوِ فتحةٌ
وبعدَهما هَمْزٌ هَمَزْتَ على قَدْرِ[1]

٣٧- وأرْقِقْ بيانَ الراءِ واللامِ تَنْدَرِبْ
لِسَانُكَ حتىٰ تَنْظِمَ القَوْلَ كالدُّرِّ

٣٨- وأَنْعِمْ بيانَ العينِ والهاءِ كُلَّمَا
درستَ وكُنْ في الدرسِ معتدلَ الأَمْرِ

٣٩- وقِفْ عندَ إتمامِ الكلامِ موافقاً
لمُصْحَفِنَا المَتْلُوِّ في البَرِّ والبَحْرِ

---

(١) هـ (فإن يك) وفي التنبيه لأبي الحسن السعيدي، ورقة ٦٨و (فإن تك).

٤٠- ولا تُدْغِمَنَّ الميمَ إن جئتَ بعدَها

بحرفٍ سواها وٱقبلِ العلمَ بالشُّكْرِ[١]

٤١- وضَمُّك قبلَ الواوِ كُنْ مُشْبِعاً لهُ

كما أَشْبَعُوا (إياكَ نَعْبُدُ) في المَرِّ

٤٢- وإنْ حرفُ لينٍ كان مِنْ قَبْلِ ساكنٍ

كآخر ما في الحَمْدِ فٱمْدُدْهُ وٱسْتَجْرِ

٤٣- مَدَدْتَ لأَنَّ الساكنينِ تَلاقَيَا

فصارَا كتحريكٍ كذا قال ذُو الخُبْرِ

٤٤- وأُسْمِي حروفاً سِتَّةً لِتَخُصَّها

بإظهار نونٍ قبلَها [...] الدَّهْرِ[٢]

٤٥- فحَاءٌ وخاءٌ ثُمَّ هَاءٌ وهَمْزَةٌ

وعَينٌ وغَينٌ ليسَ قَوْليَ بالنُّكْرِ

٤٦- فهاذِي حروفُ الحَلْقِ يَخْفَىٰ بيانُها

فدُونَكَ بيِّنْهَا ولا تَعْصِيَنْ أَمْرِي[٣]

---

(١) هـ، وفي كتاب التجويد، الذي رجحنا أنه لأبي العلاء الهمذاني (ورقة ١٥٦ظ) (ولا)، وفي التنبيه لأبي الحسن السعيدي (ورقة ٦٨و) (فلا).

(٢) ي الأصل (هـ) كلمة غير واضحة هكذا رسمت (ايمدا الدهر) ولعلها (أي مدى الدهر)، أو (أبد الدهر).

(٣) في هامش هـ)فدونك اظهرها).

٤٧- ولا تُشْدِدِ النونَ التي يُظْهِرُونَها

كقولِكِ (مِنْ خَيْلٍ) لدىٰ سورة الحَشْرِ

٤٨- وإظهارُكَ التنوينَ فَهْوَ قياسُهَا

فنَبِّهْ عليها فُزْتَ بالكاعِبِ البِكْرِ

٤٩- وقَدْ بَقِيَتْ أشياءُ بَعْدُ لطيفةٌ

يبَيِّنُهَا راعِي التَّعَلُّمِ بالصَّبْرِ

٥٠- فلابنِ عُبَيْدِ اللهِ مُوسىٰ علىٰ الذي

يُعَلِّمُهُ الخيرَ الدعاءَ لدىٰ الفَجْرِ

٥١- أَجابَكَ فِينا ربُّنَا وأَجَابَنَا

[أخِي] فيكَ بالغفرانِ منه وبالنَّصْرِ[1]

المبحث الثالث

تأثير قصيدة الخاقاني في جهود اللاحقين

تلك هي القصيدة الخاقانية في التجويد، أو في حسن أداء القرآن، لا يعرفها اليوم إلا النفر القليل جداً من الناس، ولا تكاد توجد إلا في صفحات مخطوطة مطوية في ظلمات بعض المكتبات، فهل كانت هذه القصيدة مجهولة عند المتقدمين بهذه الدرجة؟ وهل كان مؤلفها مَنْسِيّاً إلى هذا الحد؟

إن الإجابة على هاذين السؤالين تقتضي التنقيب في كثير من المصادر المؤلفة في علم التجويد وفي غيره، منذ زمن أبي مزاحم، قرناً بعد قرن، إلى

---

(١) (أخي) ليست في هـ، ولا يستقيم الوزن بدونها، وقد أثبتها مما جاء في فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الملكية ببرلين (١/ ١٨٩).

وقتنا الحاضر، وهي مهمة ليست يسيرة، لأن أكثر كتب التجويد القديمة لا يزال مخطوطاً، ومتناثراً في مكتبات متباعدة في أقطار شتى، يصعب الاطلاع عليها. وقد تجمع لديّ ـ بفضل الله تعالى ـ عدد من تلك الكتب تنفع في تتبع رحلة القصيدة الخاقانية، عبر الأزمان والبلدان، بشكل محدود، وعلى هذا النحو:

١ - قصيدة أبي الحسين الملطي (ت ٣٧٧هـ) في معارضة قصيدة الخاقاني:

لما ذاعت قصيدة أبي مزاحم في التجويد في البلدان، وتناقلتها الركبان، واتجهت من بغداد شرقاً وغرباً، حفظها الدارسون، وشرحها العلماء، واستشهد بها المؤلفون، فكانت تلك القصيدة ذات تأثيرات متنوعة في دراسات علماء السلف، في القراءة وعلم التجويد.

وحين بلغت هذه القصيدة أبا الحسين محمد بن أحمد الملطي، نزيل عسقلان[١]، عارضها بقصيدة مماثلة، ذكرها أبو بكر بن خير الإشبيلي في فهرسته. فقال[٢]: «قصيدة أبي الحسين محمد بن أحمد الملطي في معارضة قصيدة أبي مزاحم الخاقان، رحمهما الله، حدثني بها الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن هذيل، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إجازة، عن ربيبه المقرئ أبي داود سليمان بن نجاح. قال: أنشدنا شيخنا أبو عمرو بن عثمان بن سعيد، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أنشدني أبو مروان عبيد الله بن سلمة بن حزم المكتب، لفظاً من كتابه، ومنه تعلمت عامة القرآن، قال: أنشدنا أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي، بعسقلان، لنفسه، معارضاً لأبي مزاحم الخاقاني، لما بلغه قوله في القراء.

قال أبو عمرو: أنشدنيها أيضاً، لفظاً، أبو محمد إسماعيل بن رجاء بن سعيد العسقلاني، قال: أنشدني إملاءً أبو الحسن، رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) انظر ترجمته: ابن الجزري: غاية النهاية ٢/ ٦٧.

(٢) فهرسة ما رواه عن شيوخه ابن خير ص٧٣ ـ ٧٤.

أقولُ لأَهلِ اللُّبِّ والفضلِ والحِجْرِ مقـالَ مُـريـدٍ لـلثـوابِ وللأَجْـرِ

إلى آخرها. وهي تسعة وخمسون بيتاً، وزاد فيها الحافظ أبو عمرو بيتاً واحداً، تكملة ستين بيتاً».

وقد نقل أبو الخير ابن الجزري من هذه القصيدة أربعة أبيات من أولها، بسند ينتهي إلى أبي عمرو الداني، ثم إلى المؤلف، وهي[1]:

أقولُ لأَهلِ اللُّبِ والفضلِ والحِجْرِ
مقالَ مُرِيدٍ للثوابِ وللأَجْرِ
وأسألُ ربِّي عَفْوَهُ وعَطَاءَهُ
وطَرْدَ دَواعِي العُجْبِ عَنِّيَ والكِبْرِ
وأَدعوهُ خَوْفاً راغباً بتَذَلُّلٍ
ليَغْفِرَ لي ما كانَ مِن سَيِّئِ الأَمْرِ
وأَسْأَلُه عَوْناً كما هو أَهْلُهُ
أعوذُ به مِن آفةِ القَوْلِ والفَخْرِ

٢- قصيدة محمد بن أحمد العجلي في معارضة قصيدة الخاقاني أيضاً:

العجلي هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يعقوب بن علي أبو عبد الله ويقال أبو علي العجلي اللالكائي المقرئ، شيخ متصدر، قال عنه ابن الجزري[2]: «صاحب تلك القصيدة الرائية، عارض بها قصيدة أبي مزاحم الخاقاني، رواها عنه الأهوازي [أبو علي الحسن بن علي المتوفى سنة ٤٤٦هـ بدمشق]، في البطائح سنة ست وثمانين وثلاثمائة، أولها:

---

(١) غاية النهاية ٢/ ٦٧.

(٢) غاية النهاية ٢/ ٨٥-٨٦.

لك الحمدُ يا ذا المَنِّ والجُودِ والبِرِّ
كمـا أنـتَ أَهْـلٌ للمَحَـامِـدِ والشُّكْـرِ

فهـذا مَقَـالِـي واضحـاً وبَيَـانُـهُ
شبيهاً بما قد شاع في كُلِّ ما مِصْرِ

عنَيْتُ بـه قَـوْلَ ابـنِ خـاقـانَ مُنْشِـداً
أَقُـول مَقَـالاً مُعْجِبـاً لأُولِـي الحِجْـرِ

وأَبيـاتُهَـا زَادَتْ زيـادةَ مُـرْجِـعٍ
علـى مئـةٍ خمسـاً تـزيـدُ علـى عَشْـرِ

٣- كتاب «التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي»:

تأليف أبي الحسن علي بن جعفر بن محمد السعيدي الرازي المتوفى في حدود سنة ٤١٠هـ.

نقل مؤلف هذا الكتاب بيتاً من قصيدة أبي مزاحم، وهو يتحدث عن إخفاء الميم عند الفاء، حيث يقول (٤ب): «وقال أبو مزاحم في قصيدته بيتاً، وهو في معنى ذلك، هو:

فلا تُدْغِمَنَّ الميمَ إن جئتَ بعدها
بحرفٍ سواها، وٱقبل العلمَ بالشكرِ»

ونقل أبو الحسن السعيدي بيتاً آخر من القصيدة الخاقانية، وهو يتحدث عن الهمزة إذا كان قبلها ياءٌ أو واوٌ، فقال[١]: «وقد قال أبو مزاحم الخاقاني في قصيدته بيتاً في هذا المعنى وهو:

---

(١) كتاب التنبيه ورقة ٦٨و.

وإنْ تَكُ قبلَ الواوِ والياءِ فتحةٌ   وبعدَهُمَا هَمْزٌ همزتَ على قَدْرِ[1]

٤- كتاب شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني:

تأليف أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ:

توجد من هذا الكتاب نسخة ناقصة، من آخرها، محفوظة في مكتبة جستربتي (رقم ٣٦٥٣/ ١٠). ولم نطلع على غيرها[2]. ومن المناسب نقل مقدمة المؤلف، ففيها بيان لأهمية القصيدة عند أهل ذلك الزمان، وتوضيح لمنزلة أبي مزاحم في نفوسهم.

قال أبو عمرو الداني، بعد حمد الله تعالى والصلاة على نبيه، ﷺ[3]: «هذا كتاب قصدنا فيه إلى شرح قصيدة أبي مزاحم موسىٰ بن عبيد الله يحيى بن خاقان البغدادي، المعروف بالخاقاني، التي قالها في القراء وحسن الأداء، ولَخَّصْنَا الأصول التي أومأ إليها فيها، وقَرَّبنا معانيها، ونَبَّهْنَا على حقائقها، ودللنا على صحة مراده فيما أَمَرَ به ونَدَبَ إليه، من استعمال ما يجب استعماله، بالآثار المروية عن الأئمة الماضين، والسنن الواردة عن العلماء المتقدمين، وذهبنا في جميع ذلك إلى وجه الاختصار وترك الإكثار، ليصل الناظرون فيه إلى حقيقة المراد في قرب، ويحصل للمتناولين حفظه في يسر، إن شاء الله تعالى.

والذي دعانا إلى شرح هذه القصيدة وتلخيص معانيها ما رأيناه من استحسان

---

(١) ونقل أبو الحسن السعيدي بيتاً ثالثاً نسبه إلى أبي مزاحم، وهو

أدغم إذا ما قرأتَ اللامَ في الراءِ   وبيِّنِ الميمَ عند الواوِ والفاءِ

(انظر: التنبيه، ورقة ٦٨و). وهذا البيت ليس من القصيدة الرائية، فلعل لأبي مزاحم أبياتاً في التجويد غير هذه القصيدة.

(٢) هناك نسخة من هذا الشرح في مكتبة (رضا) في مدينة رامبور في الهند، رقمها (٢٧٩).

(٣) كتاب شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني ورقة ١٢٧و.

العامة والخاصة لها، وشدة ابتهال أهل القرآن بها، وأخذهم أنفسهم بحفظها، وما وقفنا عليه من إتقان صنعتها، وحسن بهجتها، وتهذيب ألفاظها، وظهور معانيها، وسلامتها من العيوب، ووفور حظها من الجودة. مع ما كان في أبي مزاحم، رَحِمَهُ اللهُ، من المناقب المحمودة، والأخلاق الشريفة، ظاهر النسك، مشهور الفضل، وافر الحظ من العلم والدين، حسن الطريقة، سُنِّيّاً جَمَاعِيّاً.

فألزمنا أنفسنا لذلك الإبانة عن جَلِيِّها، وتكلفنا البيانَ عن خَفِيِّها، مع رغبتنا في تعليم مَنْ جهل ما رسمناه، وابتغائنا الأجر والثواب من الله ـ عز وجل ـ فيما تولیناه، ونحن نستغفر الله من زللٍ كان منا، ومن تقصير لحقنا، ونسأله التوفيق لنا، والسلامة لديننا، والهداية لما فيه رشدنا وخلاصنا، فإنما نحن به وله.

ذكر هذه القصيدة: قال أبو عمرو: أنشدنا أبو الفتح فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الحمصي (ولد بحمص سنة ٣٣٣هـ، وتوفي بمصر سنة ٤٠١هـ)، وأبو الحسن طاهر بن غلبون الحلبي (ت بمصر سنة ٣٩٩هـ). قالا: أنشدنا جعفر بن محمد الدقاق (توفي بمصر سنة بضع وثمانين وثلاثمائة)، قال؛ أنشدنا أبو مزاحم لنفسه:

أقولُ مقالاً مُعْجِباً لأُولي الحِجْرِ　　　ولا فخرَ إنَّ الفَخْرَ يدعو إلى الكِبْرِ»

وسلسلة الإسناد التي يروي بها الداني قصيدة أبي مزاحم، هنا، تبين كيف وصلت هذه القصيدة إلى مصر، ثم غربت حتى عبرت البحر ودخلت بلاد الأندلس، فجعفر بن محمد الدقاق[1] هو الذي نقل القصيدة من بغداد إلى مصر، حيث أخذها منه شيخا الداني، الذي نقلها إلى الأندلس حين عاد إليها بعد رحلته المشرقية[2].

---

(١) انظر ترجمته عند ابن الجزري: غاية النهاية ١/ ١٩٧.

(٢) ذكر محقق كتاب «الرعاية لتجويد القراءة» لمكي بن أبي طالب في مقدمة التحقيق (انظر ص١٣) أن الداني شرح القصيدة الخاقانية في (التيسير)، والصواب هو أن الداني شرحها =

٥- **مقدمة في الوقف والابتداء (تسمى بنظام الأداء).**

تأليف الشيخ أبي الأصبغ عبد العزيز بن علي بن محمد السماني الأندلسي المعروف بابن الطحان (ت بعد سنة ٥٦٠هـ)[١]:

قال السماني، بعد أن ذكر بأن القارئ مأمور عند العلماء بإحسان الوقف والابتداء، حتى يأمن الوقوع في اللحن[٢]: «وقد قال أبو مزاحم الخاقاني:

فأولُ عِلْمِ الذِّكْرِ إتقانُ حِفْظِهِ

ومعرفةٌ باللحن فيهِ إذا يجري

فَكُنْ عارفاً باللحنِ كيما تُزِيلَهُ

فما للذي لا يَعْرِفُ اللحْنَ مِن عُذْرِ»

٦- **كتاب في التجويد**

لعلَّهُ لأبي العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار، المتوفى سنة ٥٦٩هـ:

هذا كتاب من الكتب الجيدة في علم التجويد، وإن كان مؤلفه غير مقطوع به، ويترجح لدي أنه أبو العلاء الهمذاني[٣]. والذي يهمنا من أمر هذا الكتاب ـ

= بكتابه «شرح القصيدة الخاقانية» الذي نقلنا منه النص السابق. أما كتاب «التيسير» فهو في القراءات السبع، والذي جلب على محقق الكتاب هذا الخلط هو عبارة حاجي خليفة في «كشف الظنون ٢/١٣٣٧» وهي: (القصيدة الخاقانية ... شرحها أبو عمرو الداني المذكور في التيسير) فقوله (المذكور في التيسير) إشارة إلى أن الداني قد مر ذكره عند ذكر كتاب «التيسير» لا أن الداني شرح القصيدة الخاقانية بكتاب التيسير.

(١) انظر ترجمته: ابن الجزري: غاية النهاية ١/ ٣٩٥.

(٢) مقدمة في الوقف والابتداء ورقة ١٣٨و.

(٣) هذا الكتاب محفوظ في مكتبة جستربتي بدبلن، تحت رقم (٣٩٥٤) باسم (التمهيد في التجويد)، لأبي بكر جعفر بن محمد المستغفري (ت ٤٣٢هـ)، وقد حصلت على نسخة =

هنا ـ هو ما ورد فيه من أمور تتصل بقصيدة أبي مزاحم، فقد نقل مؤلفه أبياتاً منها في موضعين، بالسند الكامل إلى ناظمها.

قال المؤلف[1]: «أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان الرزاز، أخبرنا أبو القاسم عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران المعدل، قال: أنشدنا أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري (ت ٣٦٠هـ). قال: قال أبو مزاحم الخاقاني.

وأخبرنا أبو غالب أحمد بن عبيد الله بن محمد النهري، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن عثمان بن عمران السواق، أخبرنا أبو القاسم إبراهيم بن أحمد بن جعفر الخرقي (ت ٣٧٤هـ). قال: سمعت أبا مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخاقاني يقول، في حسن أداء القرآن.

وأخبرنا أبو غالب أحمد بن عبيد الله المقرئ، أخبرنا أبو علي الحسن بن غالب الحربي، قال: أنشدنا أبو القاسم إدريس بن علي المؤدب (ت ٣٩٣هـ) قال: أنشدنا أبو مزاحم الخاقاني.

فذكروا القصيدة كلها، وفيها:

= مصورة منه، فوجدت أن ورقة أو أكثر سقطت من أوله فذهبت باسمه واسم مؤلفه، وأن ضرراً لحق الورقة الأخيرة فمحا اسم الكتاب أيضاً. ولا أدري كيف توصل الذي وضع فهرس مخطوطات المكتبة إلى اسم الكتاب ومؤلفه. وقد وجدت من تتبع أسماء شيوخ الذي يروي عنهم المؤلف أنهم ليس لهم علاقة بالمستغفري، لأنهم عاشوا بعده، ووجدت أن أكثرهم من شيوخ أبي العلاء الهمذاني العطار، فلعل الكتاب له، لا سيما أن ابن الجزري يذكر لأبي العلاء كتاباً في التجويد (غاية النهاية ١/ ٢٠٤) وأرجو أن يجري التحقق من هذه القضية في المستقبل. أما الآن فأعتقد أن الكتاب لا يمكن أن ينسب إلى المستغفري على الأقل [وقد تحققت نسبة الكتاب إلى العطار والحمد لله، وقد طبع في دار عمار في عمان].

(١) كتاب في التجويد، ورقة ١٥٦و ـ ١٥٦ظ.

ولا تُدْغِمَنَّ الميمَ إن جئتَ بعدَها بحرفٍ سواها، واْقْبَلِ العلمَ بالشُّكْرِ

وفي الموضع الآخر نقل مؤلف الكتاب بيتين من قصيدة أبي مزاحم، بنفس الأسانيد الثلاثة، مع اختلاف يسير جداً في بعض الألفاظ، والبيتان هما[1]:

أيَا قـارئَ القـرآنِ أَحْسِـنْ أَداءَهُ
يضَاعِفْ لكَ اللّٰهُ الجزيلَ مِنَ الأَجْرِ
فما كُلُّ مَنْ يتلُو الكتابَ يُقِيمُهُ
وما كلُّ مَن في الناسِ يُقْرِئُهُم مُقْرِي

٧- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، الشيخ أبو بكر محمد بن خير الأموي الإشبيلي (٥٠٢ ـ ٥٧٥هـ):

ذكر أبو بكر محمد بن خير في فهرسته قصيدة أبي مزاحم في التجويد، وقصيدته الأخرى التي نظمها في الفقهاء. وذكر أيضاً شرح قصيدة أبي مزاحم في التجويد لأبي عمرو الداني، وذكر إلى جانب ذلك قصيدة أبي الحسين محمد بن أحمد الملطي في معارضة قصيدة أبي مزاحم، التي ذكرناها قبل قليل.

قال أبو بكر محمد بن خير في روايته لقصيدة أبي مزاحم في التجويد[2]: «قصيدة أبي مزاحم موسى بن عبيد الله الخاقاني رَحِمَهُ اللهُ، في وصف القراءة والقراء.

حدثني بها الشيخ أبو الحسن عباد بن سرحان المعافري، سماعاً عليه. قال: أنشدنا الشيخ الصالح أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الطبري، بالجانب الغربي من بغداد، بالكرخ منها، قال: أنشدنا أبو الحسن عمر بن عبد الواحد بن

---

(١) المصدر نفسه ورقة ٥٥و.

(٢) فهرسة ما رواه عن شيوخه ابن خير ص٧٢ ـ ٧٣.

محمد بن جعفر، المعروف بابن العدل، قال: أنشدنا أبو عمر محمد بن العباس ابن محمد بن حيويه. قال: أنشدنا أبو مزاحم الخاقاني، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وحدثني بها الشيخ أبو الأصبغ عيسى بن محمد بن أبي البحر، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مناولة منه لي، وأبو الحسن علي بن محمد بن هذيل، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إجازة فيما كتب به إليّ. قالا: حدثنا المقرئ أبو داود سليمان بن نجاح، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن أبي عمرو عثمان بن سعيد المقرئ الداني الحافظ، قال أنشدناها شيخانا: أبو الفتح فارس ابن أحمد بن موسى، وأبو الحسن طاهر بن عبد المنعم، المقرئان. قالا: أنشدنا جعفر بن محمد الدقاق.

قال أبو عمرو المقرئ: وأنشدني أيضاً أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد البغدادي. قال: أنشدنا أبو الفرج محمد بن إبراهيم الشَّنَبُوذِي، قال: أنشدنا أبو مزاحم الخاقاني لنفسه».

وبعد ذلك مباشرة قال أبو بكر بن خير عن قصيدة أبي مزاحم في الفقهاء[1]: «وبهذا السند أيضاً أروي قصيدة أبي مزاحم الخاقاني المذكور، في الفقهاء، سماعاً على ابن سرحان، وإجازة من أبي الحسن بن هذيل، ومن أبي الأصبغ بن أبي البحر، المذكورين بالسند المتقدم».

٨- عمدة المجيد وعدة المفيد في معرفة التجويد[2].

لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد، علم الدين السخاوي، المتوفى سنة ٦٤٣هـ:

عمدة المجيد قصيدة نظمها علم الدين السخاوي في علم التجويد ومطلعها[3]:

---

(١) المصدر نفسه ص٧٣.

(٢) وردت في بعض المصادر باسم (عمدة المفيد وعدة المجيد في معرفة التجويد).

(٣) جمال القراء ورقة ١٩٥ظ. وانظر القصيدة في آخر المخطوط رقم ٩٤١٤ في مكتبة المتحف العراقي. =

يــا مَــنْ يَــرُومُ تــلاوةَ القــرآنِ ويَــرُودُ شَــأْوَ أئمــةِ الإتقــانِ

لا تَحْسَبِ التجويدَ مَدّاً مُفْرطاً أو مَدَّ ما لا مَدَّ فيهِ لِوَانِ

وقد أشار علم الدين في قصيدته هذه إلى القصيدة الخاقانية، بقوله في آخرها[1]:

أَبْرَزْتُهَا حُسْناً، نَظْمُ عُقُودِها دُرٌّ، فَصِلْ دُرَّهَا بجُمَانِ

فأنْظُرْ إليها وَامِقاً مُتَدَبِّراً فيها فَقَدْ فاقتْ بحُسْنِ بيَانِ

وأعلم بأنكَ جائرٌ في ظُلْمِهَا إن قِسْتَهَا بقصيدةِ الخاقاني

قال شارح عمدة المجيد[2]: «والغرض من هذه الأبيات التنبيه على ما تحلَّتْ به هذه القصيدة من نظم بديع، ومعنى رفيع، فلذلك فاقت بِحُسْن المعاني، وأنفت من أن تُقاس بقصيدة الخاقاني، فتغمد الله الناظمين برحمته وأسكنهما فسيح جنته، فلقد كانا من العلماء الأعلام، وكل منهما في علوم القرآن إمام، وعلى أن كليهما بحر زاخر، فكم ترك الأول للآخر».

ولسنا هنا بصدد المقارنة بين رائية الخاقاني، ونونية السخاوي، ولكن نشير إلى أنه لا يضير قصيدة أبي مزاحم شيئاً أن تكون قصيدة علم الدين أغزر مادة منها أو أحسن ترتيباً، فتلك باكورة كتب التجويد، وهذه كُتِبَتْ بعدَها بثلاثة قرون تقريباً، حيث ظهرت خلال هذه الفترة أكبر كتب علم التجويد وأشهرها.

على أنه مما ينبغي ذكره هنا هو أن علم الدين السخاوي استخدم قصيدة أبي مزاحم في الباب الذي عقده في كتابه الكبير «جمال القراء وكمال الإقراء»،

---

(١) جمال القراء ورقة ١٩٧و.

(٢) ابن أم قاسم: المفيد شرح عمدة المجيد ورقة ١١٨و.

وسماه «منهاج التوفيق إلى معرفة التجويد والتحقيق»، وذلك حيث يقول[1]: «فإن التحقيق هو إعطاء الحرف حقه في الإسراع والتمكث، ألَاَ ترى إلى قول الخاقاني:

فذو الحِذْقِ مُعْطٍ للحروف حقوقها

إذا رتَّلَ القرآن أو كان ذا حَدْرِ»

٩- المفيد شرح عمدة المجيد

لأبي محمد بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي، المعروف بابن أم قاسم، المتوفى سنة ٧٤٩هـ:

كتاب المفيد هو شرح لقصيدة علم الدين السخاوي التي ذكرت في الفقرة السابقة، وقد نقل ابن أم قاسم أبياتاً من القصيدة الخاقانية في هذا الشرح، في موضعين: الأول، وهو يتحدث عن تعريف التجويد، وأن التجويد لازم في جميع أحوال القراءة، من ترتيل وحدر وتوسط، فقال[2]: «وربما توهم قوم أن التجويد إنما يكون مع الترتيل، لاعتقادهم أن التجويد إنما هو الإفراط في المد وإشباع الحركات ونحو ذلك، مما لا يتأتىٰ مع الحدر، وليس كما توهموه... وإلى هذا المعنى أشار الخاقاني بقوله:

فذو الحِذْقِ مُعْطٍ للحروف حقوقها

إذا رتَّلَ القرآن أو كان ذا حَدْرِ

والموضع الثاني: قوله، وهو يتحدث عن مراتب التلاوة[3]: «وإلى تفضيل

(١) جمال القراء ورقة ١٩١و.

(٢) ابن أم قاسم: المفيد ورقة ١٠٠ظ.

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٧و.

الترتيل أشار الخاقاني بقوله:

وترتيلُنَا للقرآن أفضلُ للذي
أُمِرْنَا بـه من لُبْثِنَا فيه والفِكْرِ
وأَمَّا حَدَرْنَا دَرْسَنا فمُرَخَّصٌ
لنا فيه إذ دينُ العبادِ إلى اليُسْر»

١٠ـ شرح الواضحة في تجويد الفاتحة

الواضحة قصيدة من نظم برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢) وشرحها لابن أم قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ)، المذكور في الفقرة السابقة.

وقد نقل شارح الواضحة بيتين من القصيدة الخاقانية، وهو يتحدث عن اللحن، حيث يقول[١]: «وذكر أبو عمرو الداني، بإسناده إلى ابن مجاهد، أنه قال: اللحن لحنان: جَلِيٌّ وخَفِيٌّ. فالجليُّ لحنُ الإعراب، والخفيُّ ترك إعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه، انتهى. فينبغي للقارئ أن يعرف اللحن ليتجنبه، كما أشار إليه الخاقاني في قوله:

فأولُ علمِ الذكرِ إتقانُ حفظِهِ
ومعرفةٌ باللحنِ من فيكَ إذْ يَجْرِيَ
فكن عارفاً باللحن كيما تزيله
وما للذي لا يعرف اللحن من عُذْرِ»

١١ـ ذكرنا من قَبْلُ أن بعض الذين ترجموا لأبي مزاحم ذكروا قصيدته، وإن لم

---

(١) شرح الواضحة ٧٩و.

ينقلوا من أبياتها شيئاً، مثل الذهبي، وابن الجزري، وحاجي خليفة، وإسماعيل باشا البغدادي، وعمر رضا كحالة، وخير الدين الزركلي، وفؤاد سزكين، ونضيف هنا أن فؤاد سزكين أشار إلى أن «بونسكي» كتب عن هذه القصيدة في تقارير أكاديمية لنشاي[1]. وقد حاولت الوقوف على ما كتبه بونسكي عن القصيدة، ولكن لم أظفر بشيء من ذلك إلى الآن.

المبحث الرابع

أول المؤلفات في علم التجويد بعد القصيدة الخاقانية

يبدو ـ بعد ما عرضناه في المباحث السابقة ـ أن قول أبي الخير ابن الجزري عن أبي مزاحم إنه هو «أول مَن صَنَّفَ في التجويد»[2] قول صحيح، لكن يغلب أن تكون المحاولة الأُولى في أي مجال بحاجة إلى التتميم والتوضيح والتفصيل، الذي تتكفل به المحاولات اللاحقة، وهو ما ينطبق على القصيدة الخاقانية، بوصفها أول مؤلف مستقل في علم التجويد، إلى جانب أنها جاءت في قالب شعري لا يسمح بمناقشة القضايا على نحو مفصل، ومع ذلك تظل هذه القصيدة رائدة في مجالها، أصيلة في موضوعها، سهلة في أسلوبها، مشتملة على أصول علم التجويد في إيجاز ووضوح.

وإذا أراد الدارس أن يتجاوز القصيدة الخاقانية، ويبحث عن أول مؤلف كُتِبَ في التجويد بعدها، فعند أي كتاب سيقف؟

حين رجعت إلى كتاب الفهرست لابن النديم، المتوفىٰ سنة ٣٨٥هـ، لم أجده يذكر أي كتاب يفهم من عنوانه أنه في علم التجويد، على الرغم من أنه ذكر من أنواع الكتب المؤلفة في أمور تتعلق بالقرآن الكريم عشرين نوعاً، وأحصى

---

(١) تاريخ التراث العربي ١/ ١٦٥.

(٢) غاية النهاية ٢/ ٣٢١.

عشرات بل مئات الكتب في ذلك[1]. فهل يعني هذا أنه لم يظهر كتاب في التجويد حتى عصر ابن النديم سوى القصيدة الخاقانية؟ ربما كان الأمر كذلك.

فإذا انتقلنا إلى السنوات التي تلت الفترة التي عاش بها ابن النديم، أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس، نجد ثلاثة كتب تتنافس على أن تكون أول كتاب أُلِّفَ بعد القصيدة الخاقانية، وهي:

١- كتاب التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي ـ لأبي الحسن علي بن جعفر ابن محمد السعيدي الرازي، المتوفى في حدود سنة ٤١٠هـ.

٢- كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ـ لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، المتوفى سنة ٤٣٧هـ.

٣- كتاب التحديد في الإتقان والتجويد ـ لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، المتوفى سنة ٤٤٤هـ.

وهذا عرض موجز للكتب الثلاثة، لبيان منهج تأليفها، وما يمتاز به كل كتاب منها، من حيث المادة العلمية وطريقة تناولها لعل ذلك يكون مفيداً في تصور مرحلة النضج لعلم التجويد، كما تبدو في هذه الكتب.

أولاً ـ كتاب التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي

مؤلف هذا الكتاب هو أبو الحسن علي بن جعفر بن سعيد السعيدي، الرازي، الحذاء، نزيل شيراز، أستاذ معروف، كان شيخ أهل فارس ومقرئهم. ذكر الذهبي أنه توفي في حدود الأربعمائة[2]. وقال ابن الجزري: لا أدري متى

---

(١) انظر: الفهرست ص ٣٣ - ٣٨، وانظر الهامش رقم (١) في المبحث الأول.

(٢) معرفة القراء ١/ ٢٩٨.

مات، إلا أنه بقي إلى حدود العشر وأربعمائة. ثم قال: «وله مصنف في القراءات الثمان، وجزء في التجويد رويناه»[1].

ولعل كتاب «التنبيه» هو ذلك الجزء الذي يشير إليه ابن الجزري، فإن موضوعه في التجويد، ولم يذكر له غيره، وتوجد من كتاب التنبيه نسخ مخطوطة كثيرة[2]، تحمل في أولها اسم المؤلف. وقد جاء الكتاب باسم «التنبيه في تجويد القرآن» في مخطوطة مكتبة الأوقاف في الموصل[3]. وأرجح أن يكون اسم الكتاب هو «التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي» كما ورد في المخطوطات الأخرى التي اطلعت عليها منه[4].

وكتاب التنبيه رسالة صغيرة، تقع في أقل من عشر ورقات، وقد بدأها المؤلف ـ بعد مقدمة موجزة ـ بالكلام على اللحن الجلي واللحن الخفي، ثم تحدث عن كيفية تجويد ألفاظ سورة الفاتحة كلمة كلمة، وعقد بعد ذلك أربعة أبواب قصيرة، تحدث فيها عن كيفية النطق بالياء، والواو، والياءين، والواوين، أعقبها بقوله: «وهذه حروف تحفظ على القارئ إذا قرأ»، تحدث فيها عن قريب من عشرين صورة نطقية، ينبغي على القارئ أن يتحفظ عند النطق بها، خشية الوقوع في اللحن، وختم المؤلف الكتاب ببابين قصيرين، الأول في (اللفظ بحروف الهجاء)، والثاني في (مخارج الحروف)[5].

---

(١) غاية النهاية ١/ ٥٢٩.

(٢) انظر: فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي ١/ ١٧٠.

(٣) انظر: سالم عبد الرزاق أحمد: فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل ٨/ ٣٣.

(٤) انظر مخطوطة مكتبة المتحف العراقي (رقم ٣٧٦٧)، ومخطوطة دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٠٩/ ٢٠ القراءات). وجاء الكتاب باسم «مقدمة مختصرة في التنبيه على اللحن الخفي» في نسخة مكتبة جستربتي (رقم ٣٩٢٥/ ٤).

(٥) ورد في آخر نسخة الموصل من كتاب التنبيه، إضافة إلى ذلك، رسالة صغيرة تحدث فيها =

ولا يزال كتاب التنبيه مخطوطاً، فيما أعلم[1]، ولم يكن أمره ذائعاً بين المتقدمين من علماء التجويد، وقد أهمل ذكره الذين أَلَّفُوا في موضوع (اللحن) من المعاصرين[2].

ومهما يكن من أمر فإن كتاب «التنبيه» يرجع إلى نفس الفترة التي يرجع إليها الكتابان الآخران، لا بل إن مؤلف التنبيه توفي قبل وفاة مؤلفي الكتابين الآخرين بسنين كثيرة. وكان مؤلف التنبيه مشرقياً، أما مكي والداني فإنهما أندلسيان، رحمهم الله جميعاً.

ثانياً ـ كتاب الرعاية لتجويد القراء وتحقيق لفظ التلاوة

تأليف أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، المولود سنة ٣٥٥هـ بالقيروان، والمتوفى بقرطبة سنة ٤٣٧هـ.

ومؤلف كتاب الرعاية مشهور جداً بين المشتغلين بالدراسات العربية والقرآنية، قال عنه ابن الجزري: «إمام علامة، محقق عارف، أستاذ القراء والمجودين». وذكر أنه «كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علوم القرآن، محسناً، مجوداً، عالماً بمعاني القراءات»[3].

ويعتبر كتابهُ الرعاية من أقدم وأهم الكتب المصنفة في علم التجويد، وقد

= أبو الحسن السعيدي عن اختلاف القراء في النطق باللام والنون في القرآن الكريم.

(١) حقَّقتُ الكتاب ونشر في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٥م، مج ٣٦، ج٢. وطبع في دار عمار/الأردن مع رسالة أخرى للسعيدي بعنوان «رسالتان في التجويد» سنة ٢٠٠٠م.

(٢) انظر: عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص ٦٧-٦٨. ورمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي ص١٩٧-١٩٩.

(٣) غاية النهاية ٢/ ٣٠٩.

اعتمد عليه أكثر المؤلفين في هذا العلم بعد مكي، وهو مطبوع[1]، ونسخه المخطوطة كثيرة.

وقد تضمنت مقدمة الكتاب أموراً مهمة، تتعلق بالكتاب، وتوضح جانباً من بدايات التأليف في علم التجويد، قال مكي في المقدمة[2]: «وإني لما رأيت هذه الحكمة البديعة والقدرة العظيمة في هذه الحروف، التي نظمت ألفاظ كتاب الله ـ جل ذكره ـ ووقفتُ على تصرفها في مخارجها وترتيبها عند خروج الصوت بها، واختلاف صفاتها وكثرة ألقابها، ورأيت شرح هذا وبيانه متفرقاً في كتب المتقدمين والمتأخرين، غير مشروح للطالبين، قويت نيتي في تأليف هذا الكتاب وجمعه في تفسير الحروف ومخارجها، وصفاتها وألقابها، وبيان قويها وضعيفها، واتصال بعضها ببعض، ومناسبة بعضها لبعض، ومباينة بعضها لبعض...».

ثم قال[3]: «وما علمت أحداً من المتقدمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب، ولا إلى جمع مثل ما جمعتُ فيه من صفات الحروف وألقابها ومعانيها، ولا إلى ما أتبعت فيه كل حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى، والتنبيه على تجويد لفظه والتحفظ به عند تلاوته.

«ولقد تصور في نفسي تأليف هذا الكتاب وترتيبه من سنة تسعين وثلاثمائة، وأخذت نفسي بتعليق ما يخطر ببالي منه في ذلك الوقت، ثم تركته إذ لم أجد معيناً فيه، من مؤلف سبقني بمثله قبلي، ثم قَوَّىٰ الله النية وحَدَّدَ البصيرة في إتمامه بعد نحو ثلاثين سنة، فسَهَّلَ اللهُ أمره، ويَسَّرَ جمعه، وأعان على تأليفه، وعسى أن يكون ذلك سبباً لأَجْرٍ، وسُلَّماً لذُخْرٍ، جعله الله لوجهه خالصاً».

---

(١) طبع في دمشق سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٨٣، بتحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات، وفي دار عمار/ الأردن عدة طبعات.

(٢) الرعاية ص٤٠ - ٤١.

(٣) المصدر نفسه ص٤٢ - ٤٣.

ويستخلص من ذلك أمران:

الأول: هو تصريح مكي أنه لم يجد كتاباً مؤلفاً في علم التجويد على ذلك النحو المفصل، قبل كتابه.

الثاني: هو أن مكياً حاول تأليف الكتاب سنة ٣٩٠هـ، قبل دخول الأندلس بثلاث سنوات[1]، لكنه ترك المحاولة لعدم تيسر ما يعينه في ذلك، ولم يعد إلى تأليف الكتاب إلا بعد ثلاثين سنة، أي في حدود سنة ٤٢٠هـ، ولكنه لم يبين لنا ما استجد لديه من الأمر ما جعله يشرع بتكميل الكتاب: هل عثر على مصادر في الموضوع فتحت له أبواب البحث، أو توصل هو إلى صورة ما للكتاب فشرع بتكميله.

والكتاب، بعد المقدمة (ص ٣٩ - ٤٤)، يتألف من الأبواب التالية:

- سبعة أبواب في فضائل القرآن وفضل تلاوته، وفي أخلاق القارئ والمقرئ، وما ينبغي لهما (ص ٤٥-٧١).

- ستة أبواب في معرفة الحروف والحركات التي يتألف منها الكلام، وما زادت العرب في كلامها على التسعة والعشرين، وما يتعلق بذلك (٧٢-٩٠).

- باب في صفات الحروف وألقابها وعللها (ص ٩١-١١٨)، تحدث فيه مكي عن أربعة وأربعين لقباً من ألقاب الحروف.

- تسعة وعشرون باباً، لكل حرف من الحروف العربية باب، على ترتيب المخارج، (ص ١١٩-٢١٦)، تحدث مكي في كل باب عن مخرج الحرف وصفاته، وما يلحقه أثناء الكلام من تغيير، وما ينبغي من التحفظ في نطقه في بعض التراكيب، مع إيراد الأمثلة من الآيات والكلمات القرآنية.

---

(١) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية ٢/ ٣٠٩.

- باب الاختلاف في المخارج (ص ٢١٧-٢١٨).
- باب المشددات (ص٢١٩-٢٣٥).
- باب أحكام النون الساكنة والتنوين (ص ٢٣٦-٢٤٣).

ثالثاً - كتاب التحديد في الإتقان والتجويد..

تأليف أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (٣٧٢-٤٤٤هـ).

وأبو عمرو الداني لا يقل شهرة عن مكي بن أبي طالب، مؤلف الرعاية، فكلاهما عَلَمٌ من أعلام الدراسات القرآنية واللغوية وربما ناف الداني على مكي في بعض الجوانب، وقد وصفه ابن الجزري بأنه: «الإمام، العلامة، الحافظ، أستاذ الأستاذين، وشيخ مشايخ المقرئين»[١].

وكان الداني ذا علم بالحديث وطرقه وأسماء رجاله، إلى جانب علمه بالقرآن والفقه والتفسير، قال ابن بشكوال عن الداني[٢]: «كان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرق إعرابه، وجمع في معنى ذلك كله تواليف حسالًا مفيدة، يكثر تعدادها ويطول إيرادها، وله معرفة بالحديث وطرقه وأسماء رجاله ونقلته». وكان الداني - إلى جانب ذلك كله - حسن الخط، جيد الضبط، من أهل الحفظ والذكاء والتفنن، دَيِّناً فاضلاً وَرِعاً سُنِّياً[٣].

وكتاب التحديد لا يزال مخطوطاً، فيما عرفت[٤]، ونسخه المخطوطة نادرة، عكس كتاب الرعاية، وقد اضطربت المصادر في اسم الكتاب، وإن كان

(١) غاية النهاية ١/٥٠٣.
(٢) ابن بشكوال: كتاب الصلة ٢/٣٨٦.
(٣) انظر: الذهبي، معرفة القراء ١/٣٢٧. وابن الجزري، غاية النهاية ١/٥٠٤.
(٤) حَقَّقْتُ الكتابَ ونُشِرَ في بغداد سنة ١٩٨٨م والحمد لله، وطبع في دار عمار/الأردن سنة ٢٠٠٠م.

أغلبها يذكره باسم «التحديد في الإتقان والتجويد» وهو الاسم الذي أرجح أن يكون الداني سمى به كتابه. وقد ذكر الكتاب أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي في فهرسته باسم «كتاب التحديد، في معرفة التجويد، لتلاوة القرآن»[1]. وذكره ابن الجزري باسم «كتاب التحديد في الإتقان والتجويد» في كتابيه: غاية النهاية في طبقات القراء[2]، والتمهيد في علم التجويد[3]. لكنه ورد باسم «التجريد» في كتاب «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري أيضاً[4]، وأظنه تصحيفاً. وورد في كشف الظنون باسم «التحديد في الإتقان والتجويد»[5]. وسماه عمر رضا كحالة باسم «التحديد في الإتقان والتجويد»[6].

وذكر الزركلي الكتاب باسم «التجديد في الإتقان والتجويد»[7]. وكذلك ورد في فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات العربية[8]. وأرجح أن تكون كلمة (التجديد) تصحيفاً لكلمة (التحديد).

وقد اطلعت ـ إلى الآن ـ على مخطوطتين للكتاب، أحدهما كاملة، والأخرى ناقصة، أما الأولى فهي النسخة المحفوظة في مكتبة جار الله بتركيا، تحت رقم (٢٣) والمحفوظ منها نسخة مصورة في كل من مكتبة جامعة القاهرة ومعهد المخطوطات العربية، وهي صعبة القراءة، وتقع في ثلاثين ورقة، ضمن مجموع، وهي التي اعتمدت عليها في هذا البحث. وأما الثانية فهي النسخة المحفوظة في

---

(١) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص٤٠.

(٢) غاية النهاية ١/ ٥٠٥.

(٣) التمهيد ورقة ٣١و.

(٤) النشر ١/ ٢٠٦.

(٥) كشف الظنون ١/ ٣٥٥.

(٦) معجم المؤلفين ٦/ ٢٥٥.

(٧) الأعلام ٤/ ٣٦٦.

(٨) فهرس المخطوطات المصورة ١/ ٧.

مكتبة وهبي أفندي بتركيا تحت رقم (٤٠). وقد حصلت منها على ثلاث ورقات مصورة من أولها.

وجاء عنوان الكتاب في نسخة مكتبة جار الله هكذا (كتاب تجويد التلاوة وتحقيق القراءة). وقد وضعت علامة فوق كلمة (تجويد)، وأشير في الهامش إلى أن صوابها (تجريد) نقلاً عن الجعبري والنشر. أما عنوان الكتاب في نسخة مكتبة وهبي أفندي فقد طمست منه بعض الكلمات، ولكن يمكن أن يقرأ بوضوح على هذا النحو: (التحديد في [...] الإتقان والتجويد)، وربما تكون الكلمة المطموسة (معرفة) أو (صفة).

ويترجح لدي أن اسم الكتاب هو «التحديد في الإتقان والتجويد» وربما تكون هناك كلمة بعد حرف الجر، يمكن أن تكون (معرفة، أو صفة، أو علم). وقد أشار الداني إلى عنوان الكتاب في المقدمة تلميحاً، حيث قال: «... أَعْمَلْتُ نفسي في رسم كتابٍ خفيف المَحْمَلِ، قريبِ المأخذ، في وصف علم الإتقان والتجويد ...»[1].

وتحدث الداني في مقدمة الكتاب عن السبب الذي حمله على تأليف الكتاب، فقال[2]: «أما بعد، فقد حداني ما رأيته من إهمال قراء عصرنا ومقرئي دهرنا تجويد التلاوة وتحقيق القراءة، وتركهم ما نَدَبَ اللهُ تعالى إليه، وحَثَّ نبيه ﷺ أُمَّتَهُ عليه، من تلاوة التنزيل بالترسل والترتيل - أن أعملتُ نفسي في رسم كتاب خفيف المحمل، قريب المأخذ في وصف علم الإتقان والتجويد، وكيفية الترتيل والتحقيق، على السبيل التي أداها المشيخة من الخلف، عن الأئمة من السلف...».

---

(١) التحديد ورقة ٨٣ظ.

(٢) المصدر نفسه، والموضع كذلك.

وكتاب التحديد، بعد المقدمة (ورقة ٨٣ظ ـ ٨٤و)، مقسم إلى أبواب على هذا النحو:

ـ باب ذكر البيان عن معنى التجويد وحقيقة الترتيل والتحقيق، وما جاء من السنن والآثار في الحث على استعمال ذلك والأخذ به (ورقة ٨٤ظ ـ ٨٦و).

ـ باب في قراءة التحقيق وتجويد الألفاظ ورياضة الألسن بالحروف (ورقة ٨٦و ـ ٨٨ظ).

ـ باب ذكر الأخبار الواردة عن أئمة القراء في استعمال التحقيق (ورقة ٨٨ظ ـ ٨٩و).

ـ باب ذكر الإفصاح عن مذاهب الأئمة في حد التحقيق ونهاية التجويد وما جاء عنهم من الكراهة في التجاوز عن ذلك (ورقة ٨٩و ـ ٩١و).

ـ باب ذكر البيان عن حقائق الألفاظ وحدود النطق بالحروف (ورقة ٩١ظ ـ ٩٣ظ) تحدث الداني في هذا الباب عن معنى المتحرك، والمسكن، والمختلس، والمرام، والمشم، والمهموز، والمُسَهَّل، والمحقق، والمشدد، والمخفف، والممدود، والمقصور، والمُبَيَّن، والمدغم، والمُخْفى، والمفتوح، والمُمَال.

ـ باب ذكر مخارج الحروف المعجمة وتفصيلها (ورقة ٩٣ظ ـ ٩٤ظ).

ـ باب ذكر أصناف هذه الحروف وصفاتها (ورقة ٩٤ظ ـ ٩٦و) تحدث الداني في هذا الباب عن صفات الحروف فبين معنى الحروف المهموسة والمجهورة، والشديدة، والرخوة، والمطبقة، والمنفتحة، والمستعلية، والمستفلة، وحروف المد واللين، وحروف الصفير، والمتفشي، والمستطيل، والمكرر، والهاوي، والمنحرف، وحرفا الغنة.

- باب ذكر أحوال النون الساكنةوالتنوين عند جميع الحروف (ورقة ٩٦و ـ ٩٨و).

ـ باب ذكر الحروف التي يلزم استعمالُ تجويدها وتَعَمُّلُ بيانها وتخليصها لتنفصل بذلك من مُشَبَّهها، على مخارجها (ورقة ٩٨و ـ ١١٠و). وهذا الباب هو

أطول وأغنى أبواب الكتاب تحدث فيه الداني عن كل حرف من الحروف التسعة والعشرين في فصل مستقل، مبيناً مخرجه وصفاته، وما يطرأ عليه في التركيب، وما ينبغي له من التحفظ والتبيين، مع الأمثلة من الآيات القرآنية.

- باب ذكر أحوال الحركات في الوقف، وبيان معنى الروم والإشمام (ورقة ١١٠و - ١١١و).
- باب ذكر الوقف، وبيان أقسامه (ورقة ١١١و - ١١٢و).

وختم الداني كتابه بفقرة ضَمَّنها عبارات الدعاء إلى الله عز وجل له وللقارئ ببلوغ مراتب العلماء ومنازل الفقهاء، والعصمة من البدع المضلة والأهواء المهلكة.

وإذا كان من المُسَلَّمِ به أن كتاب «الرعاية» لمكي، وكتاب «التحديد» للداني، هما من أقدم الكتب التي أُلِّفَتْ في علم التجويد، فإنه من غير المعروف - الآن - أيهما أسبق من الآخر في التأليف، ففي الوقت الذي نعرف فيه أن مكياً أكمل كتابه في حدود سنة ٤٢٠هـ فإننا لا نعلم بالضبط السنة التي انتهى فيها الداني من تأليف كتابه.

وهناك طريقة واحدة لعلها تؤدي إلى معرفة السابق من الكتابين في اكتمال التأليف، وهي الدراسة الفاحصة لمنهج الكتابين، ومقارنة الأسلوب والنصوص والأقوال فيهما، لنعرف أيهما قَلَّدَ صاحبه أو نقل عنه، إذا صح ما نتصوره من احتمال أن يكون أحدهما استفاد من جهد الآخر في هذا المجال، لا سيما أنهما أقاما في الأندلس في فترة متقاربة.

أما منهج الكتابين وطريقة ترتيب الموضوعات فيهما فالكتابان متقاربان في ذلك، وإن كان الناظر فيهما يلمح أحياناً اختلافاً في تناول بعض الموضوعات، وأما أسلوب معالجة الموضوعات فالكتابان يختلفان في ذلك اختلافاً يدركه كل من قرأ لهاذين العالمين الجليلين في كتابي «الرعاية» و «التحديد» أو في غيرهما من الكتب التي ألفاها. ولست هنا بصدد عقد مقارنة بين الكتابين في ما امتازا به،

وما اتفقا عليه او اختلفا فيه، لأن ذلك جدير ببحث مستقل، ولكن هناك قضية تتصل بما نحن فيه من محاولة تحديد السابق من الكتابين في التأليف، فقد عثرت على فقرة وردت في كلا الكتابين، وبينما يعزوها الداني لنفسه ينسبها مكي إلى غيره.

جاء في مقدمة كتاب «التحديد» للداني هذا النص[1]: «قال أبو عمرو، رحمه الله: وقراء القرآن متفاضلون في العلم بالتجويد والمعرفة بالتحقيق، فمنهم من يعلم ذلك قياساً وتمييزاً، وهو الحاذق النبيه، ومنهم من يعلمه سماعاً وتقليداً وهو الغبي الفهيه. والعلم فطنة ودراية آكد منه سماعاً ورواية. فللدراية ضبطها ونظمها، وللرواية نقلها وتعلمها، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذوالفضل العظيم».

وورد في كتاب «الرعاية» في باب (صفة من يجب أن يقرأ عليه وينقل عنه) هذا النص[2]: «وقد وصف من تقدمنا من المقرئين، القراء، فقال: القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد، فمنهم من يعلمه رواية وقياساً وتمييزاً، فذلك الحاذق الفطن، ومنهم من يعرفه سماعاً وتقليداً، فذلك الوهن الضعيف، لا يلبث أن يشك ويدخله التحريف والتصحيف، إذ لم يبن على أصل ولا نقل عن فهم. قال: فنقل القرآن فطنة ودراية أحسن منه سماعاً ورواية قال: فالرواية لها نقلها، والدراية لها ضبطها وعلمها. قال: فإذا اجتمع للمقرئ النقل والفطنة والدراية وجبت له الإمامة وصحت عليه القراءة، إن كان له مع ذلك ديانة».

ومن قراءة هذين النصين يتضح أن ألفاظهما متقاربة، وأن معانيهما واحدة، فهل يعني ذلك أن مكياً نقل عن الداني، أو أنهما كليهما نقلا هذا المعنى عن عالم تَقَدَّمهما، لا سيما أن الفقرة الأخيرة من كلام مكي ليست عند الداني؟

ومع ذلك فإن عبارة الداني توحي أن الكلام له. لم ينقله عن غيره. ومكي يصرح بنسبته إلى بعض من تقدمه. فهل يكفي هذا دليلاً على أن الداني سبق في

---

(١) التحديد ورقة ٨٣ظ.

(٢) الرعاية ص ٦٩-٧٠.

تأليف كتاب «التحديد». خاصة أن مكياً لم يؤلف كتابه إلا بعد دخوله الأندلس، وإقامته في قرطبة، التي مكث فيها الداني شطراً طويلاً من عمره، ولم يبرحها إلا بعد سنة ثلاث وأربعمائة[1].

ومهما يكن من أمر فإن القصيدة الخاقانية يظل وصفها بأنها أول مؤلف في التجويد صحيحاً، وتظل هذه الكتب الثلاثة: التنبيه، والرعاية، والتحديد، هي أول ما أُلِّفَ بعد قصيدة أبي مزاحم، في علم التجويد، أَيّاً كان المتقدم من الثلاثة على صاحبيه، وكذلك الحال بالنسبة للكتاب الذي شرح فيه الداني قصيدة أبي مزاحم، أو أي كتاب آخر ألفه في علم التجويد. ويظل أبو الحسن السعيدي (ت في حدود ٤١٠هـ) وأبو محمد مكي (ت ٤٣٧هـ) وأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) يمثلون الجيل الأول من علماء التجويد الذين أرسوا بكتبهم ودراساتهم المعالم الأُولىٰ لهذا العلم.

المبحث الخامس
مصطلح (علم التجويد)

ومما يتصل بموضوع نشأة علم التجويد محاولة تحديد الوقت الذي استخدم فيه مصطلح (التجويد) خاصاً بالمباحث التي يستخدم فيها اليوم. وهذا الجانب من البحث اللغوي التاريخي يعتبر من الأمور التي يصعب الخوض فيها، إلا بعد توفر نصوص كافية تساعد الدارس فيما يحاوله، وهو ما يتحقق قدر ضئيل منه بالنسبة لبحث القضية التي نحن بصددها الآن. خاصة في مراحلها الأُولى، ولكن هذا لا يمنع من تدوين الملاحظات المتيسرة حولها، لعل جهود الدارسين تزيد الأمر جلاء ووضوحاً.

ومن المعلوم أنه لم يرد في القرآن من مادة (التجويد) شيء في وصف

---

(١) انظر: ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ١٢٧.

القراءة، كذلك لم أجد في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي)، الذي يعتمد على تسعة من أشهر كتب الحديث، شيئاً من ذلك، وهذا قد يُستدلُّ به على أن كلمة (التجويد) لم تكن معروفة في عصر النبوة، بالمدلول الذي صارت تدل عليه فيما بعد[1].

وذلك لا يعني أن مفردات هذه المادة اللغوية لم تكن مستخدمة في تلك الفترة إذ نجد المعجم العربي يحدثنا في مادة (ج و د) عن عدد من الكلمات المشتقة منها، من ذلك: الجيد نقيض الرديء، وجاد الشيء جُوْدة وجَوْدة أي صار جيداً، وأجاد أتىٰ بالجيد من القول أو الفعل، والتجويد مثله. وجاد بالمال

---

(١) جاءت في عدد من المراجع القديمة رواية نقلها أبو معاوية الضرير، عن جويبر، عن الضحاك، قال: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه: «جَرِّدوا القرآن، وزيِّنوه بأحسن الأصوات، وأعربوه فإنه عربي، والله يحب أن يعرب». انظر: ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف ٢/ ٤٩٧، وأبو عبيد: كتاب غريب الحديث ٤/ ٤٩. وابن أبي داود: المصاحف ص١٤٠. وأبو بكر الأنباري: كتاب إيضاح الوقف والابتداء ١/ ١٦، والداني: المحكم ص١٠.

ولقد جاءت هذه الرواية في بعض المراجع المتأخرة، بنفس الإسناد، على هذا النحو: «جودوا القرآن. . .». انظر: ابن الجزري: النشر ١/ ٢١٠، والسيوطي: الإتقان ١/ ٢٨١.

وقد حاول بعض المحدثين الاستدلال بالصيغة المنقولة في المراجع المتأخرة، على أن كلمة (التجويد) كانت معروفة في زمن الصحابة، فقال الدكتور احمد مختار عمر عن التجويد: «وكل الذي يعرف عن مراحله الأولى أن أول من استخدم هذه الكلمة في معنى قريب من معناها هو ابن مسعود الصحابي، الذي كان ينصح المسلمين بقوله: جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات. . .». انظر: البحث اللغوي عند العرب ص٧٧.

والذي يترجح لدي هو أن رواية (جودوا) بالواو من التجويد، التي جاءت في المراجع المتأخرة، ما هي إلا تصحيف للرواية القديمة (جردوا) بالراء، من التجريد، وحديث (جردوا القراذن) المنقول عن ابن مسعود حديث مشهور بين الدارسين. (انظر: الزركشي: البرهان ١/ ٤٧٩). ومن ثم لا يمكن الاستدلال بالصيغة المصحفة للرواية ـ إذا صح ما ذكرناه ـ على أن كلمة (التجويد) أو ما اشتقَّ منها كانت معروفة في ذلك الوقت المبكر بالمعنى الذي عرفت به فيما بعد.

=

فهو جواد أي سخيٌّ. . .الخ[١]. وقال الداني: إن التجويد مصدر جَوَّدت الشيء، ومعناه انتهاء الغاية في إتقانه، وبلوغ النهاية في تحسينه[٢].

وقد جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة ما يتعلق بوصف القراءة كلمة (الترتيل)، قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل].

وجاء في الأحاديث أن النبي ﷺ (كان يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها) وأنه كان ﷺ يُفَسِّرْ ويُرَتِّلُ إذا قرأ[٣]. إلى روايات أخرى مذكورة في مظانها[٤]:

والرَّتَلُ في اللغة حُسْنُ تناسقِ الشيء، ورتَّلَ الكلامَ: أحسن تأليفه وأبانه وتمهل فيه، والترتيل في القراءة: التَّرَسُّلُ فيها والتبين من غير بغي. قال عبد الله ابن عباس، رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ قال: «بَيِّنه تَبْييناً، والتبيين لا يتم بأنْ يعجلَ في القراءة، وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف، ويوفيها حقها من الإشباع[٥].

واستخدمت في هذه الفترة أيضاً كلمة أخرى تقابل كلمة (الترتيل) وهي كلمة (الهذ)، وقد جاء في الحديث الشريف عن منزلة قارئ القرآن في الآخرة قوله ﷺ: «فهو في صعودٍ ما دام يقرأ، هَذّاً كان أو ترتيلاً»[٦]. وروى ابن أبي شيبة عن ابن مسعود، رضي الله عنه، أنه قال: «لا تَهُذُّوا القرآن كهَذِّ الشعر، ولا

---

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (جود).

(٢) التحديد ورقة ٨٤و.

(٣) التحديد ٨٥و.

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢/٢١٨.

(٥) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (رتل).

(٦) الداني: التحديد ورقة ٨٦و.

تنثروه نَثْرَ الدَّقَلِ، وقِفُوا عند عجائبه، وحَرِّكوا به القلوب»[1]. وروى البخاري أن رجلاً قال لابن مسعود[2]: «قرأت المفصل البارحة، فقال: هَذّاً كهذِّ الشعر!».
وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: «لأَنْ أقرأَ إذا زلْزِلَتْ والقارعة ليلةً، أُرَدِّدُهُمَا وأتفكرُ فيهما أحب إلي من أَن أبيتَ أَهُذُّ القرآن»[3].

والهَذُّ في اللغة سرعة القطع وسرعة القراءة، يقال: هو يَهُذُّ القرآن هَذّاً، ويَهُذُّ الحديث هَذّاً، أي يسرده سرداً[4].

وقد جاءت كلمات أخرى تتعلق بوصف القراءة في حديث رسول الله ﷺ، من ذلك قوله ﷺ: «ليس منا مَنْ لم يَتَغَنَّ بالقرآن»[5]. وقوله: «زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم»[6]. وفي رواية: «حَسِّنُوا القرآن بأصواتكم»[7].

وقد ورد في الكتاب الذي رجحنا أنه لأبي العلاء الهمذاني العطار تعليقاً على روايات الحديث (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[8]: «وجميع هذه الأخبار التي سقناها، مَن ذهب إلى أنها من الغنى المقصور، فالمعنى بَيِّنٌ لا خفاء به، ومن ذهب إلى أنها من الغِنَاء الممدود، فليس المراد بذلك هذا التطريب المكروه والتلحين المذموم، وإنما المراد به الترتيل وتحسين الصوت وحفظ الحروف ومراعاة الوقوف، إلى ما سوى ذلك من تجويد القراءة وتصحيح التلاوة...».

---

(١) الكتاب المصنف ٢/ ٥٢١.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/ ٨٨، وانظر النووي: التبيان ص٤١.

(٣) ابن أبي شيبة: كتاب المصنف ٢/ ٥٢١.

(٤) ابن منظور: لسان العرب مادة (هذذ).

(٥) البنا الساعاتي: الفتح الرباني ١٨/ ١٤.

(٦) المصدر نفسه ١٨/ ١٥. وانظر: أبو شامة، المرشد الوجيز ص٢٠٠.

(٧) انظر السيوطي، الإتقان ١/ ٣٠٢.

(٨) كتاب في التجويد ورقة ٤٦و.

وجاء عن الحديث الآخر، في نفس الكتاب[1]: «تزيين القراءة هو إعطاء الحروف حقوقها. . .».

وقال أبو بكر الآجري[2]: «حدثنا جعفر الصندلي، ثنا صالح بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، قال: قلتُ له: قوله ﷺ، زينوا القرآن بأصواتكم، ما معناه؟ قال: التزيين أن يحسنه».

وورد في كلام الصحابة ذكر بعض الألفاظ التي تتعلق بصفة القراءة. فمن ذلك، أن علقمة قرأ على عبد الله بن مسعود، فكأنه عجل، فقال عبد الله: فداك أبي وأمي، رتِّلْ فإنه زَيْنُ القرآنِ[3].

ومن ذلك أيضاً ما روي عن النبي ﷺ وعائشة مَرّا بأبي موسى، وهو يقرأ في بيته، فقاما يستمعان لقراءته، ثم إنهما مَضَيا، فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا موسى، مررتُ بكَ، فذكر الحديث، فقال أبو موسى: أما إني لو علمتُ بمكانك لحَبَّرْتُهُ لك تحبيراً[4].

وفي «لسان العرب»، لابن منظور: «حَبَّرْتُ الشعرَ والكلامَ حَسَّنْتُه، وفي حديث أبي موسى: لو علمتُ أنك تسمع لقراءتي لحَبَّرْتُها لك تحبيراً، يريد تحسين الصوت، وحَبَّرْتُ الشيءَ تحبيراً إذا حَسَّنْتَه»[5].

وهكذا يبدو أن كلمات مثل: الترتيل، والتغني، والتزيين، والتحسين والتحبير، كانت تستخدم في وصف القراءة إذا جاءت تامة، قد استوفى كل حرفٍ فيها حَقَّهُ

---

(١) المصدر نفسه ورقة ٦و.

(٢) كتاب أخلاق حملة القرآن ورقة ٦٠ظ. وانظر: النووي، التبيان ص٥١.

(٣) ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف ٢/ ٥٢٠، والداني: التحديد ورقة ٨٦و.

(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري ٩/ ٩٣.

(٥) لسان العرب مادة (حبر).

من مخرجه وصفته، إلى جانب ما يضفيه صوت القارىء من حسن على القراءة، وقوة في التأثير على النفوس، ويبدو أن كلمة التجويد لم تكن مستخدمة مع هذه الكلمات في تلك الفترة المتقدمة من الزمن.

ولعل هذه الكلمات وما يرادفها في المعنى، ظلت مستخدمة في وصف قراءة القرآن، منذ زمن النبي ﷺ ثم الصحابة والتابعين، إلى ما بعد عصر التدوين والتأليف بزمن طويل، ولقد تتبعت صفحات كثيرة من كتاب «السبعة في القراءات» لأبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، لأجد كيف يستخدم الكلمات في وصف القراءة والقراء، فما وجدته استخدم كلمة التجويد، وما يتصل بها من ألفاظ، وقد وجدت ابن مجاهد يقول عن عاصم بن أبي النجود: «وكان عاصم متقدماً في زمانه، مشهوراً بالفصاحة، معروفاً بالإتقان»[١]. وكان ابن مجاهد يقصد في عبارته هذه ما قاله الداني فيما بعد: «وكان عاصم موصوفاً بحسن الصوت وتجويد القراءة»[٢]. وما قاله ابن الجزري عن عاصم أيضاً من أنه[٣]: «جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن». ومن ثم يبدو أن كلمة (التجويد) لم تكن قد ذاعت في زمن ابن مجاهد فلجأ إلى كلمة (الإتقان).

وإذا تجاوزنا ابن مجاهد إلى معاصره أبي مزاحم الخاقاني (ت ٣٢٥هـ)، صاحب أول مؤلف في علم التجويد، لننظر أي الألفاظ يستخدم للتعبير عن العلم الذي نتحدث عنه، وجدنا أنه لم يستخدم كلمة التجويد في قصيدته، ويمكنك أن تعود إلى القصيدة ثانية وتتأمل في ما استخدمه فيها من ألفاظ بهذا الصدد، وأنقل هنا البيت الخامس من القصيدة، وهو قوله:

---

(١) كتاب التحديد ص٧٠.

(٢) التحديد ورقة ٩١و.

(٣) غاية النهاية ١/٣٤٦.

أيا قارئَ القرآنِ أَحْسِنْ أداءَهُ يضاعف لك الله الجزيل من الأجْرِ

والبيت السابع عشر، وهو قوله:

فقد قلتُ في حُسْنِ الأداءِ قصيدة رجوتُ إلاهي أن يَحُطَّ بها وِزْرِي

تأمل قوله: (أحسنْ أداءه) وقوله: (حسن الأداء) تجد أنه يعني ما نسميه اليوم بالتجويد. وعدم استخدام أبي مزاحم لهذه الكلمة، واستخدامه مكانها (حسن الأداء)، قد يدل على عدم شيوع استخدام كلمة التجويد بعد في المعنى الذي صارت تستخدم فيه إلى وقتنا.

وقد أطلت القراءة في كتاب «إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل» لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (ت ٣٢٨هـ) وهو كتاب موضوعه قريب الصلة بموضوع القراءة والتجويد، في محاولة للعثور على ما يشير إلى استخدام كلمة (التجويد) في هذه الفترة، فما وجدت إلا ما علق به أبو بكر الأنباري على ما رواه عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، من أنه قال: «أعربوا القرآن فإنه عربي، فإنه سيجيء قوم يُثَقِّفُونَه، وليسوا بخياركم». قال أبو بكر: «معنى يُثَقِّفُونَه: يُقَوِّمُون حروفه، كما يُقَوِّمُ المُثَقِّفُ الرُّمْحَ... ومعنى الحديث أنهم يُقَوِّمُونَ حروفه ولا يعملون به»[1]. وهذه مناسبة كان بإمكان أبي بكر الأنباري أن يستخدم فيها كلمة (يُجَوِّدُون) مثلاً، بدل كلمة (يقوِّمون) في تفسير كلمة (يثقِّفون) ولكنه لم يفعل!

وهناك فترة تقرب من قرن، تمتد بين تأليف أبي مزاحم الخاقاني قصيدته وبين ظهور مؤلفات التجويد الأولى لا نملك عنها ما يمكن أن يُعينَ في متابعة تطور استخدام الكلمات المعبِّرة عما صار يسمى فيما بعد بعلم التجويد.

فإذا انتقلنا إلى الفترة التي وصلتنا منها أُولىٰ مؤلفات التجويد بعد القصيدة

---

(١) كتاب إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

الخاقانية صادفتنا أول محاولة لاستخدام ما اشتق من مادة (ج و د) في هذا المجال. ولنبدأ بكتاب «التنبيه على اللحن» لأبي الحسن السعيدي (ت في حدود ٤١٠هـ) الذي ذكرناه من قبل.

يكاد أبو الحسن السعيدي يكون أول من استخدم كلمة (تجويد) فيما اطلعت عليه من مصادر[١]، قال في أول كتابه[٢]: «سَألْتَنِي، أسعدكَ الله بطاعته، ووفّقك لمرضاته، أن أصنف لك نُبَذاً من تجويد اللفظ بالقرآن». واستخدم الكلمة في موضع آخر، حيث يقول[٣]: «ويؤمر القارئ بتجويد الضاد من (الضالين) وغيرها». واستخدم أبو الحسن كلمة أخرى في هذا المعنى، وهي كلمة (المتقن)، قال[٤]: «واللحن الخفي لا يعرفه إلا المقرئ المتقن الضابط». وقال في موضع آخر[٥]: «. . . ولم أر أحداً من المقرئين المتقنين ميز ذلك على القارىء».

أما مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ) فقد استخدم كلمة (تجويد) كثيراً، حتى في عنوان الكتاب، «الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة». ويضم إليها كلمة (تحقيق) غالباً، قال في المقدمة[٦]: «قويت نيتي في تأليف هذا الكتاب ليكون. . . عوناً لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه وإحكام النطق به»، وجاء في كتابه الرعاية أيضاً:

---

(١) عثرت في كتاب التحديد للداني على رواية جاء فيها أن ابن مجاهد (ت ٢٥٤هـ) قال: «اللحن في القرآن لحنان: جليٌّ وخفي، فالجلي لحن الإعراب، والخفي ترك إعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه» (التحديد ص١١٨).

(٢) التنبيه ورقة ٦٢ظ.

(٣) التنبيه ورقة ٦٤و.

(٤) التنبيه ورقة ٦٣و.

(٥) التنبيه ورقة ٦٦ظ.

(٦) الرعاية ص٤١.

(تجويد لفظه، والتحفظ به عند التلاوة)[١].

(تحقيق اللفظ وتجويده وإعطائه حقه)[٢].

(تجويد ألفاظه وتحقيق تلاوته)[٣].

(التجويد بحكاية ألفاظ القرآن)[٤].

(التحفظ لتجويد لفظه، وإعطائه حقه)[٥].

(تجويد اللفظ بالهمزة)[٦].

واستخدم مكي كلمة (التجويد) من غير إضافة، حيث ذكر أن «القراء يتفاضلون في العلم بالتجويد»[٧]. واستخدم كذلك كلمة (المجود)، حيث قال: «فيجب على القارئ المجود لقراءته»[٨].

أما أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) فقد كان كثير الاستخدام لكلمة (التجويد)، مضافة وغير مضافة، كذلك استخدم كلمة (الإتقان) وكلمة (التحقيق). وقد سَمَّى الداني كتابه في التجويد باسم «التحديد في الإتقان والتجويد» وسمى هذا العلم باسم (علم الإتقان والتجويد)[٩]. وقد وردت كلمة (التجويد) في هذا الكتاب في

---

(١) الرعاية ص٤٢.

(٢) الرعاية ص٤٢.

(٣) الرعاية ص٤٣.

(٤) الرعاية ص٦٩.

(٥) الرعاية ص٤٣.

(٦) الرعاية ص١٢٠.

(٧) الرعاية ص٦٩.

(٨) الرعاية ص١٢٤.

(٩) التحديد ورقة ٨٣ظ.

مواضع عدة[1]. وعَرَّفَ الداني التجويد فقال: «تجويد القرآن هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها»[2]. ومما جاء في الكتاب أيضاً، من ذلك:

(تجويد التلاوة وتحقيق القراءة)[3].

(تحقيق القراءة وتجويد الألفاظ)[4].

(قراءة التحقيق وتجويد الألفاظ)[5].

(استعمال قراءة التحقيق وتعلم الإتقان والتجويد)[6].

(إن قطب التجويد ومنتهى التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها)[7].

(حروف التجويد)[8].

واستخدم الداني شيئاً من هذه الكلمات في كتابه «شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني» مثل: (تجويد الألفاظ)[9]. و(تجويد التلاوة وحقيقة القراءة)[10]. ووردت في هذا الكتاب عبارة تكررت مرتين، وهي (صار غاية في الإتقان، ونهاية في التجويد)[11]. وهي عبارة تنبئ أن الداني يستخد كلمة (الإتقان) مرادفة

---

(١) التحديد ورقة ٨٣ظ، ٨٤و، ٩١ظ، ١١١و.

(٢) التحديد ورقة ٨٤و.

(٣) التحديد ورقة ٨٣ظ.

(٤) التحديد ورقة ٨٥ظ.

(٥) التحديد ورقة ٨٥و.

(٦) التجويد ورقة ٨٥ظ.

(٧) التحديد ورقة ٩٣ظ.

(٨) التحديد ورقة ٩٨ظ، ١١٠و.

(٩) شرح قصيدة أبي مزاحم ورقة ١٢٨و.

(١٠) المصدر نفسه ورقة ١٢٨ظ.

(١١) المصدر نفسه ورقة ١٣٢و، ١٣٦و.

لكلمة (التجويد)، وهو ما يلمح من تسمية كتابه «التحديد في الإتقان والتجويد». وللداني قصيدة في موضوع التجويد سماها (المُنَبِّهة في الحذق والإتقان وصفة التجويد للقرآن)[1].

ويمكن أن نقرر ـ بناء على ما تقدم ـ أنه منذ عصر الداني استقر مصطلح التجويد، وصار اسماً شائعاً للعلم الذي يهتم بالأصوات: مخارجها وصفاتها، وكيفية النطق بها في القرآن الكريم. إلى جانب استخدام كلمة (الإتقان) في بعض الأحيان، مع كلمة (التجويد)[2].

وقد نقل ابن الجزري نصاً في كتابه «النشر» عن كتاب الأستاذ أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح (ت ٥٣٧هـ) في التجويد، الذي سماه «نهاية الإتقان في تجويد القرآن»[3]. ونقل منه أيضاً في كتابه «التمهيد في علم التجويد»[4]. وكان قد ذكره من قبل ابن خير في فهرسته، بعنوان «كتاب نهاية الإتقان في تجويد تلاوة القرآن»[5].

وتصادفنا في الكتاب الذي يترجح عندنا أنه لأبي العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار (ت ٥٦٩هـ) في التجويد كلمات مثل (تجويد القراءة وتصحيح

---

(١) ذكر أن منها نسخة ناقصة في (الخزانة العامة) بالرباط برقم ٢٨٠٩ (٢١٨٦د). انظر: فهرس المخطوطات العربية في الخزانة العامة ق٣ ج١ ص١٨. وكان ابن خير قد ذكر القصيدة في فهرسته باسم مغاير نوعاً ما (انظر ص٢٩ و ٤١).

(٢) ذكر ابن خير في فهرسته (ص٧٢) (كتاب البيان عن تلاوة القرآن) لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ). ولا يعرف عن موضوع هذا الكتاب: هل هو في التحديد أو في القراءات؟

(٣) النشر ١/ ٢٠٤.

(٤) التمهيد ورقة ٢٤ظ، ٢٦ظ.

(٥) فهرسة ابن خير ص٣٨.

التلاوة)[١]، و(تجويد القراءة وترتيلها، وتحقيق التلاوة وترسيلها)[٢]. ويُعَرِّفُ المؤلف التجويد بقوله[٣]: «إن تجويد القراءة وتحبيرها هو تصحيح الحروف وتقويمها وإخراجها من مخارجها، وترتيبها مراتبها وردها إلى أصولها وإلحاقها بنظائرها من غير إفراط يؤدي إلى التشنيع ولا نقصان يفضي إلى التضييع، بل بملاحظة الرفق والسهولة، ومجانبة الشدة والصعوبة، ومتى ما أَخَلَّ التالي بشيء من وصفها فقد أزالها عن حدها ورصفها. والتجويد زينة القراءة وحلية التلاوة . . . ».

وقال علم الدين السخاوي (ت٦٤٣هـ) في أول منظومته النونية في التجويد، المسماة «عمدة المجيد وعدة المفيد في معرفة التجويد»[٤]:

يـا مَـنْ يـرومُ تـلاوةَ القـرآنِ ... ويَـرودُ شَـأْوَ أئمـةِ الإتقـانِ

لا تَحْسَبِ التجويدَ مَدّاً مُفْرِطاً ... أو مَـدَّ مـا لا مَـدَّ فيـه لـوانِ

وقد عقد شارح «عمدة المجيد» الحسن بن أم قاسم (ت ٧٤٩هـ) في كتابه «المفيد في شرح عمدة المجيد» فصولاً في أول الكتاب، تحدث في الفصل الأول عن تعريف التجويد، فقال[٥]: «اعلم، وفقنا الله وإياك، إن التجويد هو إعطاء كل حرف حقه من مخرجه وصفته».

وقد ألف أبو الخير محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ) كتاباً حافلاً في التجويد، سماه «التمهيد في علم التجويد».

---

(١) كتاب في التجويد ورقة ٤٦و.

(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٠ظ.

(٣) المصدر نفسه ورقة ٥٠ظ.

(٤) انظر: جمال القراء ورقة ١٩٥ظ. وانظر القصيدة في آخر المخطوط رقم ٩٤١٤ المحفوظ في مكتبة المتحف العراقي.

(٥) المفيد ورقة ١٠٠ظ.

ويبدو أن الاسترسال في تتبع مصطلح التجويد في مصادره بعد هذا الشوط من البحث لا يأتي بكبير فائدة فقد اتضح بما لا يقبل الشك أن (علم التجويد) صار عِلْماً مستقلاً، منذ أوائل القرن الخامس الهجري، على أقل تقدير، حين ظهرت مؤلفات أبي الحسن السعيدي، ومكي بن أبي طالب القيسي، وأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، في هذا العلم الذي وضع اللبنةَ الأولى في صَرْحِهِ أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى الخاقاني، بقصيدته الرائية، في حسن أداء القرآن، رحمهم الله تعالى جميعاً، ورضي عنهم.

وإذا كان مصطلح (التجويد) هو الذي صار اسماً لمباحث هذا العلم فإن كلمة (الإتقان) وكلمة (التحقيق) قد استخدمتا كمرادف أحياناً لكلمة التجويد، ومعناهما اللغوي متقارب، فإن إتقان الشيء: إحكامه، وأتقن الشيء: أحكمه[1]، والتحقيق مصدر حَقَّقْتُ الشيءَ، أي عرفته يقيناً، والاسم منه الحق، ومعناه أن يُؤْتَىٰ بالشيء على حقه من غير زيادة فيه ولا نقصان منه[2].

ولعل كلمة (التجويد) حين صارت اسماً لهذا العلم قد استخدمت في معنى لا يطابق بالضبط معناها اللغوي، فالتجويد في اللغة معناه التحسين، وفي الاصطلاح: «هو إعطاء كل حرف حقه من مخرجه وصفته»[3].

فالتحسين (أي التجويد) في القراءة كائن في استيفاء الحروف حقوقها من المخارج والصفات، لا بأمر إضافي يحصل به التحسين. هذا بغض النظر عن اختلاف أصوات التالين رِقَّةً وخشونة، وهو أمرٌ لا دخل لعلم التجويد فيه، وإن كان هذا العلم يساعد على ترقيق الأصوات وتهذيبها إلى حد ما.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب مادة (ت ق ن).

(٢) الداني: التحديد ورقة ٨٤ظ، وابن الجزري: النشر ٢٠٥/١.

(٣) انظر ابن أم قاسم: المفيد ورقة ١٠٠ظ.

خاتمة البحث

أرجو في نهاية هذا البحث أن أكون قد وُفِّقْتُ في عرض عناصر الموضوع بما يوضح نشأة (علم التجويد)، ويبين بداياته الأولى، ويحدد موقع القصيدة الخاقانية في ذلك، ويكشف عن الكتب التي أُلِّفَتْ بعد القصيدة الخاقانية، آملاً في أن يكون هذا البحث دافعاً للدارسين إلى العناية بهذا العلم في مصادره الأصيلة، لِمَا لهذا العلم من أهمية في دراسة الأصوات العربية، وفي تقويم الألسنة وتصحيح النطق في قراءة القرآن الكريم، وفي ما سواها من وجوه النطق العربي.

ومن الأمور التي أرجو أن يكون هذا البحث منبهاً عليها هو أن الدراسات الصوتية اللغوية العربية قد أغفلت مصدراً مهماً جداً من مصادرها حين أهملت كتب التجويد وأعرضت عنها، فكتب هذا العلم خاصة القديمة منها غنية بالدراسة الصوتية العميقة الموضحة بالأمثلة التطبيقية الحية من القرآن الكريم.

ويبدو لي أن محققي كتاب «سر صناعة الإعراب» لابن جني مبالغون في زعمهم بأن كتب التجويد لم تزد على ما عند النحويين من الدراسة الصوتية إلا شيئاً يسيراً، فقد قالوا، وهم يتحدثون عن أثر الدراسة الصوتية التي قام بها الخليل وسيبويه وابن جني، في فروع الثقافة العربية[١]: «وكذلك صنع أصحاب الأداء القرآني (التجويد)، فقد نظموا لهم دراسات وقواعد، اشتقوها من دراسات الخليل وتلاميذه، ومن دراسات الكوفيين، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة، مطولة ومختصرة، يُقْبِلُ الناس على التعلم منها، كيف يؤدون تلاوة القرآن أداء صحيحاً، وسموا دراساتهم هذه علم التجويد، ولكنهم لم يزيدوا على أصول قواعد الإصوات شيئاً، وإنما زادوا شيئاً يسيراً في التفاصيل، كما أشار إليه المستشرق برجستراسر في كتابه «التطور النحوي».

ونص عبارة برجستراسر التي أشاروا إليها هي[٢]: «وقد كان علم الأصوات

---

(١) مقدمة تحقيق سر صناعة الإعراب ١/ ١٤ ـ ١٥.

(٢) التطور النحوي للغة العربية ص٥.

في بدايته جزءاً من أجزاء النحو، ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون، وزادوا فيه تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم»[1].

ومع الاعتراف الكامل بالفضل للخليل وتلميذه سيبويه في وضع أسس الدراسة الصوتية العربية، ومع الاعتراف للنحويين من بعدهما في مواصلة هذا النوع من الدراسة، خاصة أبا الفتح عثمان بن جني، الذي أَلَّفَ في ذلك كتاباً مستقلاً، هو «سر صناعة الإعراب»، ومع اعتراف علماء التجويد أنفسهم بأنهم يعتمدون في كثير من القضايا الصوتية على دراسات النحويين، إلا أنه لا ينبغي إغفال دور علماء التجويد في احتضان هذه الدراسة وإغنائها بكثير من الملاحظات بما صَيَّرها علماً مستقلاً، موضوعه دراسة الأصوات العربية بصورة عامة، وتطبيق تلك الدراسة على ألفاظ القرآن بصورة خاصة.

علماء قراءة القرآن هم الذين جعلوا هذه المباحث الصوتية علماً مستقلاً اسمه (علم التجويد)، وظل هذا العلم علماً تطبيقياً حَيّاً، وكان له أكبر الأثر في المحافظة على النطق العربي الفصيح طيلة قرون كثيرة، أما النحويون بعد الأجيال الأولى منهم فقد ذوت في كتبهم جذوة الدراسة الصوتية، وتخلوا عنها تدريجياً، حتى صارت أثراً بعد عين.

والكتاب الوحيد الذي أَلَّفَهُ واحد من النحويين في مجال الأصوات هو كتاب «سر صناعة الإعراب»، لابن جني، الذي قَدَّمَ فيه دراسة جيدة للأصوات العربية، ولكنه في الواقع كتاب تختلط فيه الدراسة الصوتية بالدراسة الصرفية والنحوية، وربما طغت هذه على تلك في أحيان كثيرة. ويمكن أن نذكر هنا أيضاً رسالة (أسباب حدوث الحروف)لأبي علي بن سينا، لكن ابن سينا كان طبيباً وفيلسوفاً،

---

(١) لاحظ الفرق بين عبارة المحققين (وإنما زادوا شيئاً يسيراً في التفاصيل) وعبارة برجستراسر (زادوا تفصيلات كثيرة مأخوذة من القرآن الكريم) على أن كلمة برجستراسر ليست هي الفصل في ما نحن بصدده ـ على الرغم من جهوده الكبيرة في الدراسات القرآنية ـ وإنما ساقنا إلى إيرادها استشهاد المحققين بها مع تحريفهم إياها عن قصدها.

ولم يكن نحوياً، وكان منهجه في معالجة الموضوع غير منهج النحويين، وعبارته كانت غير عبارتهم.

يجب علينا ـ إذن ـ أَن نحتفل بكتب علم التجويد، ونقف عندها، ونطيل الوقوف، فما أحوج الناطقين بالعربية ـ اليوم ـ إلى معرفة هذه الكتب ودراستها، حتى تُقَوَّمَ هذه الألسنةُ المُعْوَجَّة، والسلائق المنحرفة، وإني واثق كل الثقة أن في تلك الكتب أشياء كثيرة نافعة نحتاج إليها اليوم، وإني بهذه المناسبة أُنَبِّهُ دارسي الأصوات العربية إلى كتب مثل: «الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة» لمكي بن أبي طالب، و «التحديد في الإتقان والتجويد» لأبي عمرو الداني، و«التمهيد في علم التجويد» لأبي الخير محمد بن الجزري.

وإذا أردت أن تعجب مما أحدثك عنه من أهمية هذا العلم وأهمية كتبه فدونك كتاب «جهد المقل» لمحمد المرعشي، المشهور بساجقلي زادة (ت ١١٥٠هـ ـ ١٧٣٧م)، و «بيان جهد المقل» الذي كمل به المرعشي كتابه الأول، واقرأ فيهما ستجد دراسة صوتية لغوية محضة، دقيقة وعميقة، ولا يَصُدَّنك عن هذين الكتابين ما تراه من تأخر وفاة مؤلفهما إلى الفترة التي يحلو للبعض أن يصفها بالفترة المظلمة، إنَّ هذه الفترة إذا كانت قد شهدت تدهور أوضاع المسلمين وانحسار سلطانهم وقوتهم في كثير من بقاع الأرض فإنها لم تَخْلُ من عالمٍ نابهٍ ولا من بحثٍ أصيل، كما أنها لم تخل من مصلحين رواد، ولا من أبطال أفذاذ.

كتاب «جهد المقل» وصنوه «بيان جهد المقل» هما غاية ما وصل إليه علم التجويد دقة وعمقاً، فيما اطلعت عليه وقرأت فيه من كتب هذا العلم، على أهمية الكتب القديمة الأُولىٰ، وعُلُوِّ قَدْرِهَا. وإن مما يميز ذينك الكتابين ما ذكره المؤلف في مقدمة «جهد المقل» من قوله[1]: «فعملت فيه رسالة محتوية على عامة مسائله، بعبارات سهلة، خالية من مسامحات المصنفين، رجاء أن ينشرح

---

(١) جهد المقل ورقة ١و.

لها صدور الناظرين، وتميل إليها قلوب الطالبين». فالكتابان خاليان ـ بصورة عامة من (مسامحات المصنفين) التي تخرج بالعلم أحياناً إلى نوع من الجدل العقيم، هذا إلى جانب تضمنهما نظرات ثاقبة في تحليل الأصوات وتفهم ظواهرها، لا يسمح المجال بذكرها هنا[1].

وليس بوسعي في هذه العجالة ـ أن أحدثك عن كل شيء، فلربما كنت ـ أخي القارئ ـ أَوْعَىٰ مني بكثير من جوانب هذا الموضوع، ولكني أَلِفْتُ النظرَ إلى هذا الإهمال الذي أصاب علم التجويد، الذي ينبغي أن يسعى المهتمون بأمر سلامة اللغة إلى إحياء ما اندرس من معالمه والعمل على تدريسه في مراحل الدراسة المتقدمة، ليعم نفعه ويؤتي ثمرته، في وقتٍ تخوضُ فيه اللغة العربية معركة حياة ضد جهل الناطقين بها قبل أن تخوضها ضد أعدائها المتربصين بها.

وفي الختام أرجو أن ينظر القارئ إلى ما قد يكون في هذا البحث من جوانب النقص أو القصور من خلال كون هذا البحث محاولة أولى في سبيل الكشف عن تاريخ علم التجويد وبيان مراحله الأُولى، وما يحتاج ذلك إلى وفرة في المراجع، وأكثرها مخطوط، مشتت في أصقاع الأرض النائية، يصعب الوصول إليه، أو الاطلاع عليه، وما يحتاج إليه أيضاً من فسحة في الوقت، وهي ما لا نكاد نجدها اليوم، مع ما تزدحم به حياتنا من شواغل، وبدون هذا أو ذاك فإن الإنسان مهما يلغ من العلم فإنه عرضة للوقوع في الخطأ والتقصير، فكيف ونصيبنا من العلم قليل؟!

اللهم علمنا ما جهلنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعل أعمالنا خالصة لك يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) درس أخي الدكتور سالم قدوري الحمد كتاب «جهد المقل» وحققه في رسالته التي تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة بغداد سنة ١٩٩٥م.

(٢)

مناهج كتب تعليم قواعد التلاوة[١]

مـقـدمـة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن كثيراً من المسلمين اليوم لا يحرصون على شيء حرصهم على تعلم تلاوة القرآن وإتقانها، وتُسْهِمُ في ذلك جهود الأفراد والجمعيات والمؤسسات الرسمية، في البيوت والمساجد والمدارس والمعاهد والجامعات، وتسترشد تلك الجهود بعشراتٍ من الرسائل والكتب والمؤلفات لبيان قواعد التلاوة وآدابها.

ويرجع بدء التأليف في قواعد التلاوة إلى عصر نشأة العلوم الإسلامية، ممتزجة في المراحل الأولى بكتب قواعد اللغة العربية، ومستقلة بعد ذلك في كتب خاصة، حملت اسم (علم التجويد) منذ القرن الرابع الهجري، ولم ينقطع التأليف في علم التجويد منذ ظهور مؤلفاته الأولى حتى وقتنا الحاضر، وكانت حصيلة ذلك عشرات الكتب والرسائل، التي تتباين في الحجم والمنهج والمادة[٢].

ويتداول المشتغلون بتعليم قواعد التلاوة في عصرنا رسائل وكتباً موجزة من تأليف بعض العلماء المتأخرين ، رحمهم الله، وعدد من المعاصرين، وقد لفتت نظري فيها جملة من الملاحظات والقضايا المتعلقة بالمناهج والمادة، موازنةً بكتب علم التجويد القديمة، وكتب علم الأصوات اللغوية الحديثة، وهي أمور قد يؤثر بعضها في طريقة الأداء، وقد يفضي بعضها إلى الإخلال بالنطق أو تحريف التلاوة.

---

(١) منشور في مجلة كلية المعارف الجامعة، العدد الاول، الأنبار، العراق ١٤١٨هـ = ١٩٩٨.

(٢) يمكن أن يطلع القارئ على أسماء أكثر تلك المؤلفات في كتابي: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٣ ـ ٤٦.

ولا شك في أنه يجب أن يُحْتَاطَ لتلاوةِ القرآن وأن يحرص على اعتماد أصحِّ المناهج وأحدث الأساليب في تعليم قواعد التلاوة بما يتيح للمتعلمين فهم تلك القواعد ويعطيهم القدرة على الأداء بالقرآن الكريم عربياً مبيناً بريئاً من شوائب اللحن الخفي التي بذل علماءُ السلف، رحمهم الله تعالى، كل ما وسعهم كي يُخَلِّصوا قراءة القرآن منها.

وقد حملني واجب النصيحة لكتاب الله تعالى أن أشير في هذا البحث إلى القضايا التي لفتت نظري في كتب علم التجويد التي أُلِّفَتْ في القرن الأخير وفي زماننا، حتى تكون موضع اهتمام المتخصصين في هذا الحقل الحيوي من ثقافتنا، وتجتمع كلمتهم على ما يرونه صحيحاً أو نافعاً منها ليأخذوا به في تعليم قواعد التلاوة وفي تأليف كتبها.

وإني كنت متردداً في نشر هذه الملاحظات سنين كثيرة، خوفاً من نسبة الوهم إلى العلماء الذين خدموا علوم القرآن بمؤلفاتهم، وتحرجاً من إخواننا الأساتذة والشيوخ الذين كتبوا في هذا العلم من المعاصرين، ولكن تَرَجَّحَتْ لدي أخيراً مصلحة نشرها، لأن ما فيها لا يقصد به الأشخاص وإنما الأفكار والقضايا التي عرضوها، وهي في أكثرها مما عَمَّتْ به البلوى، ثم إن الأنفاس معدودة علينا، والآجال مُغَيَّبَةٌ عنا، وقد يفوت بكتمانها علمٌ نافع يحتاج إليه المهتمون بتلاوة القرآن الكريم.

ولعل أهم القضايا التي سوف أعرضها في هذا البحث مما يتعلق بالمنهج هو مبحث مخارج الحروف وصفاتها من ناحية أهميته لمتعلم التجويد، ومن ناحية موقعه في الكتب التي تُؤَلَّفُ في هذا العلم. أما القضايا المتعلقة بالمادة العلمية فسوف أقتصر على قضية واحدة تتعلق بالمخارج هي مخرج الضاد، وقضية واحدة تتعلق بالصفات هي تعريف الصوت المجهور والصوت المهموس، وقضية تتعلق بالأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب في قضية إخفاء النون الساكنة والتنوين.

ومنهجي في تناول هذه القضايا هو أن أعرض موقف علماء التجويد الأوائل من الموضوع الذي أناقشه، ثم أعرض طريقة تناوله في كتب علم التجويد المتأخرة أو المعاصرة ليتضح مقدار الخلل في طريقة تناوله في هذه الكتب، وسوف أرجع إلى كتب علم الأصوات اللغوية المعاصرة في بيان دقائق الظواهر الصوتية في قواعد علم التجويد، إذ إن مباحث علم الأصوات اللغوية تشكل جزءاً من مباحث علم التجويد، على الرغم من أن المشتغلين بتعليم قواعد التلاوة في زماننا لا يولون تلك الكتب أي عناية، ولا يستفيدون منها في مباحثهم.

وقد تجمع لدي أكثر من ثلاثين كتاباً ورسالة من كتب علم التجويد (أو قواعد التلاوة) مؤلفة في سني القرن الرابع عشر الهجري وسنوات هذه القرن، وهي بين مختصر ومطول، وأكثرها مؤلف في العراق ومصر وبلاد الشام، ولدي مطبوع واحد من كل من تونس والجزائر والسودان والكويت، وبعض مؤلفيها أساتذة جامعيون، وبعضهم من علماء القراءة، وبعضهم قراء محترفون. ولا شك في أن هناك كتباً أخرى لم أطلع عليها من مؤلفات علم التجويد المعاصرة، سواء من البلدان التي سميتها أو من بلدان العالم الإسلامي الأخرى، وأحسب أن ما وقفتُ عليه من هذه الكتب يعطي الصورة العامة للكتب الأخرى التي لم أطلع عليها.

ولا أقصد في هذا البحث مناقشة كل صغيرة وكبيرة تحتمل المناقشة مما ورد في الكتب المذكورة. ولكني سوف أركز كلامي على القضايا الكبيرة المتعلقة بالمنهج والمادة العلمية، التي تكرر ورودها في أكثر تلك الكتب، أما الهفوات الصغيرة أو الاجتهادات الفردية فإني لن أعرض لها في هذا البحث، وقد أعود إليها في وقت آخر إن وجدت ضرورة تدعو إلى ذلك أو فائدة ترتجى منه.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الكهف].

المبحث الأول

مخارج الحروف وصفاتها

أهميتها وموقعها في علم التجويد

اللغة في جوهرها أصواتٌ تُنتجها أعضاءُ آلةِ النُّطق لدى الإنسان، وعملية إنتاج الصوت اللغوي مركبة من عدة حركات لأعضاء آلة النطق، لكن جرت عادة علماء العربية وعلماء التجويد على النظر إلى الصوت من ناحيتين، الأولى: النقطة التي يتكون فيها الصوت أو يخرج منها، وسَمَّوْها (المخرج)، والثانية: الكيفية المصاحبة لتكون الصوت في مخرجه، وسَمَّوْها (الصفة)، وغالباً ما يكون للصوت الواحد اكثر من صفة، بعضها يتعلق بطريقة مرور النفس في المخرج، وبعضها يتعلق بحالة الوترين الصوتيين عند النطق بالصوت، وغير ذلك.

وكان علماء العربية قد درسوا النظام الصوتي للغة العربية وأشاروا إلى أهمية هذا الجانب من الدرس اللغوي، وكان سيبويه (ت ١٨٠هـ) من أوائل الذين كتبوا في هذا الموضوع، وظل ما كتبه يحدد ملامح الدرس الصوتي العربي لدى علماء العربية وعلماء التجويد حتى عصرنا الحاضر. وقد خصص سيبويه القسم الأخير من كتابه للموضوع، وافتتحه بالحديث عن مخارج الأصوات (وهو يستخدم مصطلح الحروف) وبيان صفاتها. وذلك حيث قال: «هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها ومهموسها ومَجْهورها، وأحوال مجهورها ومهموسها، واختلافها»[(١)]. ثم قال بعد أن استوفى الكلام عن المخارج والصفات: «وإنما وصفتُ لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يَحْسُنُ فيه من الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يَحْسُنُ فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تُبْدِلُهُ استثقالاً كما تُدْغِمُ، وما تُخْفيهِ وهو بزنة المتحرك»[(٢)].

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣١.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٦.

ولا يلزم في هذا الموضع تتبع مَن درس المخارج والصفات من علماء العربية، ولكن من المفيد نقل أقاويل بعضهم عن أهمية دراسة المخارج والصفات في دراسة الظواهر الصوتية في اللغة العربية، مثل الإدغام، والإبدال، والإمالة، والمد، والترقيق، والتفخيم، فمن ذلك قول الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في كتابه «المفصل» وهو يتحدث عن الإدغام: «ويقع الإدغام في المتقاربين كما يقع في المتماثلين فلا بد من ذكر مخارج الحروف لتعرف متقاربها من متباعدها»[١].

وقال السيوطي (ت ٩١١هـ) وهو يتحدث عن إدغام المتقاربين: «وذلك يتوقف على بيان مخارج الحروف»[٢]. وقال عن صفات الحروف: «وأما ألقاب الحروف فذكرها النحويون لفائدتين، إحداهما: لأجل الإدغام، لِيُعْرَفَ ما يُدْغَمُ في غيره لقربه منه في المخرج والصفة أو في أحدهما، وما لا يُدْغَمُ لبُعْدِهِ منه في ذلك. والثانية: بيان الحروف العربية حتى ينطق من ليس بعربي بمثل ما ينطق به العربي»[٣].

أما علماء التجويد المتقدمون فإن عنايتهم بمخارج الحروف وصفاتها كانت أكثر، واحتفالهم بها أشد، ولم أجد كلمة أكثر وضوحاً في ذلك من قول الداني (ت ٤٤٤هـ) في كتابه «التحديد في الإتقان والتجويد»: «اعلموا أن قُطْبَ التجويد ومِلاكَ التحقيق معرفةُ مخارج الحروف وصفاتها التي بها ينفصل بعضها من بعض، وإن اشترك في المخرج»[٤].

وقال أحمد بن أبي عمر الأنْدَرابيُّ (ت في حدود ٥٠٠هـ) بعد أن ذكر مخارج الحروف وصفاتها: «وإنما ذكرت مخارج الحروف وأصنافها لأن حاجة

---

(١) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/١٢٢.

(٢) همع الهوامع ٢/٢٢٨.

(٣) همع الهوامع ٢/٢٣٠.

(٤) التحديد ص١٥٤. وينظر عبد الوهاب القرطبي: الموضح ص٩٩.

قارئ القرآن إلى معرفة ذلك في كل حرف ماسَّة، ليُخْرِجَهُ من مخرجه، ويؤدي حقه بتمامه، على اللغة التي أنزل الله تعالى القرآن بها، ولأن بعدها باب الإدغام لمن أراد معرفة تفصيله منها، لأنه يحتاج إليها فيه ليعلم المتباعد من المتقارب، والمتشاكل من المتنافر، حتى يظهر ما يجوز أن يُدْغَمَ مما لا يجوز فيه، فإنه لا يُدْغَمُ في المتباعد ولا المتنافر، ويُدْغَمُ مع المتقارب والمتشاكل، ألا ترى أن حروف الحلق لا تدغم في حروف الفم لتباعدها منها، فلهذا يُحتاج إلى معرفة مخارج الحروف وأصنافها في معرفة الإدغام ووجوهه، والله ولي التوفيق»[1].

وقال أبو العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذاني (ت ٥٦٩هـ) في أول باب مخارج الحروف وصفاتها: «اْعلم أن هذا الباب من أشرف أصول القراءة، وأهم فصول التلاوة، وذلك أن الحروف أصل الكلام كله، وعليها مدار تأليفه، ثم من يقرأ القرآن، ويتعاطى هذا الشأن، متى ما أهمل إحكام هذا الباب لم يهتد إلى تجويد القراءة وتهذيبها، وكان كَمَن رامَ قَطْعَ تِيهٍ[2] بلا دليل، وإصعاد قُنَّة نيق[3] بغير ما سبيل، فإذا عرف الحروف وأتقنها، ولاحظ أجناسها وأحكمها، ثم انضاف إلى ذلك طبع يتقبل هذا الشأن ويمتزج به، أشفى به ذاك على القراءة الصحيحة والألفاظ القويمة، بعون الله ومَنِّهِ»[4].

وحَدَّدَ الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) أركان علم التجويد، وبَيَّنَ مستلزماته بقوله: «إن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور:

أحدها: معرفة مخارج الحروف.

والثاني: معرفة صفاتها.

---

(١) الإيضاح في القراءات ورقة ٧٥.

(٢) التيه: المفازة، يُتاهُ فيها (لسان العرب ١٧/ ٣٧٥).

(٣) النيق: الطويل من الجبال (اللسان ١٢/ ٢٤٢)، والقُنَّةُ: أعلى الجبل (اللسان ١٧/ ٢٢٨).

(٤) التمهيد في معرفة التجويد ورقة ١٤١ظ.

والثالث: معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام.

والرابع: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار.

وأصل ذلك كله وأساسه تَـلَـقِّيـهِ من أولي الإتقان، وأخذه عن العلماء بهذا الشأن، وإن انضاف إلى ذلك حُسْنُ الصوتِ وجودة الفك وذرابة اللسان وصحة الأسنان كان الكمال»[١].

وقال المرادي بعد أن فرغ من تفصيل الكلام على المخارج والصفات: «واعلم أن صفات الحروف أغمض وأدق من مخارجها، فعليك بإتقانها، فإنه ملاك التجويد»[٢].

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ): «أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحاً يمتاز به عن مقاربه، وتوفيةُ كل حرف صفته المعروفة به توفيةً تخرجه عن مجانسه، يُعْمِلُ لسانه وفمه بالرياضة في ذلك إعمالاً يُصَيِّرُ ذلك طبعاً وسليقة.. فإذا أحكم القارئ النطق بكل حرف على حِدَتِهِ موفٍّ حقه، فَلْيُعْمِلْ نفسه بإحكامه حالة التركيب، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الإفراد...»[٣].

وقد صاغ ابن الجزري هذا المعنىصياغة واضحة في قصيدته المشهورة بالمقدمة، وذلك حيث قال:[٤]

وبَعْـــد إن هـــذه مُقَـــدِّمَـــهْ   فيمـا علـى قـارئـه أن يعلمَـهْ

إذ واجـــبٌ عليهـــم مُحَتَّـــمُ   قبلَ الشروعِ أوَّلاً أن يعلموا

مخارجَ الحروف والصفات   ليَلْفِظـوا بـأَفصـحِ اللغـاتِ

---

(١) شرح الواضحة ٣٠، وينظر: الدراسات الصوتية ٦٠ هامش١.

(٢) المفيد ٥٤.

(٣) النشر ١/ ٢١٤.

(٤) متن الجزرية ٥-٦.

وقال الشيخ خالد الأزهري: «وقوله (قبل الشروع) أي يجب على كل قارىء قبل الشروع في القرآن أن يعلم مخارج الحروف وصفاتها، ليحسن التلفظ بأفصح اللغات، وهي لغة العرب، وبها نزل القرآن»[(١)].

ولَما كان لمعرفة مخارج الحروف وصفاتها هذه الأهمية في إتقان التلاوة ومعرفة أحكامها والوقوف على أسرارها فإن علماء التجويد المتقدمون جعلوا المبحث الخاص بالمخارج والصفات في صدر كتبهم، قبل كلامهم على الأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب مثل الإدغام والإخفاء والترقيق والتفخيم والإمالة والمدود ونحوها، والنصوص التي نقلتها من كتبهم تشير إلى ذلك، ولا أجد ضرورة لإطالة الكلام في استعراض أبواب مؤلفاتهم لكي يتضح موضع مبحث مخارج الحروف وصفاتها منها، ومن أراد الوقوف على ذلك فعليه بإلقاء نظرة في فهرس موضوعات تلك الكتب[(٢)].

وإذا نظرنا في كتب علم التجويد (أو قواعد التلاوة) المؤلفة في القرن الماضي ومطالع هذا القرن لوجدنا تبايناً في الموضع الذي يحتله مبحث المخارج والصفات فيها، ويمكن أن أجمل مذاهب مؤلفي تلك الكتب في أربعة اتجاهات:

١ـ منهم من وضع ذلك المبحث في وسط الكتاب، بعد أن تحدث عن عدد من الظواهر الصوتية الناشئة عن التركيب، ثم يُكْمِلُ بحث تلك الظواهر بعد أن يستوفي حديثه عن المخارج والصفات.

٢- ومنهم من وضع ذلك المبحث في آخر الكتاب.

---

(١) الحواشي الأزهرية ٦.

(٢) ينظر مثلاً: الداني: التحديد ١٠٤، ومكي: الرعاية ٩١، وعبد الوهاب القرطبي: الموضح ٨٧، وابن الجزري: التمهيد ٩٥ و ١١٣، والنشر ١/١٩٨و٢٠٢، والبقري: غنية الطالبين ورقة ١ظ، والمرعشي: جهد المقل ١٠٠ و١١٤.

٣- ومنهم من وضعه في أول الكتاب، وهم قلة قليلة.

٤- وبعضهم حذف هذا المبحث من كتابه جملة وتفصيلاً.

فمن أمثلة الاتجاه الأول: ما ذكره مؤلف كتاب «البرهان في تجويد القرآن»[١]، فقد جاءت موضوعاته مرتبة على هذا النحو بعد المقدمة: الإستعاذة والبسملة، أحكام النون الساكنة والتنوين، أحكام الميم الساكنة، حكم لام أل ولام الفعل، باب مخارج الحروف، صفات الحروف، باب الترقيق والتفخيم، باب المثلين والمتقاربين والمتجانسين، باب المد والقصر... الخ.

ومن أمثلته أيضاً ما ذكره مؤلف كتاب «الرائد في تجويد القرآن»، ومؤلف كتاب «فن التجويد»، ومؤلف «رسالة في قواعد التلاوة»، وكتاب «الأصول في تجويد القرآن الكريم»، وكتاب «الفريد في فن التجويد»[٢].

ومن أمثلة الاتجاه الثاني: ما ذكره مؤلف كتاب «هداية المستفيد في أحكام التجويد» حيث جاء مبحث المخارج والصفات في آخر مباحث التجويد هكذا[٣]: أحكام الاستعاذة والبسملة، أحكام النون الساكنة والتنوين، أحكام الميم الساكنة، أحكام أل المعرفة، أحكام اللام الواقعة في الفعل، أحكام الإدغام، أحكام الراء، مخارج الحروف، صفات الحروف، أقسام الوقف، وتتمة تتصل بالقراءة وختم القرآن.

ومن أمثلته أيضاً ما ذكره مؤلف كتاب «ملخص العقد الفريد في فن التجويد»، ومؤلف كتاب «كفاية الراغبين في تجويد القرآن المبين»، ومؤلف كتاب «خلاصة

---

(١) هو الأستاذ محمد الصادق قمحاوي، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م.

(٢) تنظر قائمة المصادر للوقوف على أسماء مؤلفيها وبلدانهم وتواريخهم.

(٣) هو الشيخ محمد محمود النجار الحموي المشهور بأبي ريمة، وقد فرغ من تأليفه سنة ١٣١٦هـ.

في علم التجويد» ومؤلف كتاب «حق التلاوة» الذي جعل مبحث صفات الحروف في وسط الكتاب، وجعل مبحث المخارج في آخر الكتاب.

ومن أمثلة الاتجاه الثالث، الذي يرد فيه بحث المخارج والصفات في أول المباحث: ما ذكره مؤلف كتاب «التجويد والأصوات» حيث لخص في المباحث الأولى من كتابه قضايا علم الأصوات ثم أردفها بأحكام التجويد[1].

ومن أمثلته أيضاً كتاب «قواعد التلاوة وعلم التجويد»، وكتاب «قواعد التلاوة»، وكتاب «نظرات في علم التجويد»، وكتاب «التجويد الواضح»، وكتاب «عمدة المفيد وعدة المجيد في أصول التجويد».

ومن أمثلة الاتجاه الرابع، حيث خلت مؤلفات هذا الاتجاه من مبحث المخرج والصفات: كتاب «تحفة الراغبين في تجويد الكتاب المبين»، ولعل مؤلف هذا الكتاب لم يذكر هذا المبحث حرصاً منه على الإيجاز والاختصار[2]، لأنه حين شرح منظومة «هداية الصبيان في تجويد القرآن» وكانت خالية منه، قال: «ولما لم يتعرض المصنف لبيان مخارج الحروف وصفاتها، وهما مما يحتاج إلى معرفته ذَيَّلْتُ هذه الكلمات بنبذة حَوَتْ من الفوائد ما لا بد للقارئ من معرفته» ومنها مخارج الحروف وصفاتها[3].

ومن أمثلة هذا الاتجاه أيضاً كتاب «المقتطف منظومة في علم الصوت اللغوي»[4]، و«دليل معلم القرآن الكريم في مرحلة التعليم الأساسي في الوطن

---

(١) هو الدكتور إبراهيم محمد نجا، عميد كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر في زمانه والكتاب (د.ت).

(٢) هو الشيخ محمد علي خلف الحسيني المعروف بالحداد، شيخ القراء في مصر (ت ١٣٥٧هـ = ١٩٣٩م). ينظر: الأعلام ٦/ ٣٠٤.

(٣) ينظر: إرشاد الإخوان شرح هداية الصبيان ٢.

(٤) للمؤلف د.عبد الله مصطفى وجهة نظر تتلخص في أن علم الأصوات ينقسم إلى قسمين: =

العربي»[1]. ومن كتب هذا الاتجاه ذات الشهرة في عصرنا كتاب «فتح الأقفال بشرح تحفة الأطفال» للشيخ سليمان بن حسين الجمزوري، وهو يرجع إلى عصر أقدم قليلاً من الحقبة التي نتناول كتبها بالدراسة في هذا البحث[2].

إن الموقع المناسب لمبحث المخارج والصفات في كتب علم التجويد هو أولها، قبل عرض الأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب، لأن فهم هذه الأحكام والوقوف على قوانينها الصوتية ينبني على معرفة مخارج الأصوات وصفاتها، وإن مَنْ لَمْ يُحِطْ علماً بالمخارج والصفات فإن معرفته بالأحكام ستكون ناقصة، وقد قرر ذلك علماء التجويد المتقدمون على نحو ما يتضح من النصوص التي نقلتُها من كتبهم في أول هذا المبحث، كما أن علماء الأصوات اللغوية المعاصرين يخصصون صفحات كثيرة في صدر كتبهم لوصف أعضاء آلة النطق وكيفية إنتاج الأصوات اللغوية ودراسة مخارج الأصوات وصفاتها وتصنيفها.

ومن ثم فإن دراسة مخارج الأصوات وصفاتها في آخر كتب علم التجويد لا يحقق الفائدة من دراستها، وكذلك فإن دراستها في وسط تلك الكتب يؤدي إلى النتيجة نفسها، إضافة إلى دلالته على اضطراب في المنهج، لأن حاجة دارس أحكام النون الساكنة إليها مثلاً لا تقل عن حاجة دارس أحكام إدغام المتقاربين والمتجانسين.

وتلزم الإشارة هنا إلى أن الكتب المؤلفة لتعليم قواعد التلاوة يجب أن

= (علم المخارج) ويعنى بالأصوات المفردة، و(علم التجويد) ويعنى بأحكام الأصوات مركبة بعضها مع بعض. وقد جعل منظومته في العلم الثاني، ومن ثم أهمل مبحث المخارج والصفات. (ينظر: مجمع الأشتات ٢٨٤).

(١) تأليف د. محمد عبد الرحمن حامد الفولي، أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

(٢) تأريخ تأليفه سنة ١١٩٨هـ = ١٧٨٤م. (ينظر: معجم المؤلفين ٤/ ٢٥٧).

يُرَاعىٰ فيها مستوى مَنْ يستخدمها، وأحسب أن الكتب التي تخصص لتعليم الأطفال يمكن أن تخلو من مبحث المخارج والصفات، كما يحسن أن تُبَسَّطَ فيها القواعد على نحو يسهل معه استيعابها وتطبيقها، أما الكتب المؤلفة للمراحل المتقدمة فيلزم أن يتصدرها مبحث المخارج والصفات وأن تفصَّل فيها الأحكام بالقدر المناسب لكل مرحلة.

ولا يكفي وضع مبحث المخارج والصفات في أول تلك الكتب، ولكن يجب النظر في المادة التي تضمنها هذا المبحث، فقد لاحظت أن أكثر الكتب التي تشملها هذه الدراسة عالجت الموضوع بطريقة لا تخلو من المآخذ والتعقيدات التي تحول بين الدارس وفهمه لحقائق هذا الموضوع بالصورة التي تمكنه بعد ذلك من فهم الأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب. وهذه قضية ستكون موضوع المبحث الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني

ملاحظات حول المادة العلمية
في كتب علم التجويد أو قواعد التلاوة

إن الملاحظات التي سوف أعرضها في هذا المبحث حول المادة العلمية في كتب علم التجويد المؤلفة في القرن الهجري الماضي وهذا القرن لا تشمل الأخطاء الفردية التي قد يقع فيها بعض المؤلفين، ولا الاجتهادات الخاصة التي يتبناها بعض الباحثين، ولكنها تتركز حول قضايا عامة أخذ بها مؤلفو تلك الكتب وصاغوها بعبارات يشوبها الغموض، وهي في الواقع لم تعد تتطابق مع حقائق العلم ولا تتوافق مع المأخوذ به في التلاوة، وسوف أكتفي بتناول قضية واحدة من كل باب من أبواب علم التجويد الثلاثة الأساسية: باب المخارج، وباب الصفات، وباب الأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب.

أولاً ـ مخرج صوت الضاد:

حصل اختلاف في عدد مخارج أصوات العربية، فذهب كثير من علماء العربية والتجويد إلى أنها ستة عشر، ومنهم من جعلها سبعة عشر، وبعضهم عَدَّها أربعة عشر، ومن المحدثين من يحصرها في اثني عشر مخرجاً[1]. ولا يستند هذا التباين إلى اختلاف في حقيقة نطق الأصوات، وإنما يرجع ذلك إلى اختلاف وجهة نظرهم في جعل أصوات مثل (ل، ر، ن) من مخرج واحد أو من ثلاثة مخارج، ونحو ذلك مما يمكن أن تختلف فيه الأنظار، من غير أن يكون لذلك أثر في النطق أو طريقة الأداء.

وهناك صوت واحد من أصوات العربية أثار تحديد مخرجه نقاشاً طويلاً بين الدارسين المحدثين، وهو صوت الضاد، فقد لاحظوا أن تحديد علماء العربية وعلماء التجويد لمخرج هذا الصوت لم يعد يتطابق مع أداء مُجِيدي القرآن المعاصرين، ولكن ظل مؤلفو كتب التجويد المعاصرين يرددون عبارة سيبويه في تحديد مخرج هذا الصوت وإن كانت طريقة أدائهم له لا تتطابق مع ما يسطرونه في كتبهم.

وكان سيبويه، رَحِمَهُ اللَّهُ، قد قال في تحديد مخرج الضاد: «ومن بينِ أوَّلِ حافَّةِ اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد»[2]. وتحدَّث أيضاً عن الضاد الضعيفة، وهي نوع غير مستحسن من نطق الضاد العربية في زمانه، فقال: «إلا أن الضاد الضعيفة تُتَكَلَّفُ من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة»[3]. وعدَّ سيبويه الضاد العربية

---

(١) ينظر كتابي: الدراسات الصوتية ١٧٦.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٢.

من الحروف الرخوة التي يجري فيها الصوت، ولا ينحبس النَّفَس في مخرجها، إضافة إلى كونها صوتاً مجهوراً[1].

والضاد بهذه الصفات لم يعد لها وجود في النطق العربي الفصيح في زماننا، لا في قراءة القرآن ولا في غيرها، وقد صارت على ألسنة بعضهم دالاً مفخمة، كما في مصر، وصارت على ألسنة آخرين صوتاً لا يختلف عن الظاء في شيء كما في العراق[2]. وهناك مناقشات كثيرة لدى القدماء والمحدثين حول ما أصاب صوت الضاد من تطور[3]، لا يعنينا أمرها في هذا البحث بقدر ما يعنينا هنا أن نشير إلى أن تمسك مؤلفي كتب علم التجويد في زماننا بعبارة سيبويه في وصف مخرج الضاد لم يعد مناسباً، وأن عليهم أن يفكروا في وصف جديد لمخرج هذا الصوت يتطابق مع نطقه الفعلي على ألسنة مجيدي القراءة، وأن تغيير عبارة سيبويه تغييراً محدوداً ليس كافياً في تصحيح الأمر.

وإذا حاول الدارس أن يدقق في عبارات المؤلفين في تحديد مخرج الضاد، وهم يرددون في الواقع عبارة سيبويه، سيجد اضطراباً في الألفاظ، وخلطاً بين مخرجي الضاد العربية والضاد الضعيفة، مما أدى إلى غموض المعنى وصعوبة الوقوف على حقيقة مخرج هذا الصوت الذي يتحدثون عنه، فسيبويه حين قال: «ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد» فإن عبارته واضحة، فحافة اللسان جانبه، وللسان حافتان من جهة يسار الفم ويمينه[4]. فالضاد صوت جانبي ينفذ النَّفَس حين النطق به من بين أول حافته ـ من جهة

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٢) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٤٨، ويوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن ٦٩، وحسام النعيمي: أصوات العربية ٥٠.

(٣) ينظر: الدراسات الصوتية ٢٦٥ - ٢٨١.

(٤) ينظر: ابن غانم المقدسي: بغية المرتاد ١٢١.

أقصاه على مايبدو ـ والأضراس، وهي الطواحن، على جانبي الفم، ثمان من فوق، وثمان من أسفل، في كل جانب أربع[1]. وهو صوت مجهور، رخو، مُطْبق.

وهذه الأمثلة من عبارات المؤلفين الذين يشملهم البحث في تحديد مخرج الضاد:

١- الضاد «يخرج من حافة اللسان مما يلي الأضراس»[2].

٢- من أول حافته إلى ما يلي الأضراس من الجانبين أو من أحدهما ض»[3].

٣- «إحدى حافتي اللسان وما يحاذيه من الأضراس العليا، ويخرج منه الضاد المعجمة، وخروجها من الجهة اليسرى أسهل وأكثر استعمالاً، ومن اليمنى أصعب وأقل استعمالاً، ومن الجانبين أعز وأعسر، فهي أصعب الحروف مخرجاً»[4].

٤- «من أول حافة اللسان إلى ما يحاذي الضرس الضاحك مع ما يلي الأضراس العليا المحاذي لأقصى اللسان»[5].

٥- «إحدى حافتي اللسان (أي جانبه) مع مايحاذيها من الأضراس العليا التي أولها الناجذ المسمى بضرس العقل، وآخرها الضاحك المجاور للناب، وهو مخرج الضاد (ض) الذي هو أصعب الحروف على اللسان، وخروج الضاد من الجهة اليسرى أسهل وأكثر استعمالاً، ومن الجهة اليمنى أصعب وأقل استعمالاً، ومن الجانبين أعز وأصعب. وكان سيدنا رسول الله ﷺ يخرج

---

(١) الاستراباذي: شرح الشافية ٣/ ٢٥٢.

(٢) إرشاد الإخوان ٦٣.

(٣) فن التجويد ٣٨.

(٤) البرهان في تجويد القرآن ١٦.

(٥) التجويد الواضح ٢٨.

الضاد من الجانبين ، لذلك كان يقول[1]: «أنا أفصح من نطق بالضاد، بيد أني من قريش»... »[2].

إن المتفحص للنصوص السابقة يلاحظ عليها عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: إن هذا التحديد لمخرج الضاد لا ينطبق على الضاد التي ينطقها مجيد قراءة القرآن في زماننا.

الملاحظة الثانية: أن جميع تلك النصوص لم تحافظ على عبارة سيبويه، وقد غيرت فيها بالزيادة عليها أو بتغييرها.

والملاحظة الثالثة: أن بين تلك النصوص من الاختلاف في العبارة ما يؤدي إلى اختلاف المعنى، فهناك فرق كبير بين العبارات الثلاث الآتية:

عبارة سيبويه: من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس.

عبارة إرشاد الإخوان: من حافة اللسان مما يلي الأضراس.

عبارة فن التجويد: من أول حافة اللسان إلى ما يلي الأضراس.

وهكذا في النصوص الأخرى، على ما فيها من التطويل الحاصل من خلط كلام سيبويه على مخرج الضاد الفصيحة بكلامه على الضاد الضعيفة.

إن علماء الأصوات اللغوية المعاصرين يقررون أن الضاد التي ينطقها الآن مجيدو القراءة ليست الضاد العربية القديمة، وأنها تختلف عنها في المخرج وبعض الصفات، فمخرجها من بين طرف اللسان وأصول الثنايا (اللثة)، مع الطاء والدال والتاء، وهي مجهورة مطبقة كالضاد القديمة، ولكنها صارت في

---

(١) قال ابن الجزري (النشر ١/ ٢٢٠): «والحديث مشهور على الألسنة: أنا أفصح من نطق بالضاد» لا أصل له ولا يصح.

(٢) رسالة في قواعد التلاوة ٦٤.

النطق المعاصر صوتاً شديداً (انفجارياً) وفقدت صفة الرخاوة، ولا فرق بينها وبين الطاء إلا أن الضاد مجهورة والطاء مهموسة (في النطق المعاصر)، كما أنه لا فرق بينها وبين الدال سوى أن الضاد مطبقة والدال منفتحة[١].

وإذا كان الأمر كذلك فهل يصح أن يظل مؤلفو علم التجويد المعاصرون يرددون عبارة سيبويه في تحديد مخرج الضاد، مع ما في عبارتهم من تحريف لها؟ وألَاَ يستحقُّ الأمر منهم وقفةً، أو مناقشة؟ وإني أحسب أن الأمر يستحق أكثر من ذلك، وعسى أن يصار إلى عقد ندوة أو مؤتمر علمي في يوم ما، لحسم موضوع الضاد في كتب علم التجويد وفي الأداء!

ثانياً ـ تعريف الصوت المجهور:

تتحدد ملامح الصوت اللغوي من خلال الموضع الذي يحدث فيه الحبس للنَّفَس أو التضييق له، وهو المخرج، ومن خلال الكيفيات المصاحبة لتكوّن الصوت في مخرجه، وهي الصفات. وقد جرت عادة الدارسين أن يتناولوا بالحديث أولاً المخارج، ثم يتبعوها بالصفات[٢]. وقد أشرت إلى بعض القضايا المتعلقة بالمخارج في الفقرة السابقة، ويتطلب الحديث عن الصوت المجهور هنا الكلام على الصفات ولو بصورة موجزة.

ولعل أهم الصفات التي تحدد ملامح الصوت بالإضافة إلى ما يحدث له في المخرج من حبس أو تضييق للنفس هو صفة الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والإطباق والانفتاح، وهناك صفات صوتية أخرى لا تسهم في التفريق بين

---

(١) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٤٨، وكمال محمد بشر: الأصوات ١٣٣، ويوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن ٦٩.

(٢) بحث بعض المؤلفين المعاصرين الصفات قبل المخارج (ينظر: التجويد الواضح ١٢ و٢٤ وحق التلاوة ٩٠ و١١٤، وخلاصة في التجويد ٦٧ و ٦٩). وهذا خلاف ما تقتضيه طبيعة الموضوع.

الأصوات التي تخرج من مخرج واحد، وإن كانت تُوضِّحُ جانباً من خصائص الأصوات، ولا يستلزم الموضوع التعرض لها هنا، وهي مفصلة في مواضعها من كتب علم التجويد وعلم الأصوات اللغوية.

والصوت المجهور ـ عند علماء الأصوات المحدثين ـ هو الصوت الذي يصاحب تكَوُّنَه في مخرجه تذبذب (أو اهتزاز) الوترين الصوتيين في الحنجرة، وهما يشبهان شفتين رقيقتين تعترضان مجرى النفس في أعلى القصبة الهوائية، فإذا تذبذب الوتران حدثت نغمة صوتية مصاحبة لتكوُّن الصوت في مخرجه تسمى الجهر، وسُمِّيَ ذلك الصوت مجهوراً، وإذا ظل الوتران ساكنين في أثناء تكوُّن الصوت في مخرجه لم تحدث تلك النغمة، وكان الصوت مهموساً، والأصوات المجهورة في العربية في النطق المعاصر خمسة عشر صوتاً هي: ع غ ج ي ل ر ن د ض ز ذ م ب و، والمهموسة ثلاثة عشر صوتاً هي: هـ ء ح خ ق ك ش ت ط س ص ث ف[1].

أما وصف الصوت بالشدة والرخاوة فإن ذلك يعتمد على كيفية مرور الهواء في مخرج الصوت، فإذا حُبِسَ النَّفَس في المخرج حبساً كاملاً ثم أطلِقَ بعد ضغطه لحظة كان الصوت شديداً ويسميه كثير من المحدثين انفجارياً، وإذا حصل تضييق لمجرى النفس في المخرج من غير أن يحتبس فيه كان الصوت رخواً، ويسميه كثير من المحدثين احتكاكياً. ويحصل في أثناء نطق بعض الأصوات اعتراض لمجرى النفس في المخرج، ولكن لا يحصل حبس تام، لأن النفس يجد له منفذاً يتسرب منه، ويسمى الصوت حينئذ متوسطاً.

والأصوات الشديدة في العربية في النطق المعاصر هي: ء ق ك ج ط ت د

---

(١) ينظر: إبراهيم انيس: الأصوات اللغوية ١٧، ومحمود السعران: علم اللغة ١٤٤، وكمال محمد بشر: الأصوات ٨٤، أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ٨٠.

ض ب، والأصوات الرخوة هي: هـ ع ح غ خ ش ص ز س ظ ذ ث ف ي و[1]، والمتوسطة: ل ر ن م[2].

أما وصف الصوت بالإطباق والانفتاح فإن ذلك يعتمد على حالة أقصى اللسان عند النطق بأصوات طرف اللسان، فإذا تصعد أقصى اللسان اتخذ شكلاً مقعراً يشبه الطبق، وكان الصوت مطبقاً، وأصوات الإطباق في العربية أربعة هي: ص ط ض ظ، وما عداها منفتحة[3].

وكان سيبويه، رَحِمَهُ اللَّهُ، قد تحدث عن صفات الأصوات حديثاً دقيقاً ومفصلاً، وكان حديثه ذلك مُعْتَمَدَ الدارسين من بعده، لكن عبارته في تعريف الصوت المجهور لا تخلو من غموض لم يتمكن العلماء من إزالته إلا في العصر الحديث، وقد ظل المؤلفون في علم التجويد من المحدثين يرددون عبارة سيبويه بعد أن أدت كثرة تناقلها في الكتب وتقادم العهد بها إلى حصول تحريفات فاحشة فيها تستلزم أن يعيدوا النظر فيها ويريحوا قُرَّاءَ كتبهم والمتعلمين فيها من هذا العناء الذي يكابدونه وهم يعالجون نصوصاً صارت أشبه ما تكون بالألغاز أو الأحاجي.

قال سيبويه في تعريف الصوت المجهور: «حرف أُشْبِـعَ الاعتماد في موضعه، ومَنَعَ النَّـفَس أن يجري معه حتى ينقضيَ الاعتماد ويجريَ الصوت» والأصوات المجهورة عنده هي: ء ا ع غ ق ج ي ض ل ن ر ط د ز ظ ذ ب م و.

وقال في تعريف الصوت المهموس: «فأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه...»، والأصوات المهموسة عنده عشرة هي: هـ ح خ ك ش س ت ص ث ف.

---

(١) عدَّ بعض الدارسين الياء والواو من الأصوات المتوسطة، وفي ذلك نظر، يراجع كتاب الدراسات الصوتية ٢٥٨.

(٢) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٢٢.

(٣) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٤٧ - ٤٨.

وعرّف الصوت الشديد بقوله: «وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه..»[1].

وكان قد توقف عدد من الباحثين المحدثين أمام تعريف سيبويه للصوت المجهور طويلاً، محاولين تفسيره بموجب الفهم المعاصر لظاهرة الجهر، وهم لا يخفون حيرتهم في بعض جوانبه، ولكنهم يقررون مع ذلك أن تحديد سيبويه للأصوات المجهورة والمهموسة يتطابق مع ما دلَّت عليهم الدراسات المعاصرة ما عدا صوت الهمزة والقاف والطاء التي وصفها سيبويه بالجهر وهي عند المحدثين مهموسة[2].

وإذا دقق الباحث في كتب التجويد المعاصرة فإنه سوف يجد اضطراباً كبيراً في تعريف الصوت المجهور والصوت المهموس، وتحريفاً مفسداً لعبارة سيبويه التي لا تخلو من غموض أصلاً، وهذه أمثلة من تلك الكتب:

١- قال مؤلف كتاب البرهان: «الهمس: لغة الخفاء، واصطلاحاً جريان النفس عند النطق بالحرف لضعف الاعتماد على المخرج، وحروفه عشرة يجمعها قوله: (فحثه شخص سكت)...

والجهر: لغة الإعلان، واصطلاحاً انحباس جريان النَّفَس عند النطق بحروفه لقوة الاعتماد على المخرج، وحروفه تسعة عشر، وهي الباقية بعد حروف الهمس»[3].

وردَّدَ كثير من المؤلفين المعاصرين هذا التعريف[4].

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(٢) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ١٢٠، وعبد الصبور شاهين: في التطور اللغوي ٢٣٠، وحسام النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ٣١٣.

(٣) البرهان في تجويد القرآن ١٩.

(٤) ينظر: فن التجويد ٤٢، والرائد في تجويد القرآن ٤٣، وحق التلاوة ٩٦، وقواعد التلاوة ٢٤، وقواعد التلاوة وعلم التجويد ٣٥، والفريد في فن التجويد ٢/ ١٤.

٢- وأضاف مؤلف «رسالة في قواعد التلاوة» إضافة أخرى إلى التعريف السابق تزيد من غموضه واضطرابه حين قال: «الجهر انحباس جري النَّفَس عند النطق بحروفه لقوة الاعتماد على المخرج، مع تحرك حروفه»[١]. وحاول أن يفرق بين الجهر والشدة من خلال تحرك الحرف وسكونه فقال: «والفرق بين الجهر والشدة: أن الجهر انحصار النَّفَس عند تحرك حروفه، والشدة انحصاره عند إسكانها»[٢]. وكل هذا مما لا أصل له في كتب علم التجويد ولا يتطابق مع حقائق النطق بالأصوات.

٣- ونتيجة للتشابه الكبير بين تعريف الصوت المجهور والصوت الشديد لدى سيبويه، واستخدامه (جري النفس) في المجهور و(جري الصوت) في الشديد فإن الأمر قد التبس على بعض المؤلفين المحدثين كما التبس على السكاكي[٣] من قبل، فخلط بين الشديد والمجهور، وذلك حيث يقول: «توضيح الهمس[٤] الهمس: معناه الخفاء، وضده الجهر وهو الإعلان والإظهار. وعدد حروف الهمس عشرة هي: حثَّ شخصه فسكت.

توضيح الشدة والجهر[١] : الشدة والجهر: ومعناهما القوة، وضدهما الرخاوة. ومعنى الرخاوة في اللغة اللين. والشدة واللين هما صفتان متضادتان. واصطلاحاً: ضعف التصويت بالحرف في مخرجه حتى جرى معه النفس فكان فيه همس أي خفاء. وعددها ثمانية هي: أ ج د ت ق ط ب ك.

توضيح الرخاوة[٢]: الرخاوة: ومعناها لغة اللين واصطلاحاً ضعف لزوم

---

(١) ينظر: رسالة في قواعد التلاوة ١٩، وينظر: الأصول في تجويد القرآن ٤٩.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم ١١.

(٣) ينظر: كتاب الدراسات الصوتية ١٤٩.

(٤) ينظر رسالة في قواعد التلاوة ١٩، وينظر: الأصول في تجويد القرآن ٤٩.

الحرف له لضعف الاعتماد عليه في مخرجه فسمي رخواً، وعدد حروفها سبعة وهي: ل م ي ر ع و ن»[1].

ويلاحظ أنه إلى جانب خلطه بين الشدة والجهر قد أخطأ في الحروف الرخوة فذكر مكانها الحروف المتوسطة التي عدها بعضهم سبعة.

٤- واختصر بعض المؤلفين التعريف فصار تعريف المصطلحات الأربعة عنده هكذا:

الهمس: جريان النفس عند النطق بالحرف.

الجهر: عدم جريان النفس عند النطق بالحرف.

الشدة: عدم جريان الصوت عند النطق بالحرف.

الرخاوة: جريان الصوت عند النطق بالحرف[2].

وأحسب أن الأمر لا يتطلب إيراد تعريفات أخرى للصوت المجهور، مما ورد في كتب علم التجويد المؤلفة في العصر الحديث، لا سيما أن جميع التعريفات التي أوردتها، ومثلها الأخرى التي لم أوردها تتسم بما يأتي:

أولاً: لم تلتزم بعبارة سيبويه في تعريف الصوت المجهور، وعبارة سيبويه لا تخلو من الغموض أصلاً.

ثانياً: إن الإضافات والتغييرات التي تعرضت لها عبارة سيبويه لا تستند إلى فهم لحقيقة الموضوع، وإنما هي تعريفات تراكمت وانتهت إلى صورة مضطربة لا تعبر عن حقيقة علمية جديدة.

ثالثاً: إن جميع المؤلفين الذين أوردت النصوص السابقة كتبهم، وكذلك

---

(١) ينظر: التجويد الواضح ١٤.

(٢) ينظر: خلاصة في علم التجويد ٦٧.

الآخرين الذين لم أنقل عنهم ممن اطلعت على كتبهم، يَعُدُّونَ صوت الطاء وصوت القاف وصوت الهمزة من الأصوات المجهورة، وهي ليست كذلك في النطق العربي الفصيح وقراءة مجيدي القراءة في زماننا، بل هي أصوات مهموسة حسب التعريف الحديث للجهر والهمس[١].

ولعل هذه الحقائق تستلزم التأكيد على أمرين اثنين:

١- وجوب إعادة صياغة تعريف الصوت المجهور والصوت المهموس، في ضوء حقائق علم الأصوات اللغوية المعاصر، في الكتب التي تُؤلف في علم التجويد، وتحويل تعريف سيبويه لهما إلى البحوث التاريخية وعدم إيراده في الكتب التعليمية.

٢- التوقف عن وصف الأصوات الثلاثة (ط ق ء) بصفة الجهر، لأنها أصوات مهموسة في واقع التلاوة المعاصرة، وعسى أن يتقرر ذلك في ندوة أو مؤتمر علمي يعقد لمناقشة قضايا الأداء والتلاوة القرآنية في زماننا.

٣- إخفاء النون الساكنة:

تتأثر الأصوات إذا تجاورت في الكلام المنطوق، فيؤثر بعضها في بعض، ويتوقف مقدار ذلك التأثر على عدة عوامل، منها مقدار القرب والبعد بين الأصوات المتجاورة من حيث المخرج والصفات، ومنها طبيعة الصوت نفسه وما يتميز به من خصائص. ولعل النون الساكنة من أكثر أصوات العربية تنوعاً في تأثرها بما يجاورها من أصوات، ويرجع ذلك إلى توسط مخرجها وتميزها بصفة الأنفية أي الغنة، ومن ثم فإن أحكام النون الساكنة تشغل صفحات من كتب علم التجويد، وأفرد لها بعضهم رسائل مستقلة[٢].

---

(١) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ٦٢ و٨٥ و٩١، ومحمود السعران: علم اللغة ١٦٨ و١٧٠، وكمال محمد بشر: الأصوات ١٣٠ و١٤١ و١٤٦، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ٢٩٤، وحسام النعيمي: أصوات العربية بين التحول والثبات ٢٥ - ٣٧.

(٢) مثل: علي بن عثمان بن القاصح (ت ٨٠١هـ): نزهة المشتغلين، وزكريا الأنصاري (ت =

إن صوت النون يتميز بأن له معتمداً في الفم حيث يستند طرف اللسان على أصول الثنايا (اللثة)، وله مجرىً للنفس من الأنف، ويشاركه في ذلك صوت الميم، أما بقية أصوات العربية فإن المعتمد والمجرى يكونان في مخرج الصوت ذاته، وقد قال بعض علماء التجويد المتقدمين لذلك: إن النون والميم لهما مخرجان[١].

وتتلخص حالات النون إذا وقعت ساكنة قبل واحد من حروف العربية الثمانية والعشرين في الأحكام الآتية:

١- الإظهار: قبل حروف الحلق الستة: ء هـ ع ح غ خ.
٢- الإدغام: قبل حروف كلمة (يرملون)، بغير غنة مع الراء واللام، وبغنة مع حروف كلمة (ينمو).
٣- الإقلاب: قبل حرف الباء.
٤- الإخفاء: قبل حروف العربية الباقية، وهي خمسة عشر حرفاً.

ولا تحتمل طبيعة هذا البحث التوسع في عرض تلك الأحكام، لا سيما بعد الجهود الكبيرة التي بذلها علماء العربية والتجويد في ذلك، لكن عبارة المؤلفين المعاصرين في وصف الإخفاء تفتقر فيما أحسب إلى الوضوح الذي يستطيع المتعلم من خلاله فهم حقيقة هذه الظاهرة وأداءها بصورة صحيحة، ومن ثم سوف أقتصر هنا على عرض عباراتهم، ومحاولة استجلاء طبيعة ظاهرة إخفاء النون الساكنة وحقيقتها في النطق.

كان سيبويه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أول من فَصَّلَ الحديث عن إخفاء النون الساكنة، وهو يتحدث عما تتعرض له النون من تأثر بالأصوات التي تجاورها، فقال: «وتكون

= ٩٢٦هـ): تحفة نجباء العصر، وناصر الدين الطبلاوي (ت ٩٦٦هـ): مرشدة المشتغلين، ومحمد بن القاسم البقري (ت ١١١١هـ): العمدة السَّنيَّة.

(١) مكي: الكشف ١/ ١٦٤.

النون مع سائر حروف الفم حرفاً خفياً مخرجه من الخياشيم، وذلك أنها من حروف الفم، وأصل الإدغام لحروف الفم لأنها أكثر الحروف، فلما وصلوا إلى أن يكون لها مخرج من غير الفم كان أخف عليهم ألا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة. . .وذلك قولك: من كان، ومن قال، ومن جاء»[1].

وتناول علماء التجويد المتقدمون ظاهرة إخفاء النون الساكنة بالبحث والتحليل، على نحو أكثر تفصيلاً مما فعله سيبويه، فقال أبو عمرو الداني: «وأما إخفاء النون والتنوين فحقُّه أن يؤتى بهما لا مُظْهَريْنِ ولا مُدْغمَين، فيكون مخرجهما من الخياشيم لا غير، ويَبْطُلُ عمل اللسان بهما، ويمتنع التشديد لامتناع قلبهما، وذلك إذا لقيَا حروف اللسان غير الراء واللام، وسترى هذا مبيناً ممثلاً ـ إن شاء الله ـ في موضعه»[2].

وقد بين الداني ذلك في الباب الذي عقده لأحكام النون الساكنة والتنوين فقال: «والحالة الرابعة: أن يكونا مخفيين، وذلك عند باقي حروف المعجم، نحو: أنفسكم، وقوماً فاسقين، وإن كنتم، ولئن قلت، وقوماً قلنا، وما أشبهه، والفاء من حيث اتصلت بالتفشي بالثاء بمنزلة الثاء في الإخفاء، وإنما أُخْفِيَا عندهن لأنهما لم يبعُدا منهن كبعدهما من حروف الحلق، فيجب الإظهار للتراخي، ولم يقربا منهن كقربهما من حروف (لم يرو) فيجب الإدغام للمزاحمة، فأُخفيا فصارا عندهن لا مُظْهَرَين ولا مُدْغَمَين، وغنتهما مع ذلك باقية، ومخرجهما من الخيشوم خاصة، ولا عمل للسان فيهما، والخيشوم خرق الأنف المنجذب إلى داخل الفم، وإخفاؤهما على قدر قربهما وبعدهما، فما قربا منه كانا عنده أخفى مما بَعُدَا منه، والفرق بين المخفى والمدغم، أن المخفى مخفف والمدغم مشدد، والله اعلم»[3].

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٥٤.

(٢) التحديد ١٠٢.

(٣) التحديد ١١٧.

وكان عبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦١هـ) أكثر تدقيقاً وهو يحاول توضيح حقيقة إخفاء النون، فقال: «وأما الإخفاء فحكم يجب عند اجتماع حرفين أخذا حالاً متوسطة... وحقيقته السُّتْرَة، لأن المخرج يستتر بالاتصال. فالتشديد إذن إدخال حرف في حرف، والإظهار هو قطع حرف من حرف، والإخفاء هو اتصال حرف بحرف، فبالتشديد يدخل الحرف ويغيب، وبالقطع يظهر ويبين، وبالاتصال يخفى ويستتر، ولهذه العلة لم يكن الإخفاء إلا في حرفي الغنة النون والميم، لأن الاتصال لا يتأتى إلا فيهما، لأن الصوت إذا جرى في الخيشوم أمكن اتصال حرفين من غير إظهار ولا تشديد، ولذلك ينبغي أن يكون النطق بالمخفى بين التخفيف والتشديد، كما أنه بين الإظهار والإدغام»[١].

وقال القرطبي وهو يورد أمثلة الإخفاء: «ومعنى خفائها ما قدمناه من اتصال النون بمخارج هذه الحروف واستتارها بها وزوالها عن طرف اللسان، وخروج الصوت من الأنف من غير معالجة بالفم...»[٢].

إن اتصال مخرج النون بمخرج الصوت الذي تخفى فيه واستتارها به يعني انتقال معتمد النون في الفم من طرف اللسان واللثة إلى مخرج الصوت الذي يليها، مع بقاء مجرى النفس من الخيشوم الذي يُعَبِّر عنه علماء التجويد بكلمة (الغنة).

إن عبارة علماء التجويد المتأخرين عن الإخفاء غلب عليها التركيز والاختصار، فقال الشيخ زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) مثلاً، وهو يشرح كلام ابن الجزري عن الإخفاء في مقدمته: «والإخفاء لغة الستر واصطلاحاً النطق بحرف بصفة بين الإظهار والإدغام، عارٍ عن التشديد،مع بقاء الغنة في الحرف الأول، ويفارق

---

(١) الموضح ١٥٧.

(٢) الموضح ١٧٠.

الإخفاءُ الإدغامَ، لأنه بين الإظهار والإدغام ، وبأنه إخفاء الحرف عند غيره لا في غيره، بخلاف الإدغام»[1]. وقد استمد الشيخ زكريا ذلك من كتابات المتقدمين عليه[2].

وكان سليمان الجمزوري قد نظم قصيدته (تحفة الأطفال) سنة ١١٩٨هـ، ثم شرحها في كتابه (فتح الأقفال)، وقال في التحفة عن الإخفاء:

والرابع الإخفاءُ عند الفاضلِ
من الحروف واجبٌ للفاضلِ
في خمسةٍ من بعد عَشْرٍ رمزها
في كلْمِ هذا البيت قد ضَمَّنتُها
صفْ ذا ثَنا كَمْ جَادَ شخصٌ قَدْ سَمَا
دُمْ طَيِّباً زِدْ في تُقىً ضَعْ ظالما

وقال في شرحها: «الرابع من أحكام النون الساكنة والتنوين الإخفاء لهما، وهو لغة الستر، واصطلاحاً عبارة عن النطق بحرف بصفة بين الإظهار والإدغام عارٍ عن التشديد مع بقاء الغنة في الحرف الأول، فإخفاؤهما واجب بلا خلاف عند الفاضل، أي الباقي من الحروف. . .»[3].

ونقل أكثر المؤلفين المعاصرين في علم التجويد عبارة الشيخ زكريا الأنصاري وعبارة الجمزوري عن الإخفاء مع إيراد البيت الذي ضمنه الجمزوري حروف الإخفاء في أوائل كلماته[4]. وحاول مؤلف «فن التجويد» أن يغير في

---

(١) الدقائق المحكمة بهامش متن الجزرية ٢٨، وينظر تحفة نجباء العصر ٦٠.

(٢) ينظر: المرادي: المفيد: ١١٩.

(٣) فتح الأقفال ١٦ - ١٧.

(٤) ينظر: ملخص العقد الفريد ٦، والبرهان في تجويد القرآن ٩، والرائد في تجويد القرآن =

تلك العبارة ولكني أحسب أنه لم يزد الامر وضوحاً، إن لم تكن عبارته أكثر غموضاً واضطراباً، وذلك حين قال: «تعريف الإخفاء في اللغة الستر، وفي الاصطلاح وجوب الغن بإخفاء النون الساكنة والتنوين عندما يتلوهما حرف من حروفه الـ ١٥»(١). وقال بعد ذلك: «والإخفاء هنا إذهاب ذات النون والتنوين من اللفظ وإبقاء صفتها التي هي الغنة، فانتقل مخرجهما من اللسان إلى الخيشوم»(٢).

وأحسب أن دقة ظاهرة الإخفاء وعدم وضوح عبارات المؤلفين المتأخرين عنها هو من أسباب تعدد صور أداء هذه الظاهرة لدى القراء المعاصرين التي يمكن تلخيصها في ثلاثة مذاهب(٣):

المذهب الأول: يُخْفي بعض القراء المعاصرين النون بنقل معتمد اللسان إلى مخرج الصوت الذي بعدها، مع بقاء جريان النفس من التجويف الأنفي، فيكون للنون المُخْفَاةِ جَرْسٌ متميز مع كل حرف من حروف الإخفاء الخمسة عشر.

المذهب الثاني: يماثل المذهب الأول إلا في نطق النون المخفاة عند التاء والدال والطاء و(الضاد) وذلك بأن يجافي بعض القراء طرف لسانه قليلاً، فلا يلصقه باللثة عند النطق بالنون المخفاة قبل الأصوات المذكورة.

= ١١، وهداية المستفيد ١١،والفريد في فن التجويد ١/ ٢٩، وخلاصة في علم التجويد ١٦،والأصول في تجويد القرآن الكريم ٣٨، وقواعد التلاوة ٧٢، وعمدة المفيد في عدة المجيد ٣٤، ورسالة في قواعد التلاوة ٥١، وكفاية المستفيد ٣١، ونظرات في علم التجويد ٧٦، ... إلخ.

(١) فن التجويد ٢٣.

(٢) فن التجويد ٢٥.

(٣) ورد تحديد لمذاهب القراء المعاصرين في إخفاء النون في بحث كتبته سنة ١٩٩٤ بعنوان (إخفاء النون: حقيقته الصوتية وطريقة أدائه لدى القراء المعاصرين) وهو في طريقة إلى النشر الآن، إن شاء الله.

المذهب الثالث: يُخفي قليل من القراء النون بأن يضع لسانه بمحاذاة اللثة ولا يلصقه بها، فيظل طرف اللسان شاخصاً نحو اللثة غير منطبق عليها، وذلك مع جميع حروف الإخفاء الخمسة عشر، فتكون النون المخفاة لدى هؤلاء صوتاً واحداً ذا جرس واحد مع كل أصوات الإخفاء.

ولا شك في أن ترجيح المذهب الأول في نطق النون المخفاة أمر ممكن، وتؤيده النصوص السابقة، ولكني حين كتبت هذا البحث كنت أهدف إلى لفت الأنظار إلى قضايا مهمة في كتب علم التجويد المعاصرة حتى تحظى بعناية المشتغلين بهذا العلم، وتتفق كلمتهم بصددها.

وفي الدراسات الصوتية العربية المعاصرة ما يفيد في دراسة ظاهرة إخفاء النون الساكنة، وعلى المشتغلين بعلم التجويد تأليفاً أو تعليماً أن يضموا ذلك إلى جهود علماء العربية وعلماء التجويد المتقدمين حتى تتضح حقيقة الإخفاء للدارس والمتعلم وتتحدد طريقة أدائه، وهذا مثال لمعالجة حديثة لظاهرة إخفاء النون يمكن ان تكون نموذجاً لما يجب أن تتضمنه كتب علم التجويد وهي تعالج هذا الموضوع:

قال مؤلف كتاب «أصوات القرآن، كيف نتعلَّمها ونُعلِّمها) وهو يتحدث عن إخفاء النون: «نأتي إلى الحالة الثانية من حالات الغنة وهي الإخفاء، ولِنُبَسِّطَ لك عملية الإخفاء بغنة نَـلْفِتُ نظرك إلى أن مخرج النون، كما علمت، هو طرف اللسان مع اللثة (فوق أصول الثنايا العليا)، وأن مخرج الميم والنون يخرج عن طريق الأنف، وفيما عداهما من الحروف يخرج عن طريق الفم.

في حالة الإخفاء تخرج النون من مخرج الحرف التالي لها من غير إدغام وتبقى غنتها، كأنك تقول بعبارة أخرى: إن الحرف التالي للنون يخرج من مخرجه الأصلي مع مرور الهواء عن طريق الأنف، فالنون في ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ لم تخرج بوضع طرف اللسان وراء الأسنان العليا [وإنما تخرج بوضع طرف اللسان

بين الثنايا العليا][1] والسفلى، وهو مخرج الذال، والنون في (منكم) خرجت من مخرج الكاف، وفي (إن فاتكم) خرجت من مخرج الفاء، وهكذا.

وقد يكون مخرج الحرف الذ أخفيت فيه النون مجانساً أو مقارباً لمخرج النون كالتاء والدال والطاء فيتحد حينئذ المخرجان، نحو: أنتم، انْطَلِقُوا»[2].

الخاتمة

١- نَاقَشَ هذا البحث عدداً من القضايا المتعلقة بكتب علم التجويد وقواعد التلاوة المؤلفة في القرن الهجري الماضي وفي هذا القرن، وكشفت تلك المناقشة عن أمور يلزم إعادة النظر فيها ومراعاتها في الكتب المؤلفة في هذا العلم منها: تحديد مخرج الضاد، وتعريف الصوت المجهور والمهموس، وتوضيح حالة إخفاء النون الساكنة.

٢- هناك قضايا أخرى تحتمل المناقشة في تلك الكتب، في المنهج والمادة، لا تسمح طبيعة هذا البحث بالخوض فيها ومناقشتها، إذ الهدف من هذا البحث تنبيه المشتغلين بعلم التجويد في زماننا والمؤلفين لكتبه ولفت أنظارهم إلى حقيقة مهمة تتلخص في أن الكتب التي يتعلم فيها الناس علم التجويد في زماننا ليست في أحسن صورة، وأن على مَنْ يتصدى للتأليف في هذا العلم أن يُلِمَّ إلماماً كافياً بحقائق هذا العلم وأن يدرس كتبه القديمة ويطلع على كتب علم الأصوات اللغوية الحديثة، ويفيد منها في الكشف عن دقائق النطق العربي.

---

(١) ما بين المعقوفين زدته على النص، لأن المعنى لا يستقيم بدونه.

(٢) ينظر: يوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن ١١٢ - ١١٣، وينظر مثال آخر لمعالجة حديثة لظاهرة إخفاء النون في كتاب: علم التجويد دراسة صوتية ميسرة ١٠٨ - ١٢٠.

٣- إن العلوم تتقدم، ووسائلها تتطور، والمعارف تتسع، وطرق حيازتها تتنوع، وصار التخصص سمة العلم في هذا العصر، فيجب على المشتغلين بعلم التجويد والمؤلفين لكتبه في زماننا أن يكونوا ممن حازوا قدراً كافياً من المعرفة بكتب علم التجويد الأولى، وأن يكونوا على معرفة مناسبة بعلم الأصوات اللغوية، الذي تقدم كثيراً في عصرنا، وفيه مادة كثيرة مفيدة في فهم دقائق علم التجويد والكشف عن أسرار النطق العربي، ويجب على ضِعاف طلبة العلم أن يتحولوا إلى شيء آخر سوى التأليف في هذا العلم.

٤- إن ضبط قراءة القرآن والمحافظة عليها نقية خالصة من شوائب اللحن ومن مظاهر التغير من واجب علماء الأمة وقرائها، ولاتكفي في ذلك جهود الأفراد منعزلة، وإنما يلزم أن يكون الجهد جماعياً يسهم فيه المتخصصون بعلم التجويد وقراءة القرآن وعلم الأصوات، من خلال ندوات أو حلقات بحثية، أو مؤتمرات علمية، أو نشرات دورية، تناقش قضايا هذا العلم وتبحث في شؤونه. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

(٣)

إخفاء النون حقيقته الصوتية وطريقة أدائه لدى القراء المعاصرين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد، فقد قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً فَلْيُدَقِّقْ فيه، لئلا يضيعَ دقيقُ العلم».

ومن دقيق علم التجويد (وعلم الأصوات العربي) ظاهرة إخفاء النون التي يعالجها علماء العربية وعلماء التجويد ضمن أحكام النون الساكنة والتنوين، وقد كتبوا في بيانها فصولاً كاملة، وخَصَّها بعضهم برسائل مستقلة. وكان أكثرهم يُعَرِّفُ الإخفاء بأنه حالة بين الإظهار والإدغام. ويكتفون بالمشافهة في ضبط النطق بتلك الحالة، وقليل منهم مَنْ حاول وصفها وبيان الوضع الذي تتخذه أعضاء آلة النطق معها.

والمُصْغِي إلى قُرَّاء القرآن المعاصرين والمتأمل في طريقة أدائهم لظاهرة إخفاء النون يلاحظ أنهم ينقسمون إلى قسمين في ذلك، فبعضهم ينقل مُعْتَمَدَ النون المُخْفَاة في الفم إلى مخرج الصوت الذي يأتي بعدها، وبعضهم يَدَعُ طَرَفَ لسانه في مخرج النون لكنه يُجافي بينه وبين اللِّثَة شيئاً قليلاً.

والهدف من كتابة هذا البحث هو التدقيق في نصوص علماء التجويد وعلماء العربية في وصف ظاهرة إخفاء النون، وتطبيق ذلك على أداء مجيدي قراءة القرآن الكريم المعاصرين، ثم موازنته بحقائق علم الأصوات اللغوية المعاصر، للانتهاء من ذلك إلى وصف دقيق لإخفاء النون وبيان الوضع الذي تكون عليه آلة

النطق عند النطق بالنون المخفاة مع كل صوت من الأصوات التي تخفى عندها، وإعطاء رأي في مذهب الفريقين من أهل الأداء المعاصرين.

ويمكن عرض الموضوع ومناقشته من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف موجز بصوت النون وأحكامه:

(١) مخرج النون وصفاته الصوتية.

(٢) أحكام النون الساكنة في التركيب.

المبحث الثاني: إخفاء النون في التراث الصوتي العربي:

(١) إخفاء النون في نصوص الكتب القديمة.

(٢) إخفاء النون في كتب علم الأصوات اللغوية.

(٣) إخفاء النون في أداء القراء المعاصرين

المبحث الثالث: إخفاء النون، مناقشة واستنتاج:

(١) حقيقة إخفاء النون الصوتية.

(٢) درجات إخفاء النون.

(٣) عدد أصوات النون المخفاة.

(٤) إخفاء النون والكتابة الصوتية.

وهذا البحث لا يهدف إلى تقديم رأي نهائي في ظاهرة إخفاء النون بقدر ما يهدف إلى تنبيه المهتمين بالأداء القرآني إلى ما يبدو من تعدد صور إخفاء النون على ألسنة القراء المعاصرين، وإلى عرض المعلومات المتصلة بالموضوع، ليكون ذلك حافزاً للنظر في القضية لتوحيد النطق بألفاظ القرآن الكريم والمحافظة على القراءة بريئةً من شوائب اللحن الخفي، نقيةً من التغيير والتبديل، إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول

تعريف موجز بصوت النون وأحكامه

أولاً: مخرج النون وصفاته الصوتية:

تتميز آلة النطق لدى الإنسان بالقدرة على إصدار عدد كبير من الأصوات التي تتشكل منها اللغات البشرية. لكن هذه الأصوات لا تحدث إلا بعاملين رئيسيين، الأول: النَّفس المندفع من الرئتين، والثاني: العارض الذي يعترض النَّـفَس في الحنجرة أو الحلق أو الفم أو الشفتين، إضافة إلى عوامل ثانوية أخرى تكسب الصوت جَرْسَهُ المميز له.

ومعظم الأصوات اللغوية يندفع النَّفس بعد تكونها في مخارجها خلال الفم والشفتين إلا صوتين رئيسيين اثنين هما: النون والميم. حيث يقوم العارض معهما في الفم أو الشفتين، لكن النَّفَس يندفع إلى الخارج خلال التجويف الأنفي عبر فتحة المنخرين.

وصوت الميم يتكوَّنُ بحبس الهواء حبساً تاماً في الفم بأن تنطبق الشفتان انطباقاً كاملاً، وينخفض الحنك اللين (اللهاة وما اتصل بها) فيتمكن الهواء الخارج من الرئتين من النفوذ عن طريق الأنف، وفي أثناء مرور الهواء بالحنجرة عند النطق بالميم يهتز الوتران الصوتيان فتحدث من ذلك النغمة الصوتية التي تسمى بالجهر، ويوصف الميم لذلك بأنه صوت مجهور[١].

ويتكوّن صوت النون بأن يُوقَفَ الهواء وقفاً تاماً بأن يعتمد طرف اللسان على اللثة، وينخفضَ الحنك اللين فيتمكن الهواء الخارج من الرئتين من أن ينفذ

---

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٤٥، ومحمود السعران: علم اللغة ص١٨٤.

عن طريق الأنف، ويهتز الوتران عند النطق بالنون أيضاً ومن ثم فإنه يوصف بأنه صوت مجهور[1].

وكان علماء العربية الأوائل وعلماء التجويد مدركين لطبيعة الأصوات الأنفية، عارفين خصائصها وصفاتها، والذي يهمنا الحديث عنه هنا هو صوت النون، لأن البحث معقود لبيان حكمٍ من أحكامه الصوتية حين ينطق به ساكناً في التركيب.

قال سيبويه في تحديد مخرج النون: «ومن طرف اللسان بينه وبين ما فُوَيْقَ الثنايا مخرج النون»[2]. لكن سيبويه ومن تابعه يتحدثون عن مخرج آخر للنون حيث قالوا: ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة»[3]. وقال السيرافي إنهم يريدون بالنون الخفيفة النون الخفية في نحو مِنْك وعَنْكَ[4]. وقال أبو حيان: «مخرج الخيشوم وهو للنون الساكنة الخفيفة المخفاة»[5].

ولا تناقض في كلام سيبويه وعلماء العربية في تحديد مخرجين للنون، ولكن كلامهم قد يؤدي إلى اللبس، على الرغم من أنهم كانوا مدركين لحقيقة الأمر، فهذا سيبويه يقول: «إن النون والميم قد يُعْتَمَدُ لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة، والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيت ذلك قد أخل بهما»[6]. وقال في موضع آخر: «ومنها حرف شديد يجري معه الصوت، لأن ذلك الصوت غنة من الأنف، فإنما تخرجه من أنفك واللسان

---

(١) المصدران السابقان ص٦٧، و ص١٨٥.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٣، وابن جني: سر صناعة الإعراب ١/٥٢.

(٣) سيبويه: الكتاب ٤/٤٣٤، والمبرد: المقتضب ١/١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) شرح كتاب سيبويه ٦/٤٤٣، والقرطبي: الموضح ص٨١.

(٥) ارتشاف الضرب ١/٧.

(٦) الكتاب ٤/٤٣٤.

لازم لموضع الحرف، لأنك لو أمسكت بأنفك لم يَجْرِ معه الصوت، وهو النون، وكذلك الميم»[١].

وكانت عبارة بعض علماء التجويد أكثر وضوحاً، فقال الداني: «والنون من طرف اللسان بينَهُ وبين مَا فُوَيْقَ الثنايا العليا، ويتصل بالخياشيم، وهي المُبَيَّنَةُ والمدغمة... والمخرج السادس عشر مخرج التنوين، وهو يخرج من الخياشيم خالصاً، كذا مخرج النون المخفاة عند حروف الفم نحو مِنْك وعَنْكَ من الخياشيم، فأما النون المتحركة فمخرجها من الفم مع صويت من الأنف»[٢].

والحديث عن مخرجين للنون يحتاج إلى وقفة وتأمل، حتى لا يكون ذلك سبباً في حصول غموض أو لبس في فهم أحكامها الصوتية، لاسيما حالة الإخفاء التي نحن بصدد الحديث عنها.

إن القول بوجود مخرجين للنون يستند إلى ما ذكره سيبويه عن مخرج النون[٣]، ومخرج النون الخفية[٤]، فقال العلماء من بعده إن للنون مخرجين، على نحو قول المبرد: «وأما النون فإن لها مخرجين، كما وصفت لك: مخرج الساكنة من الخياشيم محضاً، لا يشركها في ذلك الموضع شيء بكماله، ولكن النون المتحركة مخرجها مما يلي مخرج الراء واللام»[٥]. وقال مكي (ت ٤٣٧هـ): «إن النون الساكنة صار لها مخرجان؛ مخرجٌ لها، وهو المخرج التاسع، ومخرج لِغُنَّتِها وهو المخرج السادس عشر على مذهب سيبويه»[٦].

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٥.

(٢) التحديد ص١٠٥ - ١٠٦.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣٤.

(٥) المقتضب ١/ ٢١٥.

(٦) الكشف ١/ ١٦٦.

وقال الأوزاعي: «فللنون مخرجان أحدهما من الفم والآخر من الخياشيم»[1].

ولا تخلو العبارات السابقة من إشكال أو تناقض لا سيما قول المبرد: «مخرج الساكنة من الخيشوم» وقول مكي: «إن النون الساكنة صار لها مخرجان»، وقد أحسن المرادي (ت ٧٤٩هـ) العبارة عن هذه القضية، مزيلاً اللبس في عبارات السابقين له حيث قال: «والتحقيق أن النون لها مخرجان أحدهما من الفم، والثاني من الخيشوم، فالمتحركة والساكنة المظهرة من الفم، والساكنة المخفاة من الخيشوم ولا نصيب لها في الفم. وهو مذهب سيبويه والأخفش وأصحابهما، قال الأخفش (ت ٢١٥هـ) في تفسير النون كيف صار لها مخرجان: وذلك أن النون الخفيفة لا مخرج لها من الفم، إنما هي من الخياشيم، نحو عَنْكَ، ومِنْكَ، ونون عَنْ خالد من الفم»[2].

إن القول بوجود مخرجين للنون لا يعني أنهما مخرجان منفصلان أحدهما عن الآخر، فمخرج المتحركة والساكنة المظهرة يكون من الفم، وذلك بأن يستند طرف اللسان على اللثة، ولكن في الوقت ذاته يجري النَّفَس من الخيشوم، أما مخرج النون الساكنة المخفاة فيكون بجريان النفس من الخيشوم ويزول معتمد طرف اللسان من اللثة. وكان رضي الدين الاستراباذي (ت ٦٨٦هـ) قد وَضَّحَ قضية المخرجين للنون بالطريقة ذاتها، حيث قال: «والحق أن يقال: إن للنون مخرجين: أحدهما في الفم والآخر في الخيشوم، إذ لابد فيها من الغنة... فإن حصل للنون الساكنة مع الحروف التي بعدها، من غير حروف الحلق، قُرْبُ مخرج كاللام والراء... وَجَبَ إدغام النون في تلك الحروف... وإن لم يكن هناك قرب لا في المخرج ولا في الصفة أُخْفِيَ النون بقلة الاعتماد، وذلك بأن يقتصر على أحد مخرجيه، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا الخيشوم، وذلك لأن

---

(١) الإيضاح ٧٣و.

(٢) المفيد ص٤٥.

الاعتماد فيها على مخرجها من الفم يستلزم الاعتماد على الخيشوم بخلاف العكس، فيقتصر على مخرج الخيشوم فيحصل النون الخفية. . .

«أما مع الحلقية فلا تخفىٰ. . . وكذلك الساكنة الموقوف عليها تخرجان من المخرجين. . . وكذلك النون المتحركة قبل أي حرف كانت تخرج من المخرجين»[١]

ولخص السمرقندي (ت نحو ٧٨٠هـ) هذه القضية بقوله: «النون لها مخرجان: نطق اللسان وصوت يخرج من الخياشيم»[٢]. وهو ما يمكن أن نسميه معتمد اللسان في الفم. ومجرى النَّـفَس في الخيشوم.

وأطلق بعض علماء التجويد على النون الخفية (أو المخفاة) مصطلح الغنة[٣]، ويعرِّفُون الغنة بأنها (صوت يخرج من الخيشوم)[٤]، ولا تختص الغنة في واقع الأمر بالنون المخفاة، بل هي مصاحبة للأصوات الأنفية، وقديما قال الجعبري (ت ٧٣٢هـ): «الغنة صفة النون، ولو تنويناً، والميم، تحركتا أم سكنتا، ظاهرتين أو مخفاتين أو مدغمتين»[٥].

وخلاصة القول إن صوت النون يتميز، هو والميم، عن أصوات العربية الأخرى في طريقة إنتاجه، فصوت النون يتكون بقيام عارض في الفم، باعتماد طرف اللسان على ما فويق الثنايا (أي على اللثة)، وجَرْيِ النَّفَس من الخيشوم (أي الأنف)، فللنون معتمد في الفم ومَجْرَى من الأنف، بينما تجد أصوات العربية الأخرى يُعْتَمَدُ لها في مخارجها ويجري النَّـفَـس من المخرج، فيتحد فيها المعتمد والمجرى.

---

(١) شرح الشافية ٣/ ٢٧١ - ٢٧٣.

(٢) روح المريد ١٣٤و.

(٣) مكي: الرعاية ص٢٤١.

(٤) مكي: الكشف ١/ ١٦٤، والمرعشي: جهد المقل ص١٣٥.

(٥) نقلا عن المرعشي: جهد المقل ص١٣٥.

ثانيـاً: أحكام النون الساكنة في التركيب:

النون الساكنة من أكثر الأصوات تأثراً بغيرها من الأصوات التي تجاورها في الكلام، ومن ثَمَّ تعددت حالاتها النطقية، وقد اعتنى ببيانها علماء العربية والتجويد عناية كبيرة، فخصص لها كثير من علماء التجويد باباً مستقلاً في كتبهم[١]، وأفرد لها عدد منهم رسائل مستقلة[٢]. ولا يكاد كتاب من كتب علم التجويد يخلو من ذكر أحكامها. وليس من الضروري عرض تلك الأحكام مفصلة هاهنا[٣]. ولذا سوف أكتفي بذكرها مجملة ليتضح موقع الإخفاء منها.

يذهب أكثر علماء العربية وعلماء التجويد إلى حصر أحكام النون الساكنة في أربعة أحكام هي[٤]:

١- الإظهار: وهو أن يكون نطق النون باعتماد طرف اللسان على اللثة وجريان النَّـفَس من الخيشوم، على نحو ما تنطق النون المتحركة، وذلك قبل ما يعرف بأصوات الحلق الستة: ء هـ ع ح غ خ.

٢- الإدغام: وهو أن تقلب النون إلى مثل الصوت الكائن بعدها وتدغم فيه، وذلك إذا وقعت قبل ستة أصوات مجموعة في حروف كلمة (يرملون) ويكون الإدغام مصحوباً بغنة مع الميم والنون والواو والياء، وبدونها مع اللام والراء.

٣- القلب، وهو أن تقلب النون الساكنة ميماً إذا وقعت قبل الباء.

---

(١) مثل: مكي: الرعاية ص٢٣٦، والداني: التحديد ص١١٣، وابن الجزري: التمهيد ص١٦٥.

(٢) مثل: نزهة المشتغلين لابن القاصح، وتحفة نجباء العصر لزكريا الأنصاري، ومرشدة المشتغلين للطبلاوي، والعمدة السنية للبقري (ينظر: كتابي: الدراسات الصوتية ص٣٤).

(٣) من أراد الوقوف عليها مفصلة فعليه بكتابي: الدراسات الصوتية ص٤٢٦-٤٥٨.

(٤) ينظر: الداني: التحديد ص١١٣، وابن الباذش: الإقناع ١/٢٤٦ وابن يعيش: شرح المفصل ١٠/١٤٤، وأبو حيان: ارتشاف الضرب ١/٣٣٨.

٤- الإخفاء، وذلك عند الأصوات الخمسة عشر الباقية من أصوات العربية الثمانية والعشرين، وسوف نوضح معنى الإخفاء في المبحث الآتي، إن شاء الله.

وزاد بعض علماء التجويد في عدد أحكام النون الساكنة فجعلها ستة، وذلك بجعل الإدغام ثلاثة أنواع[1]. وجعلها بعضهم خمسة[2]، ونقص بعضهم فيها فجعلها ثلاثة[3]. وقد قال البقري (ت ١١١١هـ) في ذلك: «إن بعض العلماء جعل للنون الساكنة أحكاماً خمسة، وبعضهم جعلها أربعة، وبعضهم جعلها ثلاثة، والأمر في ذلك سهل: فأما من جعلها خمسة فقال: هي إدغام بغنة، وإدغام بلا غنة، وإظهار، وإقلاب، وإخفاء. ومن جعلها أربعة أسقط الإدغام الذي بلا غنة وأبهم الإدغام، فشمل الشيئين. ومن جعلها ثلاثة فعل كذلك وأسقط الإقلاب أدخله في الإخفاء...»[4].

المبحث الثاني
إخفاء النون في التراث الصوتي العربي

أولاً ـ إخفاء النون في نصوص الكتب القديمة:

مصطلح الإخفاء من المصطلحات الصوتية العربية القديمة استخدمه سيبويه ومَنْ جاء بعده من علماء العربية وعلماء القراءة والتجويد، وقد استعملوه للدلالة على إخفاء النون، وإخفاء الحركة أيضاً[5]، قال الداني: «والمُخْفَى شيئان:

---

(١) مكي: الرعاية ص٢٣٦، والكشف ١/ ١٦١.

(٢) ابن الجزري: التمهيد ص٥٢.

(٣) زكريا الأنصاري: تحفة نجباء العصر ص٢.

(٤) غنية الطالبين ص٤٧.

(٥) ينظر: سيبويه: الكتاب ٤/ ٤٣٨ و٤٥٤.

حرف وحركة، فإخفاء الحرف نقصان صوته، وإخفاء الحركة نقصان تمطيطها»[1].

وقال في موضع آخر: «وأما المخفىٰ فعلى نوعين: إخفاء الحركات، وإخفاء النون والتنوين»[2]. وسوف نتتبع ما قاله العلماء عن إخفاء النون، أما إخفاء الحركة فلا يدخل في موضوع هذا البحث.

١- قال سيبويه (ت ١٨٠هـ): «وتكون النون مع سائر حروف الفم حرفاً خفياً مخرجه من الخياشيم، وذلك أنها من حروف الفم، وأصل الإدغام لحروف الفم، لأنها أكثر الحروف، فلما وصلوا إلى أن يكون لها مخرج من غير الفم كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة، وكان العلم بها أنها نون من ذلك الموضع كالعلم بها وهي من الفم، لأنه ليس حرف يخرج من ذلك الموضع غيرها، فٱختاروا الخفة إذ لم يكن لبس، وكان أصل الإدغام وكثرة الحروف للفم، وذلك قولك: مَن كان، ومَن قال، ومَن جاء»[3].

٢- وقال أبو الحسن السعيدي (ت ٤١٠هـ): وٱعلم أن النون الساكنة إذا لقيت حرفاً من حروف الفم (نفرت) صوتاً في الخياشيم، فلا يكون لها حظ في الفم، ألا ترىٰ أنك إذا قلت: مِنك وعَنك ومَن ضربك ومَن صلح ومَن شرب ومَن قرأ وما أشبهها، لا يتحرك اللسان بها، وتُسَمَّىٰ حينئذ النون الخفيفة»[4].

٣- وذكر مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ): أن النون الساكنة مخرجها من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا ومعها غنة تخرج من الخياشيم، ثم قال: «فإذا خفيت لأجل ما بعدها زال مع الخفاء ما كان يخرج من طرف اللسان منها، وبقي ما كان يخرج من الخياشيم ظاهراً. وعلة إخفاء النون

---

(١) التحديد ص٩٨.

(٢) التحديد ص١٠٢.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٥٤، وينظر: ابن السراج: الأصول في النحو ٣/ ٤١٧.

(٤) اختلاف القراء في اللام والنون ٦٠ظ.

والتنوين عنده هذه الحروف أن النون الساكنة قد صار لها مخرجان: مخرج لها، وهو المخرج التاسع، ومخرج لغنتها، وهو المخرج السادس عشر على مذهب سيبويه، فاتسعت بذلك في المخرج، بخلاف سائر الحروف، فأحاطت (باتساعها) بذلك في المخرج، بحروف الفم، فشاركتها بالإحاطة بها، فخفيت عندها، وكان ذلك أخف، لأنهم لو استعملوها مظهرة لعمل اللسان فيها من مخرجها، ومن مخرج غنتها، فكان خفاؤها أيسر ليعمل اللسان مرة واحدة...»[1].

٤- وقال أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ): «وأما إخفاء النون والتنوين فحقه أن يُؤْتَىٰ بهما ولا مُظْهرين ولا مُدْغمين، فيكون مخرجهما من الخياشيم لا غير، ويَبْطُلُ عمل اللسان بهما، ويمتنعُ التشديد لامتناع قلبهما وذلك إذا لقيا حروف اللسان غير الراء واللام»[2].

٥- وقال عبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦١هـ): «وأما الإخفاء فحكم يجب عند اجتماع حرفين أَخَذا حالاً متوسطة بين المباعدة في ذينك[3] والمقاربة، وسبق أحدهما بالسكون، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ ۝٧٥﴾ [مريم]، ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران]، و﴿وَلَمَن صَبَرَ ۝٤٣﴾ [الشورى]، وما أشبه ذلك. وحقيقته السترة، لأن المخرج يستتر بالاتصال.

فالتشديد إذن هو إدخال حرف في حرف، والإظهار هو قطع حرف عن حرف، والإخفاء هو اتصال حرف بحرف، فبالتشديد يدخل الحرف ويغيب، وبالقطع يظهر ويبين، وبالاتصال يخفى ويستتر، ولهذه العلة لم يكن الإخفاء إلا في حرفي الغنة: النون والميم، لأن الاتصال لا يتأتى إلا فيهما، لأن الصوت إذا

---

(١) الكشف ١/١٦٦، والرعاية ص٢٤١.

(٢) التحديد ١٠٢ وتنظر ص١١٧.

(٣) يعني المخرج والصفة.

جرى في الخيشوم أمكن اتصال الحرفين من غير إظهار ولا تشديد، ولذلك ينبغي أن يكون النطق بالمخفىٰ بين التخفيف وبين التشديد، كما أنه بين الإظهار وبين الإدغام»[1].

وقال عبد الوهاب القرطبي في مكان آخر: «ومعنى خفائها ما قدمنا من اتصال النون بمخارج هذه الحروف واستتارها بها وزوالها عن طرف اللسان، وخروج الصوت من الأنف، من غير معالجة بالفم...»[2].

٦- ٱكتفىٰ أكثر المتأخرين من علماء التجويد بالقول: إن الإخفاء حالة بين الإدغام والإظهار، عارٍ من التشديد، مع بقاء الغنة في الحرف الأول[3].

وقبل أن ننقل ما ورد في كتب علم الأصوات اللغوية المعاصرة عن إخفاء النون يلزم أن نستخلص من النصوص السابقة ما يوضح الوضع الذي يتخذه اللسان وآلة النطق عند إخفاء النون، وأحسب أن ذلك يتحقق بالنظر في العبارات الآتية الواردة في تلك النصوص:

سيبويه: كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة.

السعيدي: لا يتحرك اللسان بها.

مكي: زال مع الخفاء ما كان يخرج من طرف اللسان منها، وبقي ما يخرج من الخياشيم.

الداني: يبطل عمل اللسان بهما.

عبد الوهاب القرطبي: معنى خفائها اتصال النون بمخارج هذه الحروف واستتارها بها، وزوالها عن طرف اللسان، وخروج الصوت من الأنف.

---

(١) الموضح ص١٥٧ - ١٥٨.

(٢) الموضح ١٧٠.

(٣) المرادي: المفيد ص١١٩، وزكريا الأنصاري: تحفة نجباء العصر ص٦٠، والدمياطي: إتحاف فضلاء البشر ص٣٢.

وهذه العبارات يكمل بعضها بعضاً في تحديد شكل آلة النطق عند إخفاء النون وهو ما يمكن أن نلخصه في ملاحظة أن نطق النون يتكون من عملين هما: اعتماد طرف اللسان على ما فويق الثنايا (من اللثة)، وجريان النَّفَس من الخياشيم، والذي يحدث عند إخفاء النون هي زوال أو بطلان عمل طرف اللسان وانتقال مكان الاعتماد إلى مخرج الصوت الذي تخفى عنده، فيتحرك اللسان حركة واحدة بدلاً من حركتين، ففي مثل قولك (مَنْ كان) يعمل أقصى اللسان عند النطق بالنون من موضع الكاف، بدلاً من عمل طرف اللسان أولاً، ثم عمل أقصى اللسان، وهذا هو جانب التخفيف الذي يتحقق من الإخفاء الذي ذكره سيبويه بقوله: «كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة».

ونحن حين نقرر هذه الحقيقة إنما نستنطق عبارات علماء العربية والتجويد السابقة، محاولين صياغتها على نحو نحرص أن يكون أكثر تحديداً ووضوحاً، حتى يمكن في النهاية أن نقدم تعريفاً محدداً للإخفاء ووصفاً واضحاً لحالة آلة النطق معه.

ثانيــاً ـ إخفاء النون في كتب علم الأصوات اللغوية:

أشار عدد من علماء الأصوات العرب المعاصرين إلى ظاهرة إخفاء النون، لكن إشارتهم كانت موجزة غالباً وتفتقر إلى الوضوح في بعض الأحيان، وهذا نص ما قالوه:

١- قال الدكتور إبراهيم أنيس: «الدرجة التي تلي إظهار النون هي ما اصطلح القدماء على تسميته بالإخفاء، ويكون هذا مع خمسة عشر صوتاً عند جمهور القراء، هي: القاف، الكاف، . . . الخ، وليس ما سَمَّوْهُ بالإخفاء إلا محاولة الإبقاء على النون وذلك بإطالتها مما أدى إلى ما نُسَمِّيه بالغنة. هذا إلى أننا نلحظ مع ما يسمونه بالإخفاء ميل النون إلى مخرج الصوت المجاور لها»[١].

---

(١) الأصوات اللغوية ص٧١ - ٧٢.

٢- وقال الدكتور أحمد مختار عمر، وهو يتحدث عن النون الساكنة المخفاة:
«فهي تطول وتميل إلى مخرج الصوت الذي بعدها»[١].

٣- وقال الدكتور عبد الصبور شاهين في تعليقاته على كتاب «علم الأصوات» لمالمبرج: «إخفاء النون الساكنة، بمعنىٰ نطقها أنفية مع وضع اللسان موضع الحرف التالي لها بشكل متزامن»[٢].

إن النصين الأولين يشتركان في ذكر صفتين للنون المخفاة هما أنها تطول، وأنها تميل إلى مخرج الصوت الذي بعدها، وهذا الوصف تعوزه الدقة في وصفها بالطول، والوضوح في وصفها بالميل إلى مخرج الصوت الذي بعده. وقد جاء النص الثالث دقيقاً وواضحاً على الرغم من اختصاره الشديد الذي لا يوضح كل الجوانب المتعلقة بالنون المخفاة.

ثالثاً ـ إخفاء النون في أداء القراء المعاصرين:

إن وصف طريقة إخفاء النون في أداء القراء المعاصرين في هذا البحث يعتمد على الملاحظة الشخصية وذلك بالإنصات إلى عدد من تسجيلات القراء المعاصرين وإلى ما يذاع من القرآن الكريم من الإذاعات العربية، مع مناقشة الموضوع مع عدد من القراء، وهذه الطريقة قد لا تكون كافية في توضيح كل دقائق الظاهرة، لكنها هي الطريقة المتاحة الآن، وعسى أن تسنح فرصة أخرى يمكن فيها استخدام أجهزة مختبر الصوت في دراسة الموضوع.

إن الملاحظة الشخصية والاستماع المتكرر لأداء القراء المعاصرين تشير إلى أنهم يذهبون مذاهب متعددة في إخفاء النون يمكن أن نحصرها في ثلاثة هي[٣]:

---

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣٣٤.
(٢) علم الأصوات ص١٢٤.
(٣) حاولت في البدء تصنيف القراء الذين أنصتُ إلى قراءتهم حسب المذاهب الثلاثة، ولكني =

المذهب الأول: نقلُ مُعْتَمَدِ اللسان عند النطق بالنون المخفاة إلى مخرج الصوت الذي بعدها مع بقاء جريان النَّـفَـس من التجويف الأنفي، ويأخذ اللسان عند نقل معتمده الشكل الذي يتخذه اللسان عند النطق بالصوت الواقع بعد النون، سواء أقرب ذلك الصوت من النون كما في نحو (كُنْتُمْ) أم بَعُدَ كما في (من كان)، وسواء أكان الصوت شديداً (انفجارياً) كما في المثالين أم كان رخواً كما في (مَنْ شاء) و (مَنْ ذا) ونحو ذلك.

المذهب الثاني: يماثل المذهب الأول إلا في نطق النون المخفاة عند التاء والدال والطاء (والضاد)، فإن من يذهب هذا المذهب من القراء يُجَافي طرف لسانه قليلاً فلا يلصقه باللثة عند النطق بالنون المخفاة قبل الأصوات المذكورة، وذلك في مثل (كنتم) و (من دون) و (من طيبات)، و (بمَنْ ضل).

المذهب الثالث: هو أن يُجَافِيَ القارئ طرف لسانه قليلاً فلا يلصقه باللثة عند النطق بالنون المخفاة مع أصوات الإخفاء الخمسة عشر كلها، فيظل طرف اللسان شاخصاً نحو اللثة غير منطبق عليها، سواء أكان الصوت الذي تخفىٰ عنده النون من طرف اللسان أو وسطه أو أقصاه، ثم ينقل القارئ معتمد اللسان بعد انقضاء النطق بالنون المخفاة إلى مخرج الصوت الذي تخفى عنده، فأنت تجد بعض القراء حين ينطق نحو (مَن قال) و (مَنْ جاء) و (مَنْ ذا) ينطق النون بأن يضع طرف لسانه تجاه اللثة غير منطبق عليها ويدع النَّـفَس يجري من الخيشوم، ثم ينتقل إلى مخرج الصوت الذي بعد النون.

إن المذهب الثالث مُؤَدَّاهُ أن النون المخفاة تعد من الناحية الصوتية صوتاً واحداً ينطق بطريقة واحدة، وفي المذهب الأول تتعدد صور النون المخفاة،

= عدلت عن ذلك فيما بعد، لأني لاحظت أن عدداً منهم لا يكاد يستقيم على مذهب واحد في قراءته ولأنني لم أعرف عن كثير منهم إلا أسماءهم، ولأن المقصود طريقة النطق، وليس الأشخاص.

وتكون بعدد الأصوات التي تخفىٰ عندها، أي أننا يمكن أن نلحظ خمسة عشر شكلاً من أشكال نطق النون المخفاة، تأخذ أعضاء آلة النطق مع كل شكل وضعاً معيناً يختلف عن وضعها مع الأشكال الأخرى، أو على الأقل يكون لها شكل واحد مع الأصوات التي تخرج من مخرج واحد من أصوات الإخفاء التي تقع بعدها. أما المذهب الثاني فهو أقرب إلى المذهب الأول من هذه الناحية، وسوف نناقش هذه المذاهب في المبحث الآتي ونحاول أن نحدد الراجح منها.

المبحث الثالث

إخفاء النون، مناقشة واستنتاج

أولاً ـ حقيقة إخفاء النون الصوتية:

إن المتأمل في أقوال علماء التجويد المتقدمين وعلماء الأصوات المعاصرين، والمدقق في طريقة نطق أكثر القراء والمجودين في زماننا يترجح لديه أن ما يحدث في إخفاء النون هو انتقال الموضع الذي يُعْتَمَدُ لها فيه من الفم، وهو طرف اللسان مع أصول الثنايا أو اللثة، إلى مخرج الصوت الذي تخفىٰ عنده من أصوات الإخفاء الخمسة عشر، ويبقى الحنك اللين منخفضاً في أثناء النطق بالنون المُخْفاة، أي أن النَّـفَس يظل جارياً من الأنف فيحدث حينئذ ما يسمى بالغنة، وبعد أن تستوفي النون المخفاة حظها من عملية التصويت يتوقف جريان النَّـفَس من الأنف لنطق الصوت الذي بعد النون، من غير أن يتغير الشكل الذي اتخذته آلة النطق اللهم إلا ارتفاع الحنك اللين ليسد مجرى النَّـفَس إلى الأنف.

ويمكن أن نلخص ذلك بالقول إن إخفاء النون هو انتقال معتمد اللسان في الفم إلى مخرج الصوت الذي بعدها، مع بقاء جري النَّـفَس من الأنف في أثناء النطق بها.

ويبدو أن الشكل الذي تتخذه آلة النطق عند إخفاء النون هو ذات الشكل

الذي تكون عليه عند نطق الصوت الذي بعد النون المخفاة، فحين ننطق (مَنْ كان) فإن أقصى اللسان يستند إلى أقصى الحنك عند النطق بالنون، تماماً كما يحدث عند نطق الكاف، وحين ننطق النون في (مَنْ ذا) فإننا نضع طرف اللسان في موضع نطق الذال وكذا في نطق (مَنْ شاء) يتصعد وسط اللسان نحو وسط الحنك من غير أن يسد مجرى النفس، تماماً كما يحدث عند نطق الشين، وكذلك يمكن القول في نطق (مِن دون)، وفي نطق (كنتم) أنك تضع لسانك للنون على نحو ما تفعل في نطق الدال والتاء، أي أنك تلصق طرف لسانك على اللثة أو أُصول الثنايا.

وبناء على هذا الفهم لنطق النون المخفاة فإنني أرجح أن المذهب الراجح في نطق هذه النون هو المذهب الأول من المذاهب الثلاثة التي ذكرناها في الفقرة (ثالثاً) من المبحث الثاني، وذلك لثلاثة أسباب هي:

١- أن أكثر القراء المعاصرين الذين أنصتُّ إلى قراءتهم يعتمدونه ويلتزمون به في نطقهم.

٢- موافقته لأقوال العلماء التي نقلناها في وصفهم إخفاء النون.

٣- ملاءمته لقوانين علم الأصوات اللغوية التي تنحو نحو السهولة في النطق والاقتصاد في المجهود في أكثر الأحيان[١]، وكان سيبويه قد قال قديماً: «كان أخف عليهم أن لا يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة»[٢]. وذلك لا يتحقق في المذهبين الثاني والثالث، على نحو ما يتحقق في المذهب الأول.

ولا بد من الإشارة هنا إلى قول الدمياطي البنَّاء (ت ١١١٧هـ) الذي حَذَّرَ القارئَ فيه من مد الحركة عند إخفاء النون حتى تتحول حرفاً، والذي قال فيه

---

(١) ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٣١٩.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٥٤.

بعد ذلك ما نصه: «وَلْيَحْتَرِزْ أيضاً من إلصاق اللسان فوق الثنايا عند إخفاء النون، فهو خطأ أيضاً، وطَرِيقُ الخلاص منه تجافي اللسان قليلاً عن ذلك»[1].

وهذا القول يعني أن هناك مذهبين على الأقل في نطق النون المخفاة، في نحو (كنتم) و (أنتم) وما أشبهه، وأن الصواب عند الدمياطي هو المذهب الذي يتجافىٰ فيه طرف اللسان عن اللثة عند نطق النون المخفاة، وأن إلصاق طرف اللسان في أثناء ذلك خطأ، وهذه نتيجة تخالف ما انتهينا إلى ترجيحه في حقيقة نطق النون المخفاة، بناء على الأدلة التي ذكرناها، ومن ثم فإن البت في الأمر في هذا البحث والجزم بصحة أحد المذاهب الثلاثة في إخفاء النون وخطأ المذهبين الآخرين شيء ينبغي اجتنابه، وإنما يمكن أن نرجح، وقد رَجَّحْتُ المذهب الأول على ما تقدم.

ثانيـاً ـ درجات إخفاء النون:

كان علماء التجويد قد لاحظوا أن مقدار تغير صوت النون عند إخفائها لا يكون على درجة واحدة، قال أبو عمرو الدانيُّ (ت ٤٤٤هـ) وهو يتحدث عن إخفاء النون الساكنة والتنوين: «وإخفاؤُهما على قدر قربهما وبعدهما، فما قَرُبَا منه كانا عنده أخفى مما بَعُدَا عنه»[2]. وأكَّد هذه الفكرة عبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦١هـ) بقوله: «إنَّ حروف الإخفاء أيضاً ترتبت في التوسط فكان فيها أقربُ وأبعدُ، فكان الإخفاء في الأقرب أكثر منه في الأبعد»[3].

وقد زاد الأستاذ محمد المرعشي (ت ١١٥٠هـ) فكرة تقسيم الإخفاء على مراتب بياناً وتوضيحاً، حيث قال: «واعلم أن الإخفاء على ثلاث مراتب يتوقف

---

(١) إتحاف فضلاء البشر ص٣٣.

(٢) التحديد ص١١٧.

(٣) الموضح ص١٧١.

بيانها على تقديم مقدمة، وهي أن الغنة صفة النون الساكنة وأثرها الباقي عند إخفاء ذاتها، فمعنى صِغَرِ إخفاء النون كِبَرِ أثرها الباقي، ومعنى كِبَرِ إخفائها صِغَرِ أثرها الباقي، إذ ذاتها معدومة عند الإخفاء على كل حال. وحروف الإخفاء على ثلاث مراتب: أقربها مخرجاً إلى النون ثلاثة: الطاء والدال المهملتان والتاء المثناة الفوقية، وأبعدها القاف والكاف، والباقي متوسطة في القرب والبعد... وبالجملة إن مراتب الحروف ثلاث: فإخفاؤهما عند الحروف الثلاثة الأُوَل أزيد وغنتهما الباقية قليلة، بمعنى أن زمان امتداد الغنة قصير، وإخفاؤهما عند القاف والكاف أقل وغنتهما الباقية كثيرة بمعنىٰ أن زمان امتدادها طويل، وإخفاؤُهما عند بواقي الأحرف متوسط، فزمان غنتهما متوسط»[١].

وأحسب أن مراتب إخفاء النون هذه تقريبية تضبطها المشافهة، ولكن يبدو أن ما يفعله كثير من قراء زماننا من إطالة غنة النون المخفاة أمر يتجاوز القدر المقرر لها، وهو المد بقدر حركتين، أو مقدار ألف، أو قريباً من ذلك، فقد قال محمد المرعشي: «لا يصل امتدادها إلى قدر ألف أو أزيد»[٢]، وقال حسن بن إسماعيل الدركزلي (ت ١٣٢٧هـ): «وأما زمنها فهو أطول من زمن الحرف وأقصر من زمن الحرفين، فيكون قريباً من زمن المد الطبيعي»[٣]. وصَرَّحَ الشيخ محمد علي خلف الحسيني الشهير بالحداد (ت ١٣٥٧هـ) شيخ المقارئ المصرية في زمانه بأن «الغنة مقدار حركتين»[٤].

وقد ورد التحذير من المبالغة في إطالة غنة النون المخفاة في كلام أئمة القراءة، من مثل قول محمد المرعشي: «وَلْيُحْذَرْ عن المبالغة في تطويل غنة

---

(١) جهد المقل ص١٧٩.

(٢) بيان جهد المقل ٥ظ.

(٣) خلاصة العجالة ٥٠و.

(٤) تحفة الراغبين ص٦.

الإخفاء»[1]. وكذلك حَذَّرُوا من مد الحركة التي قبل الحرف المخفىٰ، فقال الشيخ زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ): «وينبغي أن تنظر إلى ما قبل الحرف المخفىٰ من الحركات فلا تخرجه عن حَدِّه نحو (كُنْتم) فلا تَمُدَّ الضمة عند إخفاء النون، لئلا يتولد منها واو، فتبقى (كونتم)»[2].

وكلام علماء التجويد عن مراتب إخفاء النون يثير قضية تنوع صوت إخفاء النون بحسب الصوت الذي تخفىٰ عنده، ومعنى ذلك أن للنون المخفاة عدداً من الصور الصوتية بناء على هذا التفسير، وهو أمر سوف نناقشه في الفقرة الآتية.

ثالثاً ـ عدد أصوات النون المخفاة:

ذكر سيبويه مخرجاً للنون وآخر للنون الخفيفة، على نحو ما مَرَّ، وهذا أمر لا يلزم منه أن سيبويه يقول إن النون المخفاة صوت واحد، وأقوال العلماء التي نقلناها حول مراتب الإخفاء تشير إلى أن صوت النون المخفاة يتنوع تبعاً للصوت الذي تخفىٰ عنده، وهو ما يظهر في نطق جمهور أهل الأداء الذين يلتزمون المذهب الأول في نطقهم للنون المخفاة، وهو المذهب الذي رجحناه من قبل أما مَنْ يأخذ بالمذهب الثالث في نطقه فيظهر أن النون المخفاة عنده هي صوت واحد لا يتغير جرسه بتغير الصوت الذي تخفى النون عنده، وهو مذهب نحسبه مخالفاً لأقوال العلماء السابقين وغير منسجم مع قوانين علم الأصوات، ومتناقض مع نطق جمهور القراء.

ولا يجد الناظر في كلام علماء العربية والتجويد المتقدمين حول إخفاء النون ما يشير إلى محاولتهم حصر أنواع النون المخفاة، على الرغم من معرفتهم بتعدد أشكال هذا الصوت، وسار كثير من دارسي أصوات العربية من المعاصرين

---

(١) جهد المقل ص٢٦١.

(٢) تحفة نجباء العصر ص٦١، وينظر: الدمياطي: إتحاف فضلاء البشر ص٣٣.

على خطاهم، ولكن الدارس يجد عدداً من المحاولات الحديثة في هذا المضمار، جاء بعضها مجملاً وبعضها الآخر أكثر تفصيلاً، لكن أياً منها لم يستقص كل ما يتعلق بهذا الموضوع.

ومن تلك المحاولات الحديثة ما ذكره الدكتور تمام حسان عند حديثه عن الرموز الصوتية في كتابه (مناهج البحث في اللغة) حيث ذكر ستة رموز لأنواع من صوت النون، ولا يعنينا هنا مقدار توفيقه في اختيار تلك الرموز، وإنما تهمنا دلالة ذلك على إدراكه لتعدد صور نطق النون، على الرغم من أن طريقته في تحديد تلك الصور تعوزها الدقة والوضوح، يظهر ذلك من عرض ما ذكره حولها، مع عدم نقلنا لصور الرموز لأنها رسمت بحروف لاتينية مع زوائد وذيول يصعب رسمها بآلات الطباعة العربية الشائعة[١]:

الرمز الأول: ويدل على صوت من أصوات النون يخرج اللسان في نطقه، حيث يقع قبل الظاء أو الذال أو الثاء مباشرة.

الرمز الثاني: ويدل على صوت آخر من أصوات النون أسناني لثوي يقع قبل الأصوات الأسنانية اللثوية. ولم يذكر هنا تلك الأصوات لكنه ذكر في موضع آخر من كتابه أنها ت د ط ض،س ص ز[٢].

الرمز الثالث: وهذا رمز على صوت آخر من أصوات النون لثوي، يعتبر الرئيسي بين أصواتها، مثل النون في كلمة (أنا).

الرمز الرابع: يدل على صوت النون قبل الجيم والشين والياء.

الرمز الخامس: يدل على صوت النون قبل الكاف.

الرمز السادس: يدل على صوت النون قبل القاف.

---

(١) مناهج البحث في اللغة ص١١.

(٢) المصدر نفسه ص١٢٤.

ومن تلك المحاولات أيضاً ما ذكره الدكتور عبد الصبور شاهين في كتابه (أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي) في أثناء وصفه الأصوات العربية، وهو في هذه المحاولة لم يزد على ما ذكره الدكتور تمام حسان في محاولته السابقة من أنواع النون المخفاة شيئاً، اللهم إلا شيئاً يسيراً يتعلق ببعض التفاصيل[1]، وإلا ما ذكره عن نوع من أنواع النون المخفاة حين تقع النون الساكنة قبل الفاء كما في كلمة (أَنْف) لكنه سَمَّى هذه النون المخفاة ميماً وقال: «حيث تقلب النون ميماً مخرجها هو الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا»[2]. وهذه تسمية لم يسبق إليها، فيما اطلعت عليه من المصادر، كما أنها قد تجلب اللبس على الدارس المبتدئ، والأَوْلى تسميتها نوناً، على ما جرى عليه الدارسون قديماً وحديثاً.

ويبدو أن هاتين المحاولتين تستوحيان ما ورد في جدول رموز الأبجدية الصوتية الدولية التي ورد فيها سبعة رموز للأصوات الأنفية، اثنان للميم وخمسة للنون، وهي تتطابق تقريباً مع ما ورد في هاتين المحاولتين[3].

إن حصر عدد أنواع النون المخفاة يرتبط بعدد الأصوات التي تخفى عندها النون، وهي خمسة عشر صوتاً على ما مرَّ ذكره في ملخص أحكام النون الساكنة، وقد تنضاف إليها أصوات أخرى وأحسب أن وضع أصوات العربية في جدول حسب ترتيبها المخرجي يمكن أن يساعد في حصر أنواع النون المخفاة، وذلك على النحو الآتي:

---

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ص٢٢٦-٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص٢٢٥-٢٢٦.

(٣) ينظر جدول رموز الكتابة الصوتية الدولية: د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٦٤.

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
ء هـ	ق	ك	ي	ل	د ت	س	ث		م
ع ح			ج	ر	ط ض	ص	ذ	ف	ب
غ خ			ش	ن		ز	ظ		و

إن الأصوات الواقعة في الحقول من (٢-٩) تخفى النون عندها إلا اللام والراء، وفي الياء خلاف. ومجموع هذه الأصوات المتفق على إخفاء النون عندها خمسة عشر صوتاً، ويتوقف تحديد عدد أنواع النون المخفاة على تحديد طبيعة صوت النون المخفاة قبل أصوات الحقل الواحد، وهل هو صوت واحد قبل أي من تلك الأصوات أو يتغير عند كل صوت منها، أعني هل النون في مثل (فَمَنْ ثَقُلَتْ) و (مَنْ ذا) و (مِن ظلمات) صوت واحد أو أصوات متعددة؟

إن كلاً من المحاولتين السابقتين جعلت النون في أمثلة الحالة السابقة نوناً واحدة، بل إنها جعلتها نوناً واحدة قبل أصوات الحقلين (٦و٧) كلها، وأحسب أن في ذلك تبسيطاً للأمور وإغضاءً عن فوارق صوتية واضحة، لا يتفق مع ما يجب من التحقيق والاعتناء بدقائق العلم.

إن الملاحظة الذاتية تشير إلى أن صوت النون المخفاة يتغير جرسه قبل كل صوت من الأصوات الخمسة عشر التي تخفى عندها النون وذلك لتغير حجم وطبيعة حجرة الرنين التي تحدث في التجويف الفموي مع كل صوت منها، فأنت إذا نطقت (مَن قال) و (من تاب) و (مَن ذا) تجد صوت النون له جرس متميز في كل مثال من الأمثلة الثلاثة، على الرغم من اشتراكها بقيام عائق في الفم، وجريان النفس من الأنف، وذلك بسبب ما ذكرته من تغير حجم وطبيعة حجرة الرنين.

إننا بناء على ذلك يمكننا القول إن النون المخفاة لها خمسة عشر نوعاً بعدد

الأصوات التي تخفى عندها، ويمكن أن ينضاف إليها صوتان آخران هما النون الساكنة قبل الواو والياء، فإن من علماء التجويد من عَدَّه إخفاءً وليس إدغاماً[1]. لأنه حالة ينطبق عليها تعريف الإخفاء الذي اخترناه وبيناه من قبل. وقديماً قال السمرقندي: «وحقيقة إدغامهما في الواو والياء إخفاء لا إدغام، وإنما يقولون إدغام مجازاً، هو في الحقيقة إخفاء»[2].

وعلى الرغم من رجحان كون عدد أنواع النون المخفاة هو سبعة عشر نوعاً، فإن هناك جانباً في الموضوع أحسب أنه يحتاج إلى استخدام أجهزة مختبر الصوت للبت فيه، وهو النون المخفاة قبل الصوتين المتحدين في المخرج المختلفين في صفة واحدة مثل الجهر والهمس أو الإطباق والانفتاح هل تعد صوتاً واحداً أو صوتين؟ ففي الوقت الذي لا أشك فيه أن النون المخفاة قبل السين تختلف عنها قبل الصاد. لكني أتوقف في الجزم بكونها نوناً أو نونين قبل الزاي والسين، وهكذا قبل الدال والتاء، وقبل الذال والثاء، وقبل الطاء والضاد خاصة، أما في ما سوى ذلك فأحسب أن الأمر واضح، إن شاء الله تعالى.

رابعاً: إخفاء النون والكتابة الصوتية:

كان سيبويه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد قسم أصوات العربية على قسمين: الأصول، وهي التسعةوالعشرون، والفروع وهي ستة مستحسنة كثيرة، وسبعة غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة مَن تُرْتَضى عربيته[3]. والكتابة العربية جعلت لكل صوت من الأصول رمزاً، وأهملت الفروع ومن بينها النون المخفاة التي ذكرها سيبويه ضمن الأصوات الفروع الستة المستحسنة وسماها النون الخفيفة.

---

(١) المرادي: المفيد ص١١٤.

(٢) روح المريد ١٣٤و.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣١-٤٣٢.

وكان حمزة بن الحسن الأصفهاني قد أشار إلى قصور الكتابة في هذا الجانب فقال: «ولو رام إنسان من أهل الزمان أن يضع كتابة سليمة من التصحيف جامعة لكل الحروف التي تشتمل على جميع اللغات لزمه أن يضع صورة لأربعين حرفاً، منها ثمانية وعشرون حرفاً ما قد رُسِمَ بها هجاء العربية التي هي: أ ب ت ث ج ح خ... ومنها أربعة جارية في العربية على ألسن أهلها ولم يخصوها بصورة وهي: النون الغناء، والهمزة، والواو والياء اللينتان. فالنون الغناء هي التي تخرج من الغنة، وهي مثل نون (مُنْذر) لأنها ليست من مخرج نون رَسَنٍ...»[1].

إن علم اللغة الحديث اعتنى بتقسيم الأصوات إلى أصول وفروع في إطار نظرية الفونيم[2]، كما اعتنى بوضع رموز لكل أصوات اللغة أصولاً كانت أم فروعا في إطار ما يعرف بالكتابة الصوتية الدولية[3]. وتضمن جدول الرموز الصوتية الدولية خمسة رموز للنون وفروعها[4]. لكن هذه الرموز لا تمثل إلا بعضاً من أنواع النون المخفاة التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة. فهل يكتفى بهذه الرموز الخمسة للنون وفروعها أو يجب اختراع رموز جديدة لجميع أنواع النون؟

إن هناك اتجاهين في استخدام الكتابة الصوتية، اتجاهاً يحشد رموزاً تمثل ـ ولو من الناحية النظرية على الأقل ـ كل إمكانيات أصوات الكلام، واتجاهاً

---

(١) التنبيه على حدوث التصحيف ص٣٣.

(٢) ينظر: كمال محمد بشر: الأصوات ص٢٠١، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص١٣٩. وكان أخي الدكتور سالم قدوري حمد قد كتب بحثاً عن أحكام النون في العربية في ضوء نظرية الفونيم، مقبول للنشر في المجلة العلمية لجامعة تكريت.

(٣) راجع عن الكتابة الصوتية: د. حسام سعيد النعيمي: أصوات العربية بين التحول والثبات ص٧٧.

(٤) ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٦٤.

يحرص على تمثيل الأصوات الأصول في لغة معينة[1]. والاتجاه الأول يتطلب منا اختراع رموز جديدة لأنواع النون المخفاة التي قصرت الكتابة الصوتية الدولية في تمثيلها، بينما يمكن أن يُكتفى في إطار الاتجاه الثاني برمز النون الأصلي. وقد اقترح الدكتور حسام النعيمي ثلاثة رموز للنون تمثل النون المظهرة، والمخفاة، والمدغمة بغنة[2].

إنني في ضوء ما تقدم، وفي جانب الآراء المتعددة في تمثيل النون الأصلية وفروعها في الكتابة الصوتية، أجد أن وضع علامة ما فوق النون الساكنة أوالتنوين، في مجال الكتابة الصوتية، يمكن أن تكون كافية لتوضيح أن هذه النون تخفى في الصوت الذي بعدها، ويفهم القارئ المتخصص من تلك العلامة أن معتمد النون ينتقل إلى مخرج الصوت الذي بعدها مع المحافظة على جريان النَّفَس من الأنف، ولا شك في أن الأمر يحتاج إلى اتفاق المَعْنِيِّينَ على صيغة معينة، أكثر من الحاجة إلى مقترح جديد قد يكون مدعاة للتشويش أو التعقيد، وهَمُّنَا في هذا البحث الكشف عن حقيقة إخفاء النون، والمذهب الراجح في طريقة أدائه، وأحسب أن ذلك تحقق ـ إن شاء الله ـ في الصفحات السابقة.

خاتمـــة البحث

١- إن طريقة إخفاء النون الساكنة لدى القراء المعاصرين تجري على أكثر من صورة، فمنهم من ينقل معتمد النون في الفم إلى مخرج الصوت الذي تخفى عنده، ومنهم من يفعل ذلك لكنه يجافي طرف لسانه قليلاً عند الدال والتاء والطاء والضاد، ومنهم لا ينقل معتمد النون لكنه يجافي طرف لسانه عن اللثة قليلاً، أياً كان الصوت الذي تخفى عنده النون.

---

(١) ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٧١-٧٢.

(٢) أصوات العربية بين التحول والثبات ص١٠٥.

٢- إن تتبع أقوال العلماء المتقدمين والمعاصرين في وصف حالة آلة النطق عند إخفاء النون يرجح المذهب الأول من مذاهب أهل الأداء، وذلك بأن يضع الناطق لسانه في مخرج الصوت الذي تخفى عنده النون، فيكون للنون المخفاة نطقاً متميزاً مع كل صوت من الأصوات التي تخفى عندها.

٣- يمكن أن نستخلص تعريفاً لإخفاء النون أكثر تحديداً ووضوحاً، فنقول: إن الإخفاء هوانتقال معتمد النون من طرف اللسان بينه وبين ما يليه من اللثة إلى مخرج الصوت الذي بعدها، وتأخذ آلة النطق ذات الشكل الذي تكون عليه عند نطق ذلك الصوت، مع بقاء مجرى النَّفَس من الخيشوم.

٤- إن ما انتهى إليه هذا البحث يعتمد على الملاحظة الذاتية لكاتبه وفهمه الخاص للنصوص وطرق الأداء المتعلقة به، وأحسب أن بعضاً من جوانبه ونتائجه بها حاجة إلى أن تعالج في أجهزة مختبر الصوت الحديثة، وأحسب أيضاً أنَّ جَمْعَ أهل الأداء على مذهب واحد من المذاهب الثلاثة لدى القراء المعاصرين لا يتقرر إلا من خلال ندوة أو مؤتمر علمي يضم أهل الاختصاص من علماء القراءة والتجويد وعلم الأصوات اللغوية ليعتمدوا الطريقة الصحيحة لإخفاء النون، وحسبي هنا أني لَفَتُّ الأنظار إلى قضية من أبرز قضايا الأداء القرآني في زماننا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(٤)

إِخْفَاءُ الميمِ في النُّطْقِ العَربيِّ

مقـدمـة

درَسَ علماء العربية وعلماء القراءة والتجويد الأصوات اللغوية دراسة مستفيضة، واعتنوا بتجويد مخارجها وذكر صفاتها، وبحثوا الظواهر الصوتية التي تعرض لها في الكلام المنطوق. وكان صوت الميم أحد الأصوات التي أخذت جانباً غير قليل من جهودهم. فحدَّدوا مخرجها، وذكروا صفاتها، ولم يختلفوا في ذلك، لكنهم حين بحثوا الظواهر الصوتية التي تعتري هذا الصوت في الكلام المنطوق اختلفت عبارتهم وتعددت وجهات نظرهم.

وكان جَلُّ ذلك الاختلاف يدور حول وصف نطق الميم إذا وقعت ساكنة قبل الباء في مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۝٢٨﴾ [النجم]، فقال بعضهم إن حكم الميم هاهنا الإظهار، وقال بعضهم: إن حكمها الإخفاء، وحاول آخرون التقريب بين المذهبين.

والمتأمل اليوم لأداء قُـرَّاء القرآن يجد أن منهم مَن يفتح شفتيه عند نطق الميم الساكنة قبل الباء، وهو ما لم أجد له ذكراً في المصادر القديمة لعلم التجويد وعلم القراءات، ومنهم مَن يُطبق شفتيه للصوتين جميعاً، وكلا الفريقين يحتج بالرواية والتلقي عن الشيوخ.

ووجدت أن الموضوع به حاجة لعرض والتأمل والفحص، في ضوء حقائق علم الأصوات اللغوية، عسى أن يكون ذلك عاملاً لتقريب وجهات النظر وتوحيد صور النطق، إن شاء الله تعالى، هو الموفق والميسر والمعين.

المبحث الأول

الميم صفاتها وأحكامها الصوتية

أولاً: صفات الميم الصوتية:

يتلخص الوصف الصوتي للميم بأنه صوت شفويٌّ، أَغَنُّ، مجهورٌ[1]. وكلمة (شفوي) تحدد مخرج الميم، قال سيبويه: «ومما بين الشفتين مخرج الباء، والميم، والواو»[2]. وتحدد كلمة (أغن) مجرى النَّفَس عند النطق به، حيث يتخذ النَّـفَس مجراه خلال التجويف الأنفي (الخياشيم)، فتحدث النَّغْمَة الصوتية التي تعرف بالغنة، وتشارك النونُ الميمَ في هذه الصفة من بين سائر أصوات اللغة العربية[3]. وتحدد كلمة (مجهور) حالة الوترين الصوتيين في الحنجرة، في أثناء النطق بالميم، فإذا اهتز الوتران في أثناء النطق بالصوت، حدثت نَغْمَةٌ تُعْرَف بالجهر، ووُصِفَ الصوت بأنه مجهور، وإذا ظَلا ساكنين لم تحدث تلك النغمة ووصف الصوت بأنه مهموس[4].

وصوت الميم يتكون بحبس النَّـفَس (الهواء) حبساً تاماً في الفم بأن تنطبق الشفتان انطباقاً كاملاً، وينخفض الحنك اللين (اللهاة وما اتصل بها)، فيتمكن الهواء الخارج من الرئتين من الخروج عن طريق الأنف، وفي أثناء مرور الهواء بالحنجرة عند النطق بالميم يهتز الوتران الصوتيان فيحدث الجهر، ومن ثم يوصف صوت الميم بأنه صوت، شفوي، أغن، مجهور[5].

---

(١) ينظر: محمود السعران: علم اللغة ص١٨٥، وكمال محمد بشر: الأصوات ص١٦٧.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٣) ينظر: سيبويه: الكتاب ٤/ ٤٣٤، ومكي: الرعاية ص٢٠٦، والداني: التحديد ص١١١.

(٤) ينظر محمود السعران: علم اللغة ص١٤٥، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص١٠٦.

(٥) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٤٥، ومحمود السعران: علم اللغة ص١٨٤.

وسَمَّى عدد من علماء التجويد الميم بالراجع، لأنها ترجع إلى الخياشيم بما فيها من الغنة.[1]

ثانياً: أحكام الميم الصوتية:

إن من قواعد علم الأصوات اللغوية أن الأصوات إذا تجاورت في الكلام يتأثر بعضها ببعض[2]، لأن المجاورة لها تأثير[3]. وأقرب الأصوات مخرجاً إلى صوت الميم صوت الباء والواو اللذان يشاركانها في المخرج، وصوت الفاء الذي يخرج من باطنِ الشفة السفلة وأطراف الثنايا العلى[4]. وهناك عاملان قللا من تأثر الميم بالأصوات المجاورة له وهما[5]:

١- إن الإدغام يكثر في حروف الفم ويقل في حروف الحلق والشفتين، والميم من حروف الشفتين[6].

٢- إن كل صوت فيه زيادة صفة لا يدغم فيما هو أنقص صفة منه، والميم تميزت عن غيرها من أصوات اللغة العربية بصفة الغنة التي لا يشاركها فيها صوت آخر سوى النون[7].

ومن ثم فإن الأحكام الصوتية للميم الناشئة عن التركيب تنحصر في مجاورتها لأصوات الشفتين: الباء والميم والواو، وصوت الفاء الذي تشترك الشفة السفلى في مخرجه، وذلك على النحو الآتي:

---

(١) مكي: الرعاية ص١١٢، والداني: التحديد ص١١١، وعبد الوهاب القرطبي: الموضح ص٩٧.

(٢) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص١٧٩.

(٣) عبد الدائم الأزهري: الطرازات المعلمة ٢٧و.

(٤) سيبويه: المتاب ٤/ ٤٣٣.

(٥) ينظر: كتابي: الدراسات الصوتية ص٤٥٨.

(٦) ينظر: سيبويه: الكتابة ٤/ ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠.

(٧) ينظر: الداني: التحديد ص١١٢، والقرطبي: الموضح ص٩٨ وابن الباذش: الإقناع ١/ ١٨٨.

١- مع الميم:

إذا التقت الميم الساكنة بمثلها وجب الإدغام، جرياً على قاعدة إدغام المتماثلين، قال مكي: «وإذا لقي الميمَ وهي ساكنة ميمٌ أخرى وجب الإدغام»[١] وقال الداني: «فإذا التقى بمثله أُدغم فيه لا غير»[٢]. وذلك نحو: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة]. و ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس]، و ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس].

٢- مع الفاء والواو:

الميم إذا سكنت مع الفاء والواو وجب الاعتناء بإظهارها، فالفاء نحو: ﴿هُمْ فِيهَا ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة]، و﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة]. والواو نحو: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران] و﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان][٣]. قال عبد الوهاب القرطبي: «فأَظْهِرْ غُنَّتَها، وأَجِدْ إسكانها، وتَوَقَّ إزعاجها وسَبْقَ الحركة إليها، بأن تُطبقَ شَفتيكَ وتُلْحِقَ ثنيتيك بمخرج الفاء، وتَضُمَّ شفتيك على الواو عند انفتاح شفتيك من الميم، في وقت واحدٍ، من غير إبطاء يؤولُ إلى التشديد، ولا اضطراب يوهم الإزعاج والتحريك. وهذا الأصل ينبغي أن يستعمل في جميع ما يجب إظهاره»[٤].

وذكر أبو العلاء العطار أن إظهار الميم عند الواو أسهل منه عند الفاء، وذلك لأن الميم توافق الواو في المخرج، فأما عند الفاء فيحتاج فيها إلى تكلف، لأن الفاء بانحدارها إلى الفم باعدت الميم[٥].

---

(١) الرعاية ص٢٠٧.

(٢) التحديد ص١٦٧.

(٣) الداني: التحديد ص١٦٧، ومكي: الرعاية ص٢٠٦.

(٤) الموضح ص١٦٥.

(٥) التمهيد ١٥٥ظ.

ولعل ما ذكره العطار يفسر لنا عدم اختلاف القراء في إظهار الواو، وميل بعضهم إلى إخفاء الميم أو إدغامها في الفاء.

ويتلخص مما ذكره علم الدين السخاوي عن حكم الميم عند الفاء ثلاثة مذاهب[1]:

أ ـ **مذهب البغداديين**، وهو مذهب جمهور القراء، الإظهار. قال الأهوازي: «والإظهار في ذلك مذهب البغداديين عن الجماعة»[2]، وقال السخاوي: «وعلى ذلك جميع أهل الأمصار، وهو اختيار عامة القراء»[3].

ب ـ **مذهب الكوفيين**، عن الكسائي، الإدغام. قال أبو عمرو الداني: «على أن أحمد بن أبي سريج قد روى عن الكسائي إدغامه في الفاء، وذلك غير صحيح ولاجائز»[4]. وقال السعيدي: «وهو رديء عند أهل الأداء، وقليل مَن يأخذ به، لبعد مخرج الفاء من الميم في الشفة السفلى»[5]. وقال السخاوي: «وروي عن الكسائي إدغام ذلك، حيث كان، مع إظهار الغنة من غير استثناء شيء من ذلك، وعلى ذلك الكوفيون»[6].

وكلام السخاوي هذا لا يخلو من إشكال، فإذا كان الكسائي يدغم الميم في الفاء في مثل (هُمْ فيها) فإن ذلك يعني قلب الميم فاء ويكون النطق هكذا (هُفْ فيها)، لكن قوله: «مع إظهار الغنة» يعني عدم قلب الميم فاء محضة، ولعله

---

(١) جمال القراء ٢/ ٥٣٧.

(٢) الوجيز ١٣ظ.

(٣) جمال القراء ٢/ ٥٣٧.

(٤) التحديد ص١٦٧.

(٥) التنبيه ص٢٨٣.

(٦) جمال القراء ٢/ ٥٣٧.

يريد صوتاً أنفياً من مخرج الفاء، وهو حينئذ يشبه الإخفاء، وقد نسب العطار إخفاء الميم عند الفاء إلى الكسائي[1].

ج - **مذهب البصريين**، عن اليزيدي، وأبي عمرو بن العلاء، الإخفاء. قال السخاوي: «والإخفاء مذهب البصريين وعليه قراءتهم»[2].

ولا يعني نص علماء القراءة على إظهار الميم عند الفاء والواو أنها لا تظهر عند الأصوات الأخرى، فالإظهار حُكم يشمل كل الأصوات ما عدا الميم والباء، قال ابن الجزري، بعد أن ذكر إدغامها في الميم وإخفاءها في الباء: «الحكم الثالث: إظهارها عند باقي الأحرف... ولا سيما إذا أتى بعدها فاء أو واو فَلْيُعْنَ بإظهارها لئلا يسبق اللسان إلى الإخفاء لقرب المخرجين نحو (هم فيها، ويمدهم في، وعليهم وما، وأنفسهم وما)، فَيَتَعَمَّلُ اللسان عندهما ما لا يتعمَّلُ في غيرهما»[3].

٣- مع الباء:

يذهب أكثر العلماء إلى أن حكم الميم الساكنة قبل الباء الإخفاء، وفي هذه القضية تفصيل نعرضه في المبحث الآتي، إن شاء الله.

المبحث الثاني
حكم الميم مع الباء

إذا جاءت الميم ساكنة قبل الباء فإنها لا تدغم فيها، قال سيبويه، رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالميم لا تدغم في الباء، وذلك قولك: أَكْرِمْ به»[4]. وقد اختلف العلماء بعد ذلك في حقيقة حكمها، هل هي مخفاة أو مظهرة؟

---

(١) التمهيد ١٥٥ظ.

(٢) جمال القراء ٢/ ٥٣٧.

(٣) النشر ١/ ٢٢٢.

(٤) الكتاب: ٤/ ٤٤٧.

١- **القول بأنها مظهرة**: ذهب عدد من العلماء إلى أن الميم الساكنة قبل الباء حكمها الإظهار، فقال أبو الحسين بن المنادي: «أخذنا عن أهل الأداء خاصة تبيان الميم الساكنة عند الواو والباء والفاء، في حُسْنٍ من غير إفحاش»[1]. وقال أحمد بن يعقوب التائب: «أجمع القراء على تبيين الميم الساكنة وترك إدغامها إذا لقيتها باء في جميع القرآن»[2].

وقال مكي القيسي: «وإذا سكنت الميم وجب أن يتحفظ بإظهارها ساكنة عند لقائها باءً أو فاءً أو واواً، نحو ﴿وهم فيها﴾... و﴿من لم يحكمْ بما أنزل الله﴾ وشبه ذلك كثير في القرآن. لا بد من بيان الميم الساكنة في هذا كله ساكنة من غير أن يحدث فيها شيء من حركة، وإنما ذلك خوف الإخفاء والإدغام لقرب مخرج الميم من مخرجهن، لأنهن كلهن يخرجن مما بين الشفتين، غير أن الفاء تخرج من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلىٰ، ولولا اختلاف صفات الباء والميم والواو على ما قدَّمنا من الشرح لم يختلف السمع بهن، ولَكُنَّ في السمع صنفاً واحداً»[3].

٢- **القول بأنها مخفاة**: وهو مذهب طائفة كبيرة من العلماء، وهو المشهور في زماننا، قال أبو عمرو الداني: «فإن التقت الميم بالباء نحو: ﴿آمنتم به﴾، وما أشبهه، فعلماؤنا مختلفون في العبارة عنها معها. فقال بعضهم: هي مخفاة لانطباق الشفتين عليهما، كانطباقهما على إحداهما، وهذا مذهب ابن مجاهد، في ما حدثنا به الحسين بن علي، عن أحمد بن نصر، عنه، قال: والميم لا تدغم في الباء لكنها تخفىٰ، لأن لها صوتاً في الخياشيم تواخي به النون الخفيفة...»[4].

---

(١) الداني: التحديد ص١٦٨، والعطار: التمهيد ١٥٥ظ.

(٢) الداني: التحديد ص١٦٩.

(٣) الرعاية ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٤) التحديد ص١٦٨، وينظر: القرطبي: الموضح ص١٧٢.

وقد صَحَّحَ ابن الجزري المذهبين، لكنه رَجَّحَ الإخفاء، فقال وهو يتحدث عن أحكام الميم: «الثاني الإخفاء عند الباء، على ما اختاره الحافظ أبو عمرو الداني وغيره من المحققين، وذلك مذهب أبي بكر بن مجاهد وغيره، وهو الذي عليه أهل الأداء بمصر والشام والأندلس وسائر البلاد الغربية، وذلك نحو: ﴿يعتصمْ بالله﴾ و﴿ربَّهُمْ بِهِمْ﴾، ﴿أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم﴾.

وقد ذهب جماعة كأبي الحسين أحمد بن المنادي وغيره إلى إظهارها عندها إظهاراً تاماً، وهو اختيار مكي القيسي وغيره. وهو الذي عليه أهل الأداء بالعراق وسائر البلاد الشرقية، وحكى أحمد بن يعقوب التائب إجماع القراء عليه.

قلت (ابن الجزري): الوجهان صحيحان، مأخوذ بهما، إلا أن الإخفاء أولى»، وقال المرادي: «القول بالبيان أشهر وعليه الأكثر»[١].

ولا يتضح الفرق بين نطق الميم بالإظهار في مثل: ﴿ما لهمْ به﴾، ونطقها بالإخفاء، لأن كلاًّ من الميم والباء تنطبق الشفتان عند النطق بهما، إلا أنهما تنفرجان مع الباء ولا تنفرجان مع الميم لأن النَّفَس يجري في الخياشيم. فإذا وقعت الميم ساكنةً قبل الباء فإن انطباق الشفتين يستمر عند النطق بالميم ثم عند نطق الباء، حيث ينتهي بانفراجها لتحقيق شدة الباء. وقد تنبه إلى هذا من قبل والد ابن الباذش حيث قال في كتابه الإقناع: «قال لي أبي، رضي الله عنه: «المعوَّل عليه إظهار الميم عند الفاء والواو والباء، ولا يتجه إخفاؤها عندهن إلا بأن يزال مخرجها من الشفة، ويبقى مخرجها من الخيشوم، كما يُفعل ذلك في النون المخفاة، وإنما ذكر سيبويه الإخفاء في النون دون الميم، ولا ينبغي أن أن تحمل الميم على النون في هذا، لأن النون هي الداخلة على الميم في البدل في قولهم: شَنْباء وعَنْبر و﴿صمٌّ بكمٌ﴾، فَحَمْلُ الميم عليها غير متجه، لأن للنون تَصَرُّفاً ليس للميم، ألا ترى أنها تدغم ويدغم فيها، والميم يُدغم فيها ولا تدغم، إلا أن يريد القائلون بالإخفاء انطباق الشفتين على الحرفين انطباقاً واحداً، فذلك

---

(١) المفيد ص١٣٥.

ممكن في الباء وحدها في نحو: أكرِمْ بزيد. فأما الفاء والواو فغير ممكن فيهما الإخفاء إلا بإزالة مخرج الميم من الشفتين، وقد تقدم امتناع ذلك، فإن أرادوا بالإخفاء أن يكون الإظهار رفيقاً غير عنيف فقد اتفقوا على المعنى، واختلفوا في تسميته إظهاراً أو إخفاء، ولا تأثير لذلك، وأما الإدغام المحض فلا وجه له»(١).

وقد وجدت للمرعشي كلاماً دقيقاً في التفريق بين إظهار الميم الساكنة قبل الباء وإخفائها، يتلخص في أن انطباق الشفتين في الإظهار أقوى من انطباقهما في الإخفاء. ويقول: «ولو تلفظت بإظهار الميم هنا لكان زمان انطباقهما فيه كزمان انطباقهما في الباء لإخفاء الغنة حينئذ، وتُقَوِّي انطباقهما في إظهار الميم فوق انطباقهما في إخفائه لكن دون قوة انطباقهما في الباء، إذ لا غنة في الباء أصلاً بخلاف الميم الظاهرة، فإنها لا تخلو عن أصل الغنة، وإن كانت خفية، والغنة تورث للاعتماد ضعفاً»(٢).

والمأخوذ به في زماننا عند أهل الأداء في حكم الميم الساكنة قبل الباء هو الإخفاء، وهو المنصوص عليه في الكتب المؤلفة في علم التجويد في عصرنا، ويسميه بعضهم الإخفاء الشفوي(٣)، لكنهم مختلفون في النطق به، فمنهم من يطبق شفتيه عند النطق بالصوتين، ومنهم من يجافي بينهما(٤). وهو ما نعرضه في المبحث الآتي، إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإقناع ١/١٨١ - ١٨٢.

(٢) جهد المقل ٣١و.

(٣) ينظر: كمال الدين الطائي: رسالة في قواعد التلاوة ص٨٤، وفرج توفيق الوليد: قواعد التلاوة وعلم التجويد ص٩٤.

(٤) نقل الداني في التحديد (ص١١٩) عن ابن مجاهد أنه قال: «وغنة الميم والنون عند الباء تشتبه، ولا يكاد مَنْ لا يعرف أن يفرق بينهما في قوله تعالى ﴿من أنْبأك هذا﴾ وقوله ﴿كنتم به﴾ ونحوها في اللفظ» ولم أجد من المؤلفين مَن نَصَّ على الفرق، لكني وجدت القرطبي (الموضح ص١٧٥) يقول: «فلا يوجد فرق في اللفظ بين قوله ﴿أم بظاهر من القول﴾... وبين قوله ﴿أنبئكم﴾، سواء كان ما قبل الباء نوناً أو ميماً، لا فرق بينهما، كله في اللفظ سواء». وينظر أيضاً: الدمياطي: إتحاف ص٣٢. =

المبحث الثالث

حقيقة إخفاء الميم الساكنة قبل الباء

المتأمل لنطق المجيدين من قراء القرآن في زماننا يجد أنهم ينقسمون على قسمين في كيفية النطق بالميم المخفاة قبل الباء:

فمنهم مَن يجافي بين شفتيه قليلاً عند النطق بالميم، ثم يُطْبِقُ شفتيه إذا انتقل إلى نطق الباء بعدها، وهو المشهور في الديار المصرية ومَنْ أخذ القراءة عن قرائها.

ومنهم من لا يجافي بين شفتيه عند النطق بالميم ويُطْبِقُ شفتيه للميم والباء، وهو المشهور في الديار العراقية.

وقد تحققتُ من ذلك بالأخذ عن الشيوخ والسؤال عنه، ففي سنة ١٩٧٥، وقت إقامتي في القاهرة لدراسة الماجستير، كنت أتردد على الشيخ عامر السيد عثمان، أحد مشايخ الإقراء في القاهرة، فكان لا يقبل ممن يقرأ عليه أن يطبق شفتيه عند نطق الميم الساكنة قبل الباء، ويأبى إلا انفراجهما.

وقد صرت أسأل قراء العراق الذين ألتقي بهم عن كيفية إخفاء الميم الساكنة قبل الباء، فكانوا يقرؤون بإطباق الشفتين للصوتين معاً، ولا يأخذون بانفراجهما مع الميم. وكان آخر مرة سألت عن ذلك في صيف سنة ١٩٩٥ عند التقائي بالشيخ إبراهيم المشهداني، أحد مشايخ الإقراء في مدينة الموصل، فقال: نحن لا نعرف إلا إطباق الشفتين عند النطق بالميم المخفاة، وأن روايتهم للقراءة كانت هكذا عن شيوخهم.

ولم أجد في كتب علم التجويد القديمة من أشار إلى انفراج الشفتين عند النطق بإخفاء الميم الساكنة عند الباء، بل وجدت المؤلفين ينصون على انطباق الشفتين للصوتين معاً، فيقول الداني: «هي مخفاة لانطباق الشفتين عليهما،

كانطباقهما على إحداهما»[1]. وقال والد ابن الباذش: «إلا أن يريد القائلون بالإخفاء انطباق الشفتين على الحرفين انطباقاً واحداً، فذلك ممكن في الباء وحدها في نحو أَكْرِمْ بزيدٍ»[2].

ووجدت المصادر المتأخرة تشير إلى عدم المبالغة في إطباق الشفتين مع الميم قبل الباء، فقال الشيخ عبد الغني النابلسي وهو يتحدث عن النون الساكنة قبل الباء: «وأما الإقلاب فهو جعل النون الساكنة المتوسطة والمتطرفة والتنوين عند الباء الموحدة ميماً خالصة، ثم إخفاؤها بغنة من غير تشديد، كما ذكرنا نحو ﴿أن بورك، أنبئهم، عليمٌ بذات الصدور﴾. وَلْيَحْتَرز القارئ عند التلفظ بالإقلاب من كَزِّ (الشفتين) على الميم المقلوبة في اللفظ، لئلا يتولد التشديد عند كزها»[3].

وصرح المرعشي بذلك أيضاً فقال: «وبالجملة إن الميم والباء يخرجان بانطباق الشفتين، والباء أدخل وأقوى انطباقاً، كما سبق في بيان المخارج، فتلفظْ بالميم في (أن بورك) بغنة ظاهرة وبتقليل انطباقهما، وتجعل المنطبق من الشفتين في الباء أدخل من المنطبق في الميم»[4].

وقد أَثْبَتَ بعض المؤلفين المعاصرين القول بانفراج الشفتين عند النطق بالميم المخفاة في رسالة له في التجويد، كما نقل ذلك الأستاذ محمد عبد القادر الخلف في رسالته للماجستير عن (قراءة عاصم)[5]، وهذه قضية تستدعي النظر والتأمل، ومن المحتمل أنها تطورت عن تأكيد العلماء المتأخرين على تقليل انطباق الشفتين عند النطق بالميم المخفاة، فبالغ بعضهم في تقليل الانطباق حتى أدى ذلك إلى انفراجهما، وهذا أمر لا نملك القطع به، لأن كلا الفريقين يحتج بالرواية عن الشيوخ والمشافهة عنهم. والله أعلم.

---

(١) التحديد ص١٦٨.
(٢) الإقناع ١/ ١٨٢.
(٣) كفاية المستفيد ١٩ظ.
(٤) جهد المقل ٣٠ظ.
(٥) قراءة عاصم ص٦٨.

الخاتمة

إن الإشكال الذي يثيره موضوع نطق الميم الساكنة قبل الباء يتلخص في أمرين:

الأول: هل حكم الميم في هذه الحالة هو الإظهار أو الإخفاء؟ وقد انقسم العلماء في ذلك على قسمين: منهم من قال إنه إظهار، ومنهم من قال إنه إخفاء. وقد حاول بعض العلماء المتقدمين التوفيق بين المذهبين بالقول إن حقيقة النطق واحدة وإنهم اختلفوا في التسمية فقط. وأنا أميل إلى ترجيح هذا القول، لأن طبيعة نطق الصوتين تؤكد ذلك.

الثاني: إن كتب التجويد تشير إلى انطباق الشفتين عند النطق بالميم الساكنة قبل الباء للصوتين معاً، لكن أهل الأداء في عصرنا منقسمون على قسمين، فمنهم من ينطق على ما نحو ما وصف المتقدمون، ومنهم من يجافي بين شفتيه عند نطق الميم، وقد أثبت ذلك بعض المؤلفين المعاصرين، وكل منهم متمسك بروايته معتقد بصحتها دون ما سواها.

ولا أملك في هذا البحث رَدَّ أيٍّ من المذهبين، ولكني أُرَجِّحُ الرواية التي تتطابق مع وصف علماء التجويد المتقدمين لنطق الميم المخفاة، وهي التي تؤكد على انطباق الشفتين عند النطق بالميم، لأن القول بانفراجهما لم تشر إليه المصادر القديمة، ولأنه لا يتوافق مع نظرية السهولة في نطق الأصوات التي تتحقق عند النطق بانطباق الشفتين أكثر مما تتحقق عند النطق بانفراجهما.

وبعد فإن هذه القضية الصغيرة في الأداء القرآني تستدعي أن يتبادل حولها المعنيون بالأداء القرآني وعلم الأصوات العربي الرأي من أجل أن نحافظ على النطق العربي صحيحاً موحداً. وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رَب العالمين.

(٥)

قَضِيَّةُ الضَّادِ في ٱلْعَرَبِيَّةِ

مقـدمـة

الحمد للّٰهِ، والصلاة والسلامُ على سيدنا محمد رسول الله، وبعد:

فإن مما اتفق عليه المهتمون بعلم أصوات العربية أنَّ وَصْفَ علماء العربية وعلماء التجويد الأوائل لصوت الضاد لا ينطبق اليوم على نطق مجيدي قراءة القرآن لهذا الصوت، وأن هذا الأمر قد أدى بهم إلى القول أن تغيراً قد حصل في نطق الضاد، وهو تغير يشمل مخرج الصوت وبعض صفاته، ولكن هذا التغير لم يحظ باعتراف كثير من القائمين على أمر تعليم تلاوة القرآن في زماننا والمؤلفين لكتب علم التجويد.

وقد أدت تلك الحالة إلى تناقض بين النظرية والتطبيق، ففي الوقت الذي يُوصَفُ صوت الضاد في كتب تعليم قواعد التلاوة بأنه صوت رخو وأن مخرجه من حافة اللسان نجد أنه في نطق مجيدي القراءة في زماننا صوت شديد ومخرجه من اللثة، كما أنه يُعامَلُ على أساس أنه صوت متفرد يتصف بالاستطالة ويستعصي على الإدغام بغيره من الأصوات، بينما هو في النطق المعاصر يكاد يعامل معاملة صوت الطاء، أو يجب أن يكون كذلك، من هذه الناحية.

وتلك قضية تستحق أن تناقش، وأن يكون القراء في زماننا والمؤلفون لكتب تعليم قواعد التلاوة على بينة منها، وأن تجتمع الكلمة حولها، وقد كتبتُ هذا البحث لتحديد أبعاد قضية الضاد اليوم، في النطق العربي عامة، وفي قراءة القرآن خاصة، لعل ذلك يُسْهِمُ في زيادة الاهتمام بها، ويضع حَداً لذلك التناقض في معالجتها، وسوف أعرض الموضوع من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: قضية الضاد في التراث العربي القديم.

المبحث الثاني: قضية الضاد في الوقت الحاضر.

أسأل الله تعالى التوفيق للصواب في القول، والسداد في العمل، والإخلاص في القصد، هو حسبنا ونعم الوكيل.

المبحث الأول

قضية الضاد في التراث العربي القديم

تعتمد قراءة القرآن الكريم على التلقي الشفوي من فم المعلم، وكان رسول الله ﷺ يقول للصحابة، رضي الله عنهم: «اقرؤوا كما عُلِّمْتُمْ»[1]، وكان قرَّاء القرآن الأوائل من الصحابة والتابعين يقولون: «القراءة سُنَّةٌ، يأخذها الآخِرُ من الأول»[2]. «والأخبار الواردة عن السلف والأئمة والعلماء في هذا المعنى كثيرة»[3].

وظل علماء القراءة يُعَلِّمُونَ القراءات بالرواية، ويضبطون النطق بالمشافهة، طيلة أعوام القرن الهجري الأول، وعقوداً من القرن الثاني، ثم صارت المعارف علوماً، وظهرت المؤلفات في علوم القرآن والعربية، وكان لوصف أصوات العربية نصيب في تلك المؤلفات، ونجد أقدم وصف صوتي لصوت الضاد في كتاب سيبويه، الذي ترك أثراً واضحاً في دراسة أصوات العربية ومباحث علم التجويد، خاصة من جهة دراسة مخارج الحروف وصفاتها، وسوف أعرض موضوع الضاد في التراث العربي القديم في فقرتين: الأُولى: الضاد عند سيبويه، والثانية: الضاد عند علماء العربية والتجويد بعد سيبويه.

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ١/ ١٢، وأبو شامة: المرشد الوجيز ص٨٤.

(٢) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص٤٩ - ٥٥.

(٣) جامع البيان ١٢ظ.

أولاً ـ الضاد عند سيبويه:

تتحدد معالم الصوت اللغوي بمعرفة مخرجه من آلة النطق، وتعيين صفاته التي تنشأ عن تشكُّل بعض آلة النطق في هيئات مخصوصة، لكن الحديث عن أي صوت لغوي لا يكتمل إلا بالوقوف على سلوك الصوت في السلسلة الكلامية وعلاقته بما يجاوره من أصوات.

أما مخرج الضاد فقد حدده سيبويه بقوله: «ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد»[1]. و«للسان حافتان من أصله إلى رأسه كحافتي الوادي، وهما جانباه»[2]. ويريد سيبويه بأول حافة اللسان حافته من جهة أقصىٰ اللسان لا من جهة طرفه، لأنه ذكر مخارج الحروف مبتدئاً بمخارج الحلق صاعداً إلى مخارج الفم والشفتين، وتشارك اللامُ الضادَ في المخرج إلا أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان واللام مخرجها من أدنىٰ حافة اللسان من جهة طرفه، قال سيبويه في تحديد مخرج اللام: «ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهىٰ طرف اللسان»[3].

أما صفات الضاد فقد ذكر سيبويه منها: الجهر، والرخاوة، والإطباق، والاستعلاء والاستطالة:

١- المجهور عند سيبويه «حرف أُشبع الاعتماد في موضعه، ومُـنِـعَ النَّـفَس أن يجريَ معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت»، وضد المجهور المهموس، والأصوات المهموسة عند سيبويه عشر، وما عداها مجهور، وذكر الضاد ضمن الأصوات المجهورة[4]. ويعرِّف علماء الأصوات المحدثون الصوت

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٢) الوفائي: الجواهر المضية ١٩ظ.

(٣) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٤) الكتاب ٤/ ٤٣٤.

المجهور على نحو أكثر وضوحاً وتحديداً من تعريف سيبويه فيقولون: المجهور هو الصوت الذي يهتز الوتران الصوتيان عند النطق به(١).

٢- والصوت الرخو عند سيبويه ضد الشديد، وقد عَرَّفَ الشديد بقوله: «هو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه» وذكر الضاد ضمن الأصوات الرخوة(٢). وواضح أن سيبويه يريد بالشديد الصوت الذي يُحْبَسُ النَّـفَس في مخرجه، ثم يُطْلَقُ، وبالرخو الصوت الذي لا يُحْبَسُ النَّفسُ في مخرجه، وإنما يضيق المخرج حتى يمر النَّـفَس من منفذ ضيق، ومن المحدثين من يسمي الشديد الصوت الانفجاري والرخو الصوت الاحتكاكي(٣).

٣- والضاد صوت مطبق، ومعنى الإطباق أن أقصى اللسان يتصعد باتجاه أقصى الحنك = (أقصى سقف الفم) عند وضع طرف اللسان في مخرج الحرف فيتخذ اللسان شكلاً مقعراً كالطبق. وقد تحدث سيبويه عن الإطباق والحروف المطبقة حيث قال: «ومنها المطبقة والمنفتحة، فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء. والمنفتحة ما سوى ذلك من الحروف، لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى.

وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف.

وأما الدال والزاي ونحوهما فإنما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في

---

(١) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٠، ومحمود السعران: علم اللغة ص١٤٥، وكمال محمد بشر: الأصوات ص١٠٩، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص١٠٦.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٣) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٢٣ - ٢٤، وكمال محمد بشر: الأصوات ص٢٧.

مواضعهن، فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُيِّن ذلك بحصر الصوت. ولولا الإطباق لصارت الضاد دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها»[١].

٤- ذكر سيبويه صوت الضاد مع الحروف المستعلية، لكنه لم يوضح صفة الاستعلاء وإنما جاء كلامه عن الحروف المستعلية في أثناء حديثه عن الحروف التي تمنع الإمالة، وذلك في قوله: «فالحروف التي تمنع المالة هذه السبعة: الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء... وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى»[٢]، ثم قال بعد ذلك: «فكان الانحدار أخف عليهم من الاستعلاء من أن يصعدوا من حال التسفل»[٣].

وقد اعتنى علماء العربية وعلماء التجويد بعد سيبويه بالحديث عن صفة الاستعلاء، فعرَّفوا الاستعلاء بقولهم: «الاستعلاء أن يستعلي أقصى اللسان عند النطق بالحرف إلى جهة الحنك الأعلى»[٤]. وقال ابن جني: «وللحروف انقسام آخر: إلى الاستعلاء والانخفاض، فالمستعلية سبعة... وما عدا هذه الحروف فمنخفض، ومعنى الاستعلاء أن تتصعد في الحنك الأعلى، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق، وقد ذكرناها، وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها»[٥].

٥- الاستطالة: وصف سيبويه الضاد بالاستطالة وذلك في أثناء حديثه عن الإدغام، فمن ذلك قوله وهو يتحدث إدغام لام المعرفة: «لأن الضاد استطالت لرخاوتها

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٦.

(٢) الكتاب ٤/١٢٨ - ١٢٩.

(٣) الكتاب ٤/١٣٠.

(٤) المرعشي: جهد المقل ١٤و.

(٥) سر صناعة الإعراب ١/٧١، وينظر: الداني: التحديد ص١٠٨، وعبد الوهاب القرطبي: الموضح ٩٠ - ٩١.

حتى اتصلت بمخرج اللام»[1]، وقال في موضع آخر: «والإدغام في الضاد أقوى، لأنها قد خالطت باستطالتها الثنية»[2]. وقال المرعشي في توضيح معنى الاستطالة: «إنها امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها»[3].

أما علاقة صوت الضاد بغيره من الأصوات عند مجاورته لها في السلسلة الكلامية فقد وضحها سيبويه في أثناء حديثه عن الإدغام بين الحروف، والإدغام هو أن يلتقي صوتان متماثلان أو متقاربان والأول منهما ساكن، فينطق بالحرفين نطقاً واحداً بعد قلب الأول إلى جنس الثاني في حالة المتقاربين.

ونظراً لتميز الضاد بالمخرج، وبصفة الاستطالة، فإنها امتنعت عن الإدغام في غيرها، قال ابن يعيش: «الضاد تدغم في مثلها فقط كقولك: ٱدْحَضْ ضَرَمَةً، ولا تدغم في غيرها لما فيها من الاستطالة التي يُذْهِبُهَا الإدغام»[4]. وكان سيبويه قد ذكر معنى ما ذكره ابن يعيش حين قال: «ويكرهون أن يدغموه، يعني الضاد، فيما أُدغم فيها من هذه الحروف»[5].

ويستخلص من كلام سيبويه في باب الإدغام أن الحروف التي تدغم في الضاد سبعة، هي: اللام، والطاء، والدال، والتاء، والظاء، والذال، والثاء[6].

وذكر ابن يعيش أنه «قد رُوِيَ عن أبي عمرو [بن العلاء] إدغام الضاد في الشين في قوله: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴿٦٢﴾﴾ [النور]، قال ابن مجاهد: لم يَرْوِ عنه هذا إلا أبو شعيب السوسي، وهو خلاف قول سيبويه»[7].

---

(١) الكتاب ٤/٤٥٧.

(٢) الكتاب ٤/٤٦٦.

(٣) جهد المقل ١٧و.

(٤) شرح المفصل ١٠/١٤٠.

(٥) الكتاب ٤/٤٦٦.

(٦) الكتاب ٤/٤٥٧، ٤٦٥، وينظر: ابن السراج: الأصول ٣/٤٢٦.

(٧) شرح المفصل ١٠/١٤٠، وينظر: ابن الجزري: النشر ١/٢٩٣.

ويمكن تلخيص ما ذكره سيبويه عن الضاد في النقاط الآتية:

١- الضاد تميزت بمخرجها، فهي من حافة اللسان من أقصاها، مع ما يقابلها من الأضراس، وكان سيبويه قد ذكر (الضاد) قبل الجيم حين رتب الحروف (..ك ض ج ش ي..)[1]، لكنه جعل مخرج الضاد بعد مخرج حروف وسط اللسان (ج ش ي) باتجاه طرف اللسان[2]. وكان الخليل بن أحمد قد قال: «الجيم والشين والضاد في حيز واحد» وسماها شَجْرية لأن مبدأها من شَجْر الفم، وهو مَفْرِجُه[3].

٢- والضاد التي وصفها سيبويه صوت رخو لا ينحبس النفس في مخرجه، مجهور يتذبذب الوتران عند النطق به، مطبقٌ، مستعلٍ، تميز بالاستطالة.

٣- وكل حرف فيه زيادة صوت لا يدغم في ما هو أنقص صوتاً منه، وفي الضاد استطالة ليست لشيء من الحروف فلم يدغموها في شيء من الحروف المقاربة لها، إلا ما روي من إدغامها في الشين في قوله تعالى: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ ﴿٦٢﴾﴾ وسَوَّغ ذلك ما في الشين من تفشٍ يشبه الاستطالة يقربها من الضاد[4]، ومن ثَمَّ أُدغمت اللام والتاء والدال والطاء والثاء والذال والظاء في الضاد، ولم تدغم هي فيها.

٤- الضاد بهذه الصفات صوت متفرد، ولهذا قال سيبويه: لولا الإطباق... لخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس من موضعها شيء غيرها.

٥- ويحسن بنا قبل أن نترك الحديث عن الضاد عند سيبويه أن نشير إلى ما ذكره

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣١.

(٢) الكتاب ٤/ ٤٣٣.

(٣) العين ١/ ٥٨.

(٤) ينظر: ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/ ١٤٠.

عن الضاد الضعيفة، وهي أحد الحروف الفرعية غير المستحسنة في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهو قوله: «إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر، وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلّف الإطباق مع إزالته عن موضعه، وإنما جاز هذا فيها لأنك تُحَوِّلُهَا من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخف، لأنها من حافة اللسان وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان، فَسَهُلَ تحويلها إلى الأيسر، لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن، ثم تَنْسَلُّ من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن»[1].

وليس من اليسير توضيح كلام سيبويه عن الضاد الضعيفة أو تحديد مراده منه، لأن الضاد العربية التي وصفها سيبويه مجهولة اليوم عند الدارسين، وكذلك ما تفرع عنها، أيضاً، لكننا سوف ننقل ما قاله بعض علماء العربية الأوائل عن الضاد الضعيفة في الفقرة الآتية من هذا البحث.

ثانياً ـ الضاد عند علماء العربية والتجويد بعد سيبويه:

صار ما كتبه سيبويه في الكتاب عن الأصوات العربية أساساً لعلماء العربية وعلماء التجويد في حديثهم عن موضوع الأصوات وتحليلهم للظواهر الصوتية الخاصة بالنطق العربي ووصفها وتعليلها، ومن ثَمَّ فإن تحديد سيبويه لملامح صوت الضاد من حيث المخرج والصفات ظل يتكرر في كتب اللغة وكتب التجويد، فالمخرج من أول حافة اللسان، والصفات: الجهر، والرخاوة، والإطباق، والاستطالة. ولكن ينبغي القول إلى جانب ذلك إن حديث من جاء بعد سيبويه عن الضاد لا يخلو من جديد، خاصة ما كتبه علماء التجويد، فإنهم

---

(١) الكتاب ٤/ ٤٣٢.

حرصوا على التنبيه على ما أخذ يلحق هذا الصوت من تغير، والتحذير من نطقه على صورة تخالف ما كان عليه في القرون الأُولى، وسوف أُركز هنا على إيضاح هذه الناحية من قضية الضاد.

بعدما تفاقمت مشكلة نطق الضاد في القرن الرابع الهجري وما بعده ازدادت عناية علماء العربية وعلماء قراءة القرآن والتجويد بالموضوع، ولكن يمكن أن نميز بوضوح اتجاهين في معالجة قضية الضاد:

الاتجاه الأول: يتمثل في العناية بجمع الألفاظ التي تنطق بالضاد والظاء في رسائل تشبه المعجمات الصغيرة، يسهل الرجوع إليها ومعرفة ما يكتب من تلك الألفاظ بالظاء أو بالضاد، وهذا الاتجاه هو الذي استأثر بجهود اللغويين والنحاة، وكانت جهودهم مركزة على التمييز الكتابي للضاد والظاء، ولا تتعرض للجانب الصوتي، وقد بلغ ما كُتِبَ من تلك الرسائل العشرات، وطبع عدد منها، مثل رسالة الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) في الضاد والظاء، ورسالة محمد بن نشوان الحميري (ت ٦١٠هـ) وغيرها[١].

الاتجاه الثاني: يتمثل في دراسة الخصائص النطقية لصوت الضاد، والانحرافات التي تلحقه على ألسنة الناطقين، والأصوات التي يختلط بها أو يقترب منها، وكان لعلماء التجويد إسهام واضح في هذا المجال، حتى إنهم أَلَّفُوا في ذلك رسائل وكتيبات، لا تقل أهمية عما كتبه علماء العربية، إن لم تكن أكثر فائدة للباحث في مجال النطق والمتتبع لما لحق صوت الضاد من تغير، ومن أشهر هذه الكتب[٢]:

---

(١) أحصى الدكتور حاتم صالح الضامن في مقدمة تحقيقه كتاب (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد) لابن مالك، أكثر من أربعين كتاباً في هذا الموضوع. (ينظر: مجلة المجمع العلمي العراقي مج٣١ ج٣ ص٢ - ٨).

(٢) ينظر: كتابي: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٣٨ - ٣٩.

١- غاية المراد في إخراج الضاد، لابن النجار (محمد بن أحمد ت ٨٧٠هـ)[1].

٢- بغية المرتاد لتصحيح الضاد، لابن غانم المقدسي (علي بن محمد ت ١٠٠٤هـ)[2].

٣- رسالة في كيفية الضاد، لمحمد المرعشي (الملقب ساجقلي زاده ت ١١٥٠هـ)[3]

ولا يتسع هذا البحث لاستعراض مادة هذه الكتب وتتبع ما تضمنته من مناقشات، ولذلك سوف أكتفي باقتطاف نصوص من هذه الرسائل ومن كتب علم التجويد لتأكيد حقيقتين، الأولى: أن هناك تغيراً حصل في نطق الضاد، والثانية: أن علماء التجويد كانوا مشغولين بتحديد ملامح ذلك التغير، وأنهم كانوا حريصين على التمسك بالصورة الأولى لنطق الضاد.

كان حديث سيبويه عن الضاد الضعيفة إعلاناً عن صعوبات كانت تواجه الناطقين بالعربية في نطق هذا الصوت، وحاول السيرافي (ت ٣٦٨هـ) أن يخص تلك الصعوبات بأقوام ليس في لغتهم ضاد، فقال: وأما الضاد الضعيفة فإنها من لغة قوم ليس في لغتهم ضاد، فإذا احتاجوا إلى التكلم بها من العربية اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها ظاء، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما تكلفوا إخراجها من مخرج الضاد، فلم تتأت لهم، فتخرج بين الضاد والظاء.[4]

---

(١) حققه الدكتور طه محسن، ونشره في مجلة المجمع العلمي العراقي.

(٢) حققه الدكتور محمد عبد الجبار المعيبد، ونشره في مجلة المورد ببغداد.

(٣) حققه الدكتور حاتم صالح الضامن، وهو قيد النشر الآن.

(٤) ينظر: شرح الكتاب ٦/ ٤٤٩، وعبد الوهاب القرطبي: الموضح ص٨٦.

لكن تلك الصعوبات في نطق الضاد لم تلبث أن تفاقمت حتى صارت تواجه قراء القرآن الكريم، ونجد هنا علماء التجويد يهتمون بهذا الأمر، وينبهون عليه، ويحذرون من الوقوع فيه.

قال مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ): «ولا بد (للقارئ) من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت، فهو أمر يقصر فيه أكثرُ مَنْ رأيت من القراء والأئمة.. ومتى فرط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مُبَدِّلاً ومُغَيِّراً، والضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخل بقراءته»[١].

وقال الداني (ت ٤٤٤هـ) عن نطق الضاد: «ومن آكدِ ما على القراء أن يخلصوه من حرف الظاء بإخراجه من موضعه، وإيفائه حقه من الاستطالة»[٢].

وقال عبد الوهاب القرطبي (ت٤٦١هـ): «وأكثر القراء اليوم على إخراج الضاد من مخرج الظاء، ويجب أن تكون العناية بتحقيقها تامة، لأن إخراجها ظاءً تبديلٌ»[٣].

وقال ابن وثيق الأندلسي (ت٦٥٤هـ) عن الضاد: «وَقَلَّ مَنْ يُحْكِمُهَا من الناس»[٤].

وكان ابن الجزري(ت ٨٣٣هـ)قد حدد الأصوات التي يتحول إليها الضاد على ألسنة المعاصرين له، فقال في كتابه النشر: «والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقَلَّ مَنْ يُحْسِنُهُ:

---

(١) الرعاية ص١٥٨-١٥٩.

(٢) التحديد ص١٦٤.

(٣) الموضح ص١١٤.

(٤) كتاب في تجويد القاراءة ٧٩و.

فمنهم من يخرجه ظاءً.

ومنهم من يمزجه بالذال.

ومنهم من يجعله لاماً مفخمة.

ومنهم من يُشِمُّه بالزاي. وكل ذلك لا يجوز»[1].

وقال في كتابه «التمهيد في علم التجويد»: «واعلم أن هذا الحرف ليس من الحروف حرف يعسر على اللسان غيره، والناس يتفاضلون في النطق به:

فمنهم من يجعله ظاء مطلقاً... وهم أكثر الشاميين وبعض أهل المشرق.

ومنهم من لا يوصلها إلى مخرجها بل يخرجها دونه ممزوجة بالطاء المهملة، لا يقدرون على غير ذلك، وهم أكثر المصريين وبعض أهل المغرب.

ومنهم من يخرجها لاماً مفخمة، وهم الزيالع ومن ضاهاهم»[2].

ويبدو أن نطق الضاد لدى المتأخرين بعد ابن الجزري قد اتخذ شكلين: نطقه شبيهاً بالظاء، او نطقه شبيهاً بالطاء، لكن من المؤلفين في كيفية أداء الضاد مَنْ بالغ في إنكار نطق الضاد شبيهة بالطاء، فهذا ابن غانم المقدسي يقول في مقدمة رسالته (بغية المرتاد لتصحيح الضاد): «فَلْيُعْلَمْ أن أصل هذه المسألة أنهم ينطقون بالضاد ممزوجة بالدال المفخمة والطاء المهملة، وينكرون على من ينطقون بها قريبة من الظاء المعجمة، بحيث يتوهم بعضهم أنها هي، وليس كما توهمه»[3]. وجعل الفصل الثاني من رسالته «في ما يدل بالتصريح على أن التلفظ بالضاد شبيهة بالظاء هو الصحيح، وهو المنقول من كلام العلماء الفحول المتلقىٰ كلامهم بالقبول»[4].

---

(١) النشر ١/٢١٩.

(٢) التمهيد ص١٤٠ - ١٤١.

(٣) بغية المرتاد ٢ظ.

(٤) المصدر نفسه ٦ظ.

وختم ابن غانم المقدسي الرسالة بقوله:

«إن من ينطق بالضاد من مخرجها الخالص، مع صفاتها المميزة لها حتى عن الظاء، فهو في أعلى مراتب النطق بها ومن الفصاحة.

ودُوَنهُ مَنْ ينطق بها من مخرجها مشوبة بالظاء، لكن من مخرجها وبينها نوع فرق.

ودونه من ينطق بها ظاء خالصة.

ومن يشمها الذال.

ومن يشمها الزاي.

ومن يجعلها لاماً مفخمة.

وكذا من ينطق بالضاد طائية، فهو في أسفل مراتب النطقية بالنسبة إلى من سبق ذكره»(١).

وأكد محمد المرعشي هذا الاتجاه في رسالته (كيفية أداء الضاد، فقال: «وأما المقصد فهو أن ما شاع في أكثر الأقطار من تلفظ الضاد المعجمة كالطاء المهملة في السمع بسبب إعطائها شدة وإطباقاً أقوى كإطباق الطاء وتفخيماً بالغاً كتفخيمها خطأ بوجوده»(٢).

وقال المرعشي في كتابه (جهد المقل): «ليس بين الضاد المعجمة والطاء المهملة تشابه في السمع... فما اشتهر في زماننا هذا من قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فهو عجب لا يعرف له سبب»(٣).

ويمكن أن نستخلص من العرض السابق لأقوال العلماء في كيفية نطق الضاد في القرون السابقة الحقائق الآتية:

---

(١) المصدر نفسه ٩ظ.

(٢) كيفية أداء الضاد ٢ظ.

(٣) جهد المقل ٢٠ظ.

١- صعوبة نطق الضاد التي وصفها سيبويه.

٢- انحراف ألسنة الناطقين عن نطق الضاد القديمة إلى نطق أصوات أُخرى مكانها.

٣- لم يتحول صوت الضاد على ألسنة الناطقين بالعربية في العصور المتلاحقة إلى صوت معين واحد، وإنما ظهر في أصوات متعددة، منها:

أ ـ الظاء.

ب ـ اللام المفخمة.

ج ـ مزجها بالذال، أو بالزاي.

د ـ مزجها بالدال والطاء (الضاد الطائية).

٤- كان علماء التجويد المتاخرون أشد إنكاراً لنطق (الضاد الطائية) مكان الضاد القديمة، من إنكارهم لنطق الأصوات الأخرى البديلة عن الضاد.

٥- إن اعتبار (الضاد الطائية) في زماننا هي الضاد التي يجب أن ينطقها قراء القرآن يثير مفارقة كبيرة بين موقف علماء القراءة في زماننا وموقفهم قبل قرنين أو ثلاث، من هذه المسألة. وهو ما نحاول عرضه والحديث عنه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني
قضية الضاد في العصر الحديث

يجْمِعُ اللغويون المهتمون بالنطق العربي في العصر الحديث أن الضاد التي وصفها سيبويه بأنها صوت حَافِيٌّ، رِخْوٌ، مجهورٌ، مطبقٌ، مُسْتَعْلٍ، مستطيل، لم تعد تجري على ألسنة الناطقين بالعربية، وقد صارت على ألسنة قسم من العرب ظاءً خالصة، كما ينطق بها أهل العراق وبلدان الجزيرة العربية، ودالاً مطبقة (أو طاءً مجهورة)، كما ينطق بها أهل مصر وبلاد الشام[1].

---

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٤٨، وجان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية ص٧٨، ويوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن ص٦٩، وحسام النعيمي: أصوات العربية بين التحول والثبات ص٥٠.

وإذا كان هذا ما آلت إليه الضاد، فكيف تُنْطَقُ اليوم في قراءة القرآن الكريم، وكيف توصف في كتب علم التجويد المؤلفة حديثاً، وما هي المسائل التي تترتب على ما أصاب صوت الضاد من تغير؟

أولاً ـ الضاد في قراءة القرآن اليوم:

يحتل قراء القرآن من المصريين في عصرنا موقع الريادة في العالم الإسلامي، سواء في احتراف قراءة القرآن، أم في التدريس في معاهد الإقراء، وهم ينطقون الضاد طاءً مجهورة أو دالاً مطبقة، أو ما سماه ابن غانم المقدسي من قبل (الضاد الطائية)، وهي صوت يشارك التاء والدال والطاء في المخرج، فهي تخرج من بين طرف اللسان وأُصول الثنايا أو اللثة، وهي صوت شديد، مجهور، مطبق.

وكان تأثير قراء القرآن المصريين كبيراً في العالم الإسلامي، ونسمع قراء القرآن في الحرم المكي والحرم المدني اليوم يتابعونهم في نطق الضاد، وكذلك قراء كثير من بلدان العالم الإسلامي، ونسمع قراء القرآن من المحترفين في العراق يتابعونهم أيضاً، لكن بعضهم يحاول أن يضع طرف لسانه ذات اليمين أو ذات الشمال من الفم، ظناً منهم أن ذلك هو ما عناه سيبويه بقوله (من الجانب الأيسر، أو من الجانب الأيمن) وهذا وَهْمٌ لا يسنده دليل، لأن سيبويه كان يريد بالجانب حافة اللسان وليس طرفه.

وصوت الضاد الذي نسمعه من مجيدي قراءة القرآن في زماننا يختلف عن الضاد التي وصفها سيبويه، وتحدث عنها علماء القراءة والتجويد السابقين في كتبهم، في المخرج وفي عدد من الصفات، فالضاد القديمة مخرجها من حافة اللسان، ومخرج الضاد اليوم من طرف اللسان واللثة، والضاد القديمة صوت رخو، والضاد اليوم صوت شديد، كما أن الضاد القديمة صوت تميز بالاستطالة، والضاد اليوم تفتقد هذه الصفة، ويمكن أن نضع الصوتين في جدول تظهر من

خلاله نقاط الاختلاف والاتفاق بينهما، كما نضع معها صوت الظاء وصوت الدال لتتضح علاقة الضاد بهما قديماً وحديثاً:

الضاد القديمة	الضاد الحديثة	الظاء	الدال
حافِيٌّ	لثوي	أسناني	لثوي
رخو	شديد	رخو	شديد
مجهور	مجهور	مجهور	مجهور
مطبق	مطبق	مطبق	منفتح
مستطيل	——	——	——

ويظهر من هذا الجدول أن الطاء تشارك الضاد القديمة في أكثر صفاتها، ولعل هذا يفسر تحولها إلى ظاء على ألسنة كثير من الناطقين قديماً وحديثاً، أما الضاد الحديثة فإنها نظير صوت الدال، وتشاركه في المخرج، والصفات ما عدا صفة الإطباق، فالضاد الحديثة صوت مطبق، والدال صوت منفتح، والضاد الحديثة بهذا الشكل تشارك كلاً من التاء والطاء والدال في المخرج، كما تشاركهما في عدد من الصفات، وهي لم تعد ذلك الصوت المتفرد الذي قال عنه سيبويه: ولولا الإطباق لخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها، فاليوم لولا الإطباق لصارت الضاد دالاً، ولولا الجهر لصارت الضاد طاءً، أعني الطاء الحديثة المهموسة، لأن القدماء من علماء العربية والتجويد وصفوا صوت الطاء أنه صوت مجهور، وهو بهذا الوصف يتطابق في كل شيء مع الضاد الحديثة، أو هو هي. وهذه قضية أُخرى لا نريد الخوض فيها هنا حتى لا نبتعد عن موضوع الضاد.

ثانيا: الضاد في كتب علم التجويد المعاصرة:

كنت قد نظرت في أكثر من ثلاثين رسالة أو كتاباً في علم التجويد وقواعد التلاوة، مما أُلِّفَ في القرن الأخير، في بلدانٍ متعددة من العالم الإسلامي، حين كتبتُ بحثي (مناهج كتب تعليم قواعد التلاوة ـ ملاحظات حول المادة والمنهج)(١) ووجدت أن مؤلفي تلك الكتب قد التزموا بنقل ما ورد في كتب علم التجويد القديمة في تحديد مخرج الضاد وبيان صفاته، وهو ما لم يعد ينطبق على نطق قراء القرآن الكريم للضاد في زماننا.

وثَمَّ ملاحظة أخرى هي أن المؤلفين المعاصرين حين ينقلون عبارات الكتب القديمة لم يحافظوا على نصها، فأصابه تحريف يجعل دلالتها مضطربة ومتباينة، فإذا كان سيبويه قد قال في تحديد مخرج الضاد: «من بين أول حافة اللسان وما يليه (أو يليها) من الأضراس» فإننا نجد أن المحدثين قد نقلوا هذه العبارة على نحو محرَّف ومضطرب، ويمكن أن ينظر القارئ في المبحث الثاني من بحث (مناهج كتب تعليم قواعد التلاوة) ليلاحظ ما حصل من اضطراب في وصف الضاد وتحديد مخرجه.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يعد مقبولاً نقل عبارة سيبويه في كتب علم التجويد التعليمية اليوم، لأن ذلك يشوش على المتعلمين كما أنه يدل على قصور في القاعدة العلمية لدى مؤلفي تلك الكتب، وذلك بعد أن تصدى للتأليف في هذا العلم من ليس له تخصص فيه، وحُسْنُ النية وحده لا يكفي في معالجة دقائق هذا العلم، كما أن حسن الأداء وحده ليس دليلاً على كفاية الشخص للتصدي للتأليف في هذا العلم!

وإذا صَحَّ ما تقدم، والشواهد كلها تدل على أنه صحيح، فينبغي أن يعاد النظر في طريقة وصف الضاد في الكتب المؤلفة في علم التجويد في زماننا، حتى يتطابق الوصف مع الأداء، فالضاد اليوم صوت لثوي، شديد (انفجاري)

مجهور، مطبق، ويمكن في البحوث التاريخية في هذا العلم الإشارة إلى الوصف القديم للضاد، حتى يكون المتخصصون على بينة من هذه الحقيقة.

ومن المهتمين بعلم التجويد وقراءة القرآن في زماننا من لا يتصور حصول مثل هذا التغير في نطق الضاد، أو أنه لا يدركه، ولذلك فهو يقف في وجه من يدعو إلى إعادة النظر في طريقة وصف الضاد في كتب قواعد التلاوة، وهو معذور في ذلك، لأن الغيرة على كتاب الله تعالى والحرص على المحافظة على تلاوته نقيةً خالصةً تدفعه إلى ذلك الموقف، لكن ذلك أيضاً هو الذي يدفعنا إلى ما نقوله وندعو إليه.

وأحسب أن الأمر بحاجة إلى أن يلتقي المهتمون بتلاوة القرآن، تأليفاً وتعليماً وأداءً، والمهتمون بدراسة أصوات العربية لتدارس هذا الموضوع، وما يشبهه من موضوعات، حتى يحصل كل تجديد في صياغة قواعد التلاوة على إجماع المتخصصين بهذا الموضوع من أبناء الأمة، وإذا كانت المسابقات تعقد كل عام في تلاوة القرآن وحفظه، في مختلف بقاع العالم الإسلامي، فإن عقد لقاءات لتدارس قضايا التلاوة لا يقل أهمية عن عقد مثل تلك المسابقات.

ولعل من المفيد الإشارة هنا إلى أن علماء التجويد كانوا مشغولين بقضية الضاد ويشيرون إليها في كتبهم منذ ظهور التأليف في هذا العلم، وأن اهتمامهم بهذا الموضوع حملهم على تأليف رسائل مستقلة فيه كما فعل ابن غانم المقدسي ومحمد المرعشي وغيرهما، لكن المؤلفين في هذا العلم في العصر الحديث قد تناسوا الموضوع وأغفلوا الإشارة إليه، إما لصعوبة الموضوع، أو عدم إدراكهم لأبعاد هذه القضية أصلاً.

ثالثاً: مسائل تترتب على تغير نطق الضاد:

وصف علماء التجويد وعلماء العربية صوت الضاد بأنه يتميز بصفة الاستطالة،

والاستطالة: «امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها»[1]. و «كل حرف فيه زيادة صوت لا يدغم فيما هو أنقص صوتاً منه»[2]. وقد مرَّ الحديث عن الحروف التي تدغم في الضاد وهي: د ت ط، ث ذ ظ، ل، لكن الضاد امتنعت من أن تُدغم في غيرها لتميزها بصفة الاستطالة، ورُويَ إدغامها في الشين لما بينهما من تقارب بسبب التشابه بين الاستطالة والتفشي، وهو مع ذلك خلاف إجماع أهل اللغة وقراء القرآن.

وإذا كان صوت الضاد اليوم من مخرج التاء والدال والطاء، وأنه يشاركها في الشدة، ويشارك الدال في الجهر، والطاء في الإطباق، وأنه فَقَدَ صفة الاستطالة فهل يؤدي ذلك إلى تغير علاقة الضاد بهذه الأصوات؟ فالملاحظ أن علماء التجويد كانوا إذا جاور الضادُ واحداً من هذه الأصوات يُحَذِّرونَ من حصول الإدغام، قال الداني: «فإن التقى بتاء تُوُصِّلَ إلى إظهاره بتُؤَدَةٍ يُسْر، وذلك نحو ﴿أَفَضْتُم ١٩٨﴾ [البقرة] و ﴿وَخُضْتُمْ ٦٩﴾[التوبة] و ﴿عَرَّضْتُم ٢٣٥﴾ [البقرة] و ﴿فَرَضْتُمْ ٢٣٧﴾ [البقرة] و ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ ٨٠﴾ [الشعراء]، وما أشبهه. وكذا إذا التقى بطاء أو جيم أو نون أو لام أو راء، نحو ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ ١٧٣﴾ [البقرة] و ﴿ٱضْطُرِرْتُمْ ١١٩﴾ [الأنعام]، و ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥ ١٢٦﴾ [البقرة]... وما أشبهه، ومتى لم يُتَفَقَّدْ ذلك ولم يُنْعَمْ بيانه وتلخيصه اندغم»[3].

وقال عبد الغني النابلسي: «إن الإدغام على قسمين: إدغام كامل، وهو الذي سبق بيانه، وإدغام ناقص، وهو إدغام الحرف المفخم في المرقق، إذا تجانس الحرفان أو تقارب المخرجان، مع إبقاء صفة التفخيم، نحو: ﴿أَحَطتُ ٢٢﴾ [النمل]، و ﴿بَسَطتَ ٢٨﴾ [المائدة]، و ﴿مَافَرَّطتُمْ ٨٠﴾ [يوسف] فيدغم الطاء في

---

(١) المرعشي: جهد المقل ١٧و.

(٢) ابن يعيش: شرح المفصل ١٠/١٣٣.

(٣) المرعشي: جهد المقل ١٧و.

التاء... وإنما لم تدغم الضاد في الطاء نحو ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان]... والضاد في التاء نحو ﴿أَفَضْتُم﴾ و ﴿عَرَّضْتُم﴾ و ﴿فَرَضْتُمْ﴾ و﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ و ﴿فَقَبَضْتُ ﴿٩٦﴾﴾ [طه] لبعد المخرجين...»[1].

وتُدْغَمُ التاء في الطاء في مثل ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران] و ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [الصف]، وتدغم الطاء في التاء في مثل ﴿أَحَطتُ﴾ و ﴿بَسَطتَ﴾ و ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ للتجانس بين التاء والطاء، أي اتحادهما في المخرج وافتراقهما في الصفة، ولما كانت الضاد مشاركة للدال والتاء والطاء في المخرج، ومفارقة لها في بعض الصفات فإنها بذلك تكون مجانسة لها، ومن ثم فإن القياس يقتضي أن يحصل في بعض الكلمات السابقة التي يلتقي فيها الضاد بالطاء أو التاء أو الدال إدغام كامل أو ناقص، ولا يُعترض على قولنا هذا بأن القراءة سنة متبعة، ورواية مأثورة، لا تؤخذ بالقياس، لأن التمسك بالقول بعدم إدغام الضاد في هذه الحالة مبني على النطق القديم للضاد، أما أنها اليوم تنطق من مخرج الدال والتاء والطاء فيجب أن تعامل معاملتهما في الإدغام وغيره.

ومن ثم فإن حكم الضاد في مثل ﴿وَخُضْتُمْ﴾ ﴿أَفَضْتُم ﴿١٩٨﴾﴾ و ﴿مَرِضْتُ﴾و ﴿عَرَّضْتُم﴾ و ﴿فَرَضْتُمْ﴾ يجب أن يعاد النظر فيه، وأن يحمل على حكم الطاء في مثل ﴿أحطت﴾ و ﴿بسطتَ﴾ وهو الإدغام الناقص، لبقاء صفة الإطباق في الحرف الأول، قال عبد الوهاب القرطبي: «الطاء إذا سكنت وبعدها تاءٌ فإن الإدغام يجب لتقارب المخرج، ويبقى صوت من الإطباق، كقوله تعالى: ﴿أحطت﴾...»[2].

وكذلك ينبغي أن يعاد النظر في حكم الضاد في مثل ﴿أضطره﴾، و﴿فمن

(١) كفاية المستفيد ١٧ظ.

(٢) الموضح ص١٤٩ - ١٥٠.

اضطر﴾، ونحو ذلك، حملاً على ما يناظره من أمثلة يلتقي فيها صوتان من مخرج واحد.

وكذلك ينبغي أن يعاد النظر في مثل ﴿قَدْ ضلوا﴾، فإن الدال كانت لا تدغم في الضاد في المأثور من قراءة القرآن، لبعد الدال عن الضاد القديمة في المخرج والصفات، لكن اتحادهما في المخرج في قراءة القرآن اليوم يوجب تغيير الحكم بحسب ما حصل من تغيير في المخرج والصفات.

والمتأمل في رسم المصاحف اليوم يجد أن علامة السكون توضع على الضاد قبل التاء والطاء، وعلى الدال قبل الضاد، دلالة على الإظهار، ومعنى ذلك أن إعادة النظر في حكم الضاد في تلك الأمثلة يقتضي إعادة النظر في طريقة ضبطها في المصحف أيضاً.

ولا شك في أن إعادة النظر في تقرير حكم الضاد وفقاً لطريقة نطقه اليوم، وإعادة النظر في طريقة ضبطه في المصحف يحتاج إلى اتفاق كلمة المهتمين بأمر قراءة القرآن والمسؤولين عن تعليمها، لأن هذه المسائل تتصل مباشرة بالقرآن وكتابته، والإجماع مطلوب في مثل هذه الحالة. وحسبي أن لَفَتُّ نظر المعنيين، وأدعوهم إلى التفكير في ما ورد في هذه الصفحات، فإن وجدوه صحيحاً تعين عليهم الاهتمام به والتواصي باتباعه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

(٦)

اللَّحْنُ الْخَفِيُّ في الدَّرْسِ الصَّوْتِيِّ العربيِّ[١]

مقدمـة

يُعَدُّ علم الأصوات اليوم من أكثر علوم اللغة تطوراً لدى الغربيين، كما أنه من العلوم الحديثة نسبياً لديهم[٢]، لكن هناك حلقة مفقودة في تأريخ هذا العلم، تتمثل في الدراسات الصوتية العربية التي لا يعرف عنها مؤرخو علم اللغة الأوربيون إلا الشيء القليل، وهي من الغنىٰ والتنوع ما يجعلها تَتَبَوَّأُ مكانة متميزة في تأريخ هذا العلم. ولا أعني دراسات الخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم من علماء اللغة العربية فحسب، ولكني أعني أيضاً ما كتبه علماء التجويد الذين استفادوا من دراسات علماء العربية الصوتية، وأضافوا إليها إضافات قيِّمَةً، حتى صار ما كتبوه عِلْماً متميزاً له موضوعُهُ وكُتُبُهُ الخاصَّةُ به[٣].

ولا تزال هناك جوانب عديدة من الدرس الصوتي العربي القديم غير معروفة لدى كثير من المتخصصين بدراسة الأصوات اللغوية عندنا، ويرجع ذلك في معظمه إلى سببين: الأول: أن مصادر الدرس الصوتي العربي، خاصة كتب علم التجويد، لاتزال مخطوطة، والكتاب المخطوط يكون بعيداً عن متناول يد الدارسين عادة. والثاني: أن أكثر المتخصصين في دراسة الأصوات عندنا تخرجُوا في جامعات غربية تُعْنَىٰ بالجديد في دراسة الأصوات ولا تلتفت إلى التراث القديم، لا سيما التراث العربي.

---

(١) منشور في العدد الأول من مجلة جامعة تكريت العلمية.

(٢) ينظر: جورج مونين: تأريخ علم اللغة ص٢٠٥.

(٣) ينظر عن كتب علم التجويد كتابي: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص ٢٥-٤٣.

ولا يعني التقدم الكبير الذي أحرزه علم الأصوات اللغوية في زماننا أننا يجب أن نهمل تراثنا الصوتي القديم، بل علينا أن نبعث ذلك التراث وندرسه في ضوء ما وصل إليه الدرس الصوتي الحديث، وأن نضيف إليه كل فكرة جديدة نافعة، وهذا البحث يهدف إلى التعريف بفكرة اللحن الخفيِّ التي تحدَّث عنها علماء التجويد وطَبَّقُوها على النطق العربي، وكتبوا في توضيحها فصولاً في كتبهم المطوَّلة، وأفردها بعضهم برسائل مستقلة، لأني أحسب أنَّ دراسة هذا الموضوع سوف تكون مفيدة، خاصة أنَّ كثيراً من مصادر هذه الدراسة لا تزال مخطوطة لم يطلع عليه أكثر المهتمين بدراسة علم الأصوات في بلادنا.

المبحث الأول

الانحرافات النطقية في التراث الصوتي العربي

اللَّحْنُ الخَفِيُّ أحد مظاهر الانحرافات النطقية عن جادَّة الفُصْحَى، التي تتمثل أيضاً في عيوب النطق الناتجة عن خلل في آلة النطق، وفي العادات النطقية اللهجية المنحرفة عن الفصحىٰ، ويقرر علماء اللغة المحدثون أن الاختلاف بين اللغة الأدبية (الفصحى) واللهجات المرتبطة بها يتركز في الظواهر المتعلقة بنطق الأصوات، أما اختلافات البنية الصرفية أو النحوية فهي أقل بروزاً[(١)].

وكانت الانحرافات النطقية المتعلقة بالعادات اللهجية والانحرافات الناتجة عن عيوب النطق، قد حظيت بعناية عدد من الباحثين، أما الانحرافات النطقية الناتجة عن اللحن الخفي فلم تحظ بمثل تلك العناية في زماننا، ومن ثَمَّ فإن هذا البحث سوف يعطي تعريفاً موجزاً بالنوعين الأوَّلَيْنِ، ويحاول أن يقدِّمَ بياناً وافياً عما يتعلق باللحن الخفي.

---

(١) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص١٧.

أولاً ـ العادات اللهجية:

اعتنى علماء اللغة العربية بالظواهر المنهجية التي لاحظوا وجودها في اللهجات العربية القديمة، وكان نصيب الظواهر الصوتية المنحرفة عن سَنَنِ الفصحىٰ من جهودهم كبيراً، وقد أُطْلِقَتْ مصطلحاتٌ معينة على الظواهر الصوتية المنحرفة في التراث الصوتي العربي القديم، مثل الكَشْكَشَةِ، والعَجْعَجَةِ، والتَّلْتَلَةِ، والعَنْعَنَةِ، والفَحْفَحَةِ، والاسْتِنْطاء، وغيرها، واْختَصَّتْ قبيلةٌ أو أكثر من قبائل العرب، بظاهرة من هذه الظواهر الصوتية المنحرفة عن الفصحى، بحيث تستطيع أن تنسب الشخص إلى قبيلة معينة من خلال الظاهرة الصوتية التي تجري على لسانه[1].

ولا يلزم في هذا المقام استقصاء ما قيل عن تلك العادات اللهجية وما تدل عليه، فقد سبق أن قامت حولها دراسات استوفت ما ورد عنها في المصادر القديمة، وما يقدمه علم اللغة الحديث في صددها[2].

ثانياً ـ عيوب النطق:

تُصَابُ مقدرة الإنسان على النطق بالعجز الجزئي، فيختل نطقه في بعض الأصوات، وقد تقدمت دراسة عيوب النطق كثيراً في عصرنا، ويشارك فيها المتخصصون بالطب وعلم اللغة وعلم النفس، وكان يظن أَنَّ المكتبة العربية لم تعرف التأليف في هذا الموضوع من قبل[3]. ولكن لم تكن معروفة من قبل، ويمكن أن نلخص تلك الجهود في ما يأتي:

---

(١) رشيد العبيدي: عيوب اللسان واللهجات المذمومة ص ٢٤٢.

(٢) ينظر: أحمد تيمور: لهجات العرب، وهو كتيب يقع في ١٥٠ صفحة من القطع الصغير، ورمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص٩٨ - ١٣٤ فصل (ألقاب اللهجات العربية)، ورشيد العبيدي: عيوب اللسان واللهجات المذمومة، مجلة المجمع العلمي العراقي مج٣٦ ج٣ ص٢٣٦ - ٣٠٠.

(٣) مصطفى فهمي: أمراض الكلام ص٣.

١- ما ذكره الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» عن اللثغة وأنواعها والحروف التي تدخلها[١]. وما ذكره المبرد في كتابه (الكامل) عن عيوب النطق أيضاً[٢].

٢- كتاب اللُّثْغَةِ تأليف أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت بعد ٢٥٦هـ) الفيلسوف العربي المشهور، وهو لا يزال مخطوطاً في خزانة جامع أيا صوفيا باستانبول ضمن مجموع يستغرق منه الصفحات (٢١٤ - ٢٦١)، ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة رقمها (١٦٣ فلسفة ومنطق).

وقد أورد الدكتور خليل إبراهيم العطية وصفاً لمادته في كتابه «في البحث الصوتي عند العرب» فذكر أن الكتاب يتألف من ثمانية أبواب تحدَّث فيها الكندي عن أعضاء آلة النطق عند الإنسان، وعن نطق الأصوات العربية، واللثغة وأنواعها والأصوات التي تصيبها اللثغة عند العرب، وعن كيفية معالجتها[٣].

٣- كتاب بَيَانِ العيوبِ التي يَجِبُ أن يَجْتَنِبَها القرَّاءُ وإيضاحِ الأدواتِ التي بُنِيَ عليها الإقراء - تأليف أبي علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي المتوفى سنة ٤٧١هـ. وقد قسَّم ابن البناء الكتاب إلى ثلاثة عشر باباً، تحدث فيها عن عيوب الهيئات عند القراء، إلى جانب بيانه عيوب الأصوات، وتحدث في بعض أبواب الكتاب عن كيفيات القراءة من الحدر والترتيل وقراءة القرآن والألحان وما يتصل بذلك.

وذكر ابن البناء عدداً من الظواهر الصوتية المتكلفة والعادات النطقية المنحرفة مثل: التَّرْعِيدِ، والزَّحْرِ، والتَّشْدِيقِ، والطَّحْرِ، والتَكليم، واللَّكْزِ، والتَّمْضِيغِ، والوَكْزِ.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٤ وما بعدها.

(٢) الكامل ٢/ ٥٧٨ وما بعدها.

(٣) في البحث الصوتي عند العرب ص٩٤ - ٩٦.

وذكر من عيوب النطق أو أمراض الكلام: التَّمْتَمَةِ، والحُبْسَةِ، والحُكْلَةِ، والخُنَّةِ، والرُّتَّةِ، والتَّرْخِيمِ، والطَّمْطَمَةِ، والعَجَلَةِ، والعُقْلَةِ، والغَمْغَمَةِ، والغُنَّةِ، والفَأْفَأَةِ، واللُّثْغَةِ، واللَّجْلَجَةِ، واللَّغَفِ، واللُّكْنَـةِ(١).

وعلى الرغم من أن الدارسين المحدثين لا يَعُدُّونَ البحث في عيوب النطق، وعلاجها من اختصاص علماء الأصوات اللغوية، إنما يدخل في أبحاث علم النفس ومجال الطب، فإن الدراسات اللغوية الصوتية تظل ضرورية لهذا النوع من البحث، لأن تشخيص عيوب النطق ومحاولة علاجها يتطلب معرفةً بوسائل العلاج النفسي والعضوي(٢).

ثالثاً ـ اللحن الخفي:

اللحن من المصطلحات القديمة في الدرس اللغوي العربي القديم، ومعناه الخطأ في الكلام، يقال: لَحَنَ يَلْحَنُ لَحْناً ولَحَناً: تَرَكَ الصوابَ(٣) في القراءةِ والنشيدِ ونحو ذلك، ورجل لاحِنٌ ولَحَّانٌ ولَحَّانةٌ: كثيرُ اللحن. وكان فُشُوُّ اللحنِ وفساد اللغة العربية على ألسنة الناطقين بها بعد الإسلام السبب الذي دعا العلماء إلى وضع قواعد اللغة وظهور علم النحو(٤).

وأُلِّفَتْ عشرات الكتب في موضوع (لحن العامة)، وهي تعالج ما وقع من مخالفة العربية الفصحى في الأصوات، أو في الصيغ، أو في تركيب الجمل وحركات الإعراب، أو في دلالة الألفاظ في كلام غير المتخصصين في دراسة

---

(١) حققْتُ الكتاب ونُشِرَ في مجلة معهد المخطوطات العربية في الكويت سنة ١٩٨٧م، مج٣١ ج١ ص٧ - ٥٨ وطبع في دار عمار/ الأردن ٢٠٠١م.

(٢) ينظر: عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة ص٢٤، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٣٥٣.

(٣) ابن منظور: لسان العرب ١٧/ ٢٦٣ (لحن).

(٤) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص١١.

اللغة من المثقفين عامة ومن غيرهم، وحَظِيَ هذا الموضوع بعناية عدد من الدارسين المُحْدَثينَ، كما حَظِيَتْ كتبه القديمة بالدراسة والتحقيق[1].

وفي القرن الرابع الهجري ظهر مصطلح (اللحن الخفي) واسْتُعْمِلَ للدلالة على نوع محدد من الأخطاء اللغوية، وهو المتعلق بنطق الأصوات والانحراف الدقيق عن توفية الأصوات صفاتها الصوتية كاملة في عملية النطق. ولم يحظ هذا المعنى للحن بعناية علماء العربية، وإنما هو مصطلح وضعه علماء التجويد وطَبَّقُوهُ في دراستهم للنطق العربي وتلاوة القرآن خاصة، وسوف نحاول هنا توضيح دلالة مصطلح اللحن الخفي وتأريخ ظهوره واستعماله، قبل أن نعرض الظواهر الصوتية التي عالجها علماء التجويد في إطار دلالة هذا المصطلح في المبحث الثاني من هذا البحث.

١- دلالة مصطلح اللحن الخفي وتأريخ ظهوره:

تشير المصادر إلى أن ابن مجاهد البغدادي (أبا بكر أحمد بن موسى ت٣٢٤هـ) هو أول من قسم اللحن على قسمين: لَحْنٍ جَلِيٍّ ولَحْنٍ خَفِيٍّ، وأول من أعطى تحديداً لدلالتهما، فقد نقل أحمد بن نصر الشذَّائِي (ت٣٧٣هـ) عن ابن مجاهد أنه قال: «اللَّحْنُ في القرآن لَحْنَانِ: جَلِـيٌّ وخَفِـيٌّ، فالجليُّ لحنُ الإعرابِ، والخفيُّ تَرْكُ إعطاءِ الحرفِ حَقَّهُ مِن تجويدِ لَـفْظِهِ»[2]. واستعمل ابن مجاهد نفسُهُ مصطلح اللحن الخفي في كتابه (السبعة في القراءات) حيث قال وهو يتحدث عن نوع من القراءات المتروكة: «ومنها اللحنُ الخفيُّ الذي لا يعرفه إلا العالم النحرير»[3].

---

(١) للدكتور: عبد العزيز مطر: كتاب (لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة). وللدكتور رمضان عبد التواب كتاب: (لحن العامة والتطور اللغوي).

(٢) الداني: التحديد ص١١٨، والأندرابي: الإيضاح في القراءات ٦٨ظ.

(٣) السبعة ص٤٩.

وأعطى أبو الحسن علي بن جعفر السعيدي (ت في حدود ٤١٠هـ) تعريفاً أكثر تفصيلاً لنَـوْعَي اللحنِ حيث قال: «فاللحنُ الجليُّ هو أن ترفعَ المنصوب، أوتنصب المرفوع، أو تخفض المنصوب والمرفوع، أو ما أشبه ذلك، فاللحن الجليُّ يعرفه المقرئون والنحويون وغيرُهم مِمَّنْ قد شَمَّ رائحة العلم.

واللحن الخفي لا يعرفه إلا المقرئ المتقن الضابط، الذي قد تلقن من ألفاظ الأُستاذين، المؤدي عنهم، المعطي كلَّ حرفٍ حَقَّهُ، غير زائد فيه ولا ناقص منه، والمتجنب عن الإفراط في الفَتَحَات والضَّمَّاتِ والكَسَراتِ والهَمَزاتِ، وتشديدِ المشدَّدات، وتخفيف المخفَّفَات، وتَسْكينِ المُسَكَّنَـاتِ، وتطنينِ النوناتِ، وتفريطِ المدَّات وتَرْعِيدِهَا، وتغليظِ الراءاتِ وتكريرها، وتسمين اللاماتِ وتَشْرِيبِهَا الغنة، وتشديدِ الهمزات وتلكيزها[1]».

وإنما سُمِّيَ اللحنُ الجليُّ جَلِيّـاً لأنه يشترك في معرفته علماء القراءات والأداء وغيرهم، والخفي خَفِـيًّا لأنه يختص بمعرفته علماء القراءات والأداء[2].

٢- تأريخ البحث في اللحن الخفي:

أعني بتأريخ البحث هنا ما بذله علماء التجويد في توضيح مصطلح اللحن الخفي وفي تحديد الظواهر التي تنضوي تحته، سواء كان ذلك بتأليف كتاب مستقل أم كتابة فصل أو باب ضمن كتاب مؤلَّفٍ في علم التجويد، وسوف أورد هنا قائمة في تلك الجهود مرتبة حسب سِنِيِّ وفاة المؤلفين، ولن أدرج فيها الإشارة العابرة واللمحة السريعة إلى الموضوع التي وردت في بعض الكتب:

١- أبو الحسن علي بن جعفر السعيدي (ت في حدود ٤١٠هـ): كتاب التنبيه

---

(١) التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي ص-٢٦.

(٢) محمد المرعشي: جهد المقل ص٨٥.

على اللحن الجليِّ واللحن الخفيِّ، وهو رسالة صغيرة، قمتُ بتحقيقها ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٥م[١].

٢- عبد الوهاب بن محمد القرطبي (ت ٤٦١هـ): كتاب الموضح في التجويد، في مقدمته خمسة فصول تحدث فيها المؤلف عن معنى اللحن في اللغة وحدّه في الاصطلاح وما يتصل بذلك[٢].

٣- أحمد بن أبي عمرو الأندرابي (ت ٥٠٠هـ): كتاب الإيضاح في القراءات، الباب السابع والعشرون من الكتاب (في ذكر اللحن الخفي، ومقالات أرباب الصناعة في ذلك)[٣].

٤- أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني العطار (ت ٥٦٩هـ): كتاب التمهيد في معرفة التجويد، فيه مباحث عن اللحن الخفي[٤].

٥- هاشم بن أحمد بن عبد الواحد الحلبي (ت ٥٧٧هـ): كتاب وسيلة الحفيِّ في إيضاح اللحن الخفي[٥].

٦- عبد العزيز بن أحمد الديريني (ت ٦٩٧هـ): كتاب ميزان الوفيِّ في معرفة اللحن الخفي[٦].

---

(١) مج٣٦ ج٢ ص٢٤٠-٢٨٧، طبعت في دار عمار، الأردن، بعنوان رسالتان في التجويد، ٢٠٠٠م.

(٢) الموضح ص ٥٥ - ٧٦.

(٣) الإيضاح ٦٨ظ - ٧٢و.

(٤) التمهيد ١١٩ظ، ١٤١و، طبع في دار عمار/ الأردن سنة٢٠٠٠م.

(٥) ورد ذكره في كتاب (الجامع المفيد في صناعة التجويد ورقة ٨٣و) لجعفر بن إبراهيم السنهوري (ت ٩٤هـ).

(٦) البغدادي: هدية العارفين ١/ ٥٨٠.

٧- محمد بن محمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ): كتاب التمهيد في علم التجويد، الباب الرابع فيه (في ذكر معنى اللحن وأقسامه)[١].

٨- محمد المرعشي، المعروف بساجقلي زاده (ت١١٥٠هـ): كتاب جهد المقل، في علم التجويد، فيه فصل في بيان معنى اللحن وأقسامه[٢].

ويمكن أن تُضَافَ أعمال أخرى لم نطلع عليها مما تضمن شيئاً من جهود علماء التجويد في دراسة اللحن الخفي، كما يمكن أن تُذْكَرَ تفصيلات تتعلق بكل عمل من الأعمال الثمانية التي ذكرناها حول المنهج والمادة أعرضت عنها حتى لا يخرج البحث عن سمة التركيز، وسوف أكتفي بالحديث عن ظواهر اللحن الخفي التي عالجها علماء التجويد في تلك الأعمال أو مما ورد في غيرها عَرَضاً.

المبحث الثاني

ظواهر اللحن الخفي التي عالجها علماء التجويد

صَرَّحَ علماء التجويد أنَّ مجاورة الأصوات بعضها بعضاً في التركيب لها تأثير[٣]. كما يقرر ذلك علماء الأصوات اليوم، فالأصوات تميل إلى المماثلة أو المشابهة بينها غالباً، وقد تميل الأصوات أحياناً إلى المخالفة إذا تجاورت أصوات متماثلة، لكن الظاهرة الأولى هي الشائعة في اللغة العربية أكثر من الثانية[٤]. وتخضع كل التغييرات التي تحدث للأصوات في السلسلة الكلامية إلى أنظمة صوتية محددة، لكن بعض التغييرات يعد مقبولاً سائغاً في اللغة الفصحى، وبعضها يُعَدُّ لحناً خارجاً على قوانينها، وذلك خاضع للعرف اللغوي الذي تسير

---

(١) التمهيد ص٧٥ - ٧٨.

(٢) جهد المقل ص٨٥ - ٨٧.

(٣) ينظر كتابي: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٣٨٧.

(٤) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص١٧٩و ٢١١.

عليه الجماعة اللغوية، وقد لاحظ ذلك علماء التجويد، قال عبد الوهاب القرطبي: «وكذلك اللام إذا جاورتْ حرفاً من حروف الإطباق والاستعلاء... وجب حراسة اللام أن يُجَاوَزَ بها حرفُ الإطباق والاستعلاء ومن الترقيق إلى التغليظ، وهو مرذول عند الجمهور إلا لمن ذلك لغته»[١]. وذلك في مثل الصلاة والطلاق.

فالتغييرات التي تلحق الأصوات في التركيب خاضعة للقوانين الصوتية لكن العرف اللغوي، أعني استخدام الجماعة اللغوية هو الذي مَيَّزَ ما هو مقبول وما هو لحن ينبغي الحذر منه.

وهناك عامل آخر يؤدي إلى حدوث تغيير في بعض الأصوات، وهو المبالغة في تحقيق صفات الصوت، فلكل صوت مخرجه وصفاته التي يجب أن تُسْتَوْفىٰ باعتدال من غير مبالغة، لأن تحديد مخارج الأصوات وصفاتها مَبْنِيٌّ على نطق ذي الطبع المستقيم، لا على التكلف[٢]. وقديماً قال أبو مزاحم الخاقاني (ت ٣٢٥هـ) في قصيدته التي قالها في حسن أداء القرآن:[٣]

زِنِ الحَرفَ لا تُخْرِجْهُ عن حَدِّ وَزْنِهِ   فوزنُ حُرُوفُ الذِّكْرِ مِنْ أَفْضِلِ البِرِّ

وقال علم الدين السخاوي (ت ٦٤٣هـ) في قصيدته (عُمْدَة المفيد وعُدَّة المجيد في معرفة التجويد):[٤]

للحَرْفِ ميزانٌ فلا تَكُ طاغِياً   فيه، ولا تكُ مُخْسِرَ الميزانِ

فإذا ما تجاوز الناطق ميزان الحرفِ دخل في اللحن الخفيِّ.

---

(١) الموضح ص١٧٧.

(٢) محمد المرعشي: جهد المقل ص١١٢.

(٣) البيت ٢٦ من القصيدة (ينظر: بحث علم التجويد، نشأته ومعالمه الأولى).

(٤) علم الدين السخاوي: جمال القراء ٢/ ٥٤٤.

ويمكننا أن نعرض ظواهر اللحن الخفي من خلال العاملين السابقين اللَّذَيْن أَدَّيَا إلى ظهوره، وهما: تأثر الأصوات بعضها ببعض عند التجاور تأثراً يخرج عن الحد الذي يُقِرُّهُ عُرْفُ اللغة، ثم المبالغة في تحقيق الأصوات. أما الظواهر الصوتية الأخرى الناشئة عن التركيب التي يُقِرُّها العرف اللغوي وتعتبر جزءاً من النظام الصوتي للفصحى فلا تذكر هنا.

أولاً: ظواهر اللحن الخفي الناتجة عن تأثر الأصوات بالمجاورة:

قال عبد الوهاب القرطبي وهو يتحدث عن العوامل التي تؤدي إلى تأثر الأصوات بما يجاورها: «السبب في ذلك أن يجتمع حرفان امتاز أحدهما عن الآخر بمزية ما، إما بتفخيم أو إطباق أو تَفَشٍّ أو غير ذلك، مع إمكان تلك المزية فيه، لأن الحرف بسبب اتحاده بما جاوره يجذبه إلى حَيِّزِهِ ويَسْلُبُهُ المَزِيَّةَ الخاصة به، أو يدخل معه فيها، او يحدث بينهما حرفٌ يشبههما...»[1].

وكان ابن وثيق (ت ٦٥٤هـ) قد حدد الحالات التي يمكن أن يقع فيها التأثر بين الأصوات في قوله: «فإذا وقع في تلاوتك مُطْبَقٌ بين مُنْفَتِحَيْن، او مُنْفَتِحٌ بين مطبقين، أو مُسْتَعْلٍ بين مُتَسَفِّلَيْن، أو مُتَسَفِّلٌ بين مُسْتَعْلِيَيْن، أو شديدٌ بين رِخْوَيْن، أو رِخْوٌ بين شديدين، أو مهموس بين مجهورين، أو مجهور بين مهموسين، أو حرف فيه غنة بين حرفين ليس فيهما غنة مشددين أو مخففين ساكنين، أو حرف ليس فيه غنة بين حرفين بغنتين ـ فيجب عليك أن تكون عارفاً بتخليص كل حرف منها، وإعطاء كل حرف حقه، وبمعرفة هذه الأوصاف وإعطاء كل حرف حقه من صفاته أجمع يكون الإنسان قارئاً ماهراً»[2].

ويمكن أن نعرض ظواهر اللحن الخفي الناتجة عن المجاورة وما قال فيها

---

(١) الموضح ص١٧٧.

(٢) كتاب في تجويد القراءة ٧٨و.

علماء التجويد على أساس الصفات التي يحصل فيها التأثر والتأثير، وهي الجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والغنة، علماً أن التأثر يحصل بين الأصوات لمجرد التجاور، فإذا اكتنف صوتان ذوا صفة واحدة صوتاً له صفة تخالفهما كان التأثر أسرع، على نحو ما ذكر ابن وثيق، ولا يتحقق التجاور بين الأصوات إلا إذا كان الصوت الأول ساكناً، لأن الحركة تحول بين الصوتين وتمنع حصول التأثير بينهما.

١ - الجهر والهمس:

قال أبو عمرو الدانيُّ (ت٤٤٤هـ) كلمة تصلح أن تكون قانوناً في تأثر الأصوات بالجهر والهمس عند التجاور، وهي: «والحروفُ المهموسةُ إذا لَقِيَتِ الحروفَ المجهورةَ، والحروفُ المجهورةُ إذا لَقِيَتِ الحروفَ المهموسة فَيَلْزَمُ تَعُمُّلُ تلخيصها وبيانها، لئلا ينقلب المهموس إلى لفظ المجهور، والمجهور إلى لفظ المهموس، فتختلَّ بذلك ألفاظ التلاوة وتتغير معانيها»[1]، ومِنْ تَتَبُّع الأمثلة التي ذكرها علماء التجويد يلاحظ أن تأثر المجهور بالصوت المهموس أكثر من تأثر المهموس بالمجهور، وهذه أمثلة لذلك:

أ - ذ ك ← ث ك: قال عبد الوهاب القرطبي: «وكذلك إذا أتَتْ (الذال) بعدها الكاف في مثل (يذكرون) و (اذْكُرْ) وجب أن تُصَانَ عن شائبة الثاء، لأنَّ الثاء من مخرج الذال، وهي أخت الكاف في الهمس، والذال مجهورة، فلا يُـؤْمَنُ من أن يجذبها همس الكاف إلى الثاء لقرب الثاء من الذال في المخرج ومشاركتها الكاف في الهمس»[2] فيصير النطق (يكثرون) وهو لحن خفيٌّ ينبغي التنبه له واجتنابه.

---

(١) التحديد ص١٣٣.

(٢) الموضح ص١٨١.

ب - د خ ← ت خ: قال السعيدي: «ومما يُحْفَظُ أيضاً بيان الدال إذا سكنت عند الخاء في مثل قوله: (ويُـدْخِلُـهُمُ الجنة)... لئلا تنقلب عندها تاء»[١].

ج - غ ش← خ ش: قال الدانيُّ وهو يتحدَّثُ عن حرف الغين: «وكذا إن أتى بعده قاف، أو سين، أو شين، أوتاء، أو ثاء، أو فاء، فينبغي أن يُـنْعَمَ بيانه ولا يتساهل في ذلك فربما انقلب مع الحروف المذكورة غير القاف خاء، لما بين الخاء وبينهن من الاشتراك في الهمس... كقوله تعالى: .. ﴿والليل إذا يَغْشَى﴾ ...»[٢].

د - ز ت ← س ت: قال عبد الوهاب القرطبي وهو يتحدث عن الزاي في (كنزتم): «فأحْسِنْ تخليص الزاي مع التاء لئلا تصير سيناً، لأن السين تشارك التاء في الهمس وتقرب من الزاي في المخرج والصفير، فربما أذهبَ همسُ التاءِ جَهْرَ الزاي فتحوَّلت سيناً»[٣].

والأمثلة من هذا النوع كثيرة، نكتفي منها بما ذكرناه، أما تأثر الصوت المهموس بالمجهور فأمثلته أقل، فمن ذلك مجاورة الصاد الساكنة للدال، قال مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ): «وإذا سكنت الصاد وأتت بعدها دال وجبت المحافظة على تصفية لفظ الصاد لئلا يخالطها لفظُ الزاي، لأن الزاي من مخرج الصاد، وهي في الصفة أقرب إلى الدال من الصاد إلى الدال، فاللسان يبادر إلى اللفظ بما قَرُبَ من الحرف، وما هو أليق به من غيره، لِيَعْمَلَ اللسان عملاً واحداً، فإذا لم تُـبَـيِّنِ الصادُ بياناً ظاهراً خالطها لفظُ الزاي وذلك نحو (يَصْدُرُ) و (تَصْدِيَة) و (قَصْدُ السبيل) و شبهه»[٤].

---

(١) التنبيه على اللحن ص٢٧٣.

(٢) التحديد ص ١٢٩.

(٣) الموضح ص ١٨٣.

(٤) الرعاية ص١٩٢.

وذكر علماء التجويد مثالاً لجهر صوت المهموس من غير أن يجاور صوتاً مجهوراً، وهو أمر يمكن أن يدخل في ظاهرة المخالفة، قال الداني وهو يتحدث عن الخاء: «فإن التقى بالشين أو التاء تعمل بيانه، وإلا ربما انقلب غيناً، كقوله: (ولا تخشى) و (مختلف)...»[1]. وعلل عبد الوهاب القرطبي ذلك بالفرار من توالي صوتين مهموسين، فقال: «الخاء إذا سكنت وبعدها شين أو تاء...وجب حمايتها عن شائبة الغين لما بين الخاء والغين من المؤاخاة في الاستعلاء، وفرار النطق من الجمع بين مهموسين الشين والخاء»[2].

٢- الشِّـدَّةُ والـرَّخَـاوَةُ:

لم أَجِدْ من أمثلة اللحن الخفيِّ التي سَبَبُها الشِّدَّةُ والرخاوة مما ذكره علماء التجويد سوى مثال واحد هو صوت الجيم حين يجاور صوتاً رخواً، إذ من الممكن حينئذ أن يتأثر الجيم برخاوة الصوت المجاور ويفقد شدته، قال مكي بن أبي طالب: «فإذا سكنت الجيم وبعدها زاي وجب أن يُتَحَفَّظَ بإظهار الجيم نحو قوله تعالى: (رِجْزاً من السماء)...فإنه إن لم يُتَحَفَّظْ ببيان الجيم صارت زاياً مدغمة في الزاي التي بعدها، وسارع اللفظ إلى ذلك، لأن الزاي بالزاي أشبه من الجيم بالزاي، والزاي حرف مجهور كالجيم فيها صفير فقويت به، لكن الجيم حرف مجهور شديد، والزاي حرف رخو، فلما فارقت الزايُ الجيمَ في الشدة مال اللفظ واللسان إلى بدل الجيم بزاي، ليعمل اللسان عملاً واحداً في حرفين رخوين، فكان ذلك أسهل من عمله في حرف شديد وحرف رخو فيه صفير مع تقارب المخارج، فلا بد من التحفظ بلفظ الجيم الساكنة التي بعدها زاي»[3].

---

(١) التحديد ص١٣٠.

(٢) الموضح ص١٨٧.

(٣) الرعاية ص ١٥٠ وانظر أيضاً ص١٨٣.

٣ - التفخيم والترقيق:

التفخيم في الاصطلاح عبارة عن سَمَنٍ يدخل على جَسْمِ الحرف فَيَمْتَلئُ الفمُ بصَدَاه، والترقيق بعكسه[١]، والأصوات المفخمة في العربية سبعة، أربعة مطبقة هي: الطاء والظاء والصاد والضاد، وثلاثة مستعلية هي: القاف والغين والخاء. وتكون اللام والراء مرققة في مواضع ومضخمة في مواضع أخرى. والألف تتبع ما قبلها في التفخيم[٢].

وإذا تجاوز الصوت المفخم مع الصوت المرقق، أَثَّرَ أَحَدُهُما في الآخر، ووجبَ التَّحَفُّظُ عند النطق بهما، وقد لاحظ علماء التجويد ذلك وعَدُّوهُ من اللحن الخفيِّ وَحَذَّروا من الوقوع فيه، وإليك الأمثلة:

أ ـ س + صوت مفخم: قال الأندرابي: «وإذا اجتمعت السين الساكنة مع حرف من حروف الإطباق في كلمة فَتَوَصَّلْ إلى سكون السين في رِفْقٍ وتُؤَدَةٍ، لئلا تصير صاداً بالاختلاط، كقوله (يَسْطُون) و (مسطوراً) و (بالقسطاس) ونحو ذلك»[٣].

ب ـ ت + صوت مفخم: قال عبد الوهاب القرطبي: «التاء إذا جاورت حرفاً من حروف الإطباق فَبَيِّنْ هَمْسَها وأَحْسِنْ تخلُّصَها من الإطباق وإلا صارت طاء في مثل قوله تعالى: ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾... وذلك لأن التاء من مخرج الطاء، وإنما تمتاز الطاء بالإطباق، فإذا جاورها إطباق شابتها شائبة الطاء لذلك»[٤].

---

(١) محمد المرعشي: جهد المقل ص١٢٦.

(٢) ينظر: كتابي: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٤٧٨.

(٣) الإيضاح في القراءات ٦٩ظ.

(٤) الموضح ١٨١ظ.

ج ـ ذ + صوت مفخم: قال مكي بن أبي طالب: «وإذا وقع بعد الذال حرف مفخم راء أو لام وجب التحفظ بترقيقها لئلا تتبع تفخيم ما بعدها فيدخلها الإطباق وتصير ظاء، وذلك تصحيف، وذلك نحو قوله: ﴿ذرأ﴾ . .»[1].
ويريد مكي بقوله (تصحيف) أنه لحن.

وقال عبد الوهاب القرطبي عن الحالة نفسها: «الذال إذا لقيت الراء المفخمة في مثل قوله تعالى. . . ﴿يَحْذَرُ الآخرة﴾ وما أشبه ذلك، لزم القارئَ بيانُها وتلخيص إنعامها، ولَفَظَ بها رقيقة وبالراء مفخمة، ولا يُغْفَلُ ذلك لئلا تنقلب الذال ظاء من أجل تفخيم الراء، لأن التفخيم نظير الإطباق، أو تَرِقَّ الراء إذا لُخِّصَتْ هي وحَقُّها التفخيم، وكلاهما من اللحن الخفي»[2].

د ـ ص + ت: قال عبد الوهاب القرطبي: «وكذلك الصاد إذا أُسْكِنَتْ ووليتها التاء في مثل قوله تعالى: ﴿ولو حَرَصْتُم﴾ وما أشبهه، ينبغي أن تحفظ إطباق الصاد من همس التاء، وهمس التاء من إطباق الصاد، لئلا تصير الصاد سيناً أو تصير التاء طاء، وكل ذلك مكروه»[3].

٤ - التَّأْنِيفُ (الغنة):

الغُنَّةُ هي الصوت الجاري من الخيشوم،وهي تلازم صَوْتَيِ النون والميم، وقد تلحق هذه الصفة الأصوات التي تجاورهما، خاصة النون، وهو ما حذر منه علماء التجويد وعَدُّوه لحناً خفياً. ومن أمثلة ذلك:

أ ـ ل + ن: قال السعيدي: «مما يُحْفَظُ أيضاً تخليص اللامات إذا سكنت من النونات بعدها، في مثل قوله (أنزلنا) و (أرسلنا) و (جعلنا) و (قلنا) وشبههن، ويحتاج في ذلك إلى حِذق. . .»[4].

---

(١) الرعاية ص١٨٥.
(٢) الموضح ص١٨١.
(٣) المصدر نفسه ص١٧٩.
(٤) التنبيه على اللحن ص٢٧٦.

=

ب ـ د + ن: قال الداني وهو يتحدث عن الدال: «وكذلك إن التقى بالنون فيلزم أن يُمَكَّنَ جُهُورُهُ، ولا يُتَسَاهَلَ في ذلك فيصيرَ غُنَّةً مدغمة في النون، نحو (قد نرى). . . »[1].

ج ـ ر + ن: قال الأندرابي: «كقوله: (فبشرناه) وَتَكَلَّفْ إظهار الراء لئلا يندغم، ومثله (فغفرنا له)، لأنك إن لم تتكلف إظهار الراء عند النون صارت نوناً مدغمة فيما بعدها»[2].

د ـ حروف المد + ن: قال الأندرابي: «فإن سكنت الياء وانكسر ما قبلها أو سكنت الواو وانضم ما قبلها أشْبِعْهُمَا من غير غنة، نحو: يؤمنون، والمؤمنين»[3].

وقال محمد المرعشي عن الموضوع ذاته: «وَلْيُحْذَرْ عن. . . إعطاء الغنة لغير حروفها، ما يفعل بعض الناس في الياء المَدِّيَّةِ والواو المَدِّيَّةِ في مثل: نستعين، وطس، ويستهزئون، تبعاً لغنة النون»[4].

وقال في موضع آخر: «إن الغُنَّةَ لَمَّا أشبهتِ المدَّ. . . يلائم إحداث الغنة مع تلفظ المد، ولذا يلفظ بعض الناس المد مصحوباً بالغنة في مثل نستعين، وهو لا يشعر بذلك، وذلك لحنٌ، وطريق معرفة حدوثها في مثل ذلك أن تلفظه مرة مع الإمساك على أنفك ومرة بدونه، فإن اختلف صوت المد في الحالين فاعلم أنه مصحوب بها. وطريق الحذر عنها منع النفس الجاري مع المد عن التجاوز إلى الخيشوم، وامتحان صوته بالإمساك على الأنف وتركه إلى أن يتعوَّدَ تخليص المد عنها»[5].

---

(١) التحديد ص١٤١.

(٢) الإيضاح في القراءات ٧٠و.

(٣) المصدر نفسه ٧١و.

(٤) جهد المقل ص٢٧٨.

(٥) المصدر نفسه ص٢٨٥.

ثانياً: ظواهر اللحن الخفي الناتجة عن المبالغة في تحقيق الأصوات:

من صور الخروج على النطق الفصيح مِمَّا عَدَّهُ العلماء من اللحن الخفي المبالغة في تحقيق الصفات الصوتية والضغط على مخارج الحروف، فللحرف ميزان ينبغي مراعاته في مخرجه وصفاته، قال الأندرابي: «إياك والتمطيط والتمضيغ والتشديق والاتكاء على مخارج الحروف»[١]. وبعض الأصوات أكثر تعرضاً للاختلال في النطق من غيرها، ولذلك خَصَّها علماء التجويد بالعناية، وذلك مثل الهمزة، والراء، والنون، والحركات، وحروف المد. وهذه خلاصة ما قالوه في هذا المجال:

١- **الهمزة:** يتم إنتاج صوت الهمزة بأن ينطبق الوتران الصوتيان في الحنجرة انطباقاً تاماً فلا يسمحان للنفس بالمرور، ثم ينفرجان فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوت الهمزة[٢]. وتُعَدُّ الهمزة أثقل الحروف نطقاً[٣]، «لأنه بعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً، فثقل عليهم ذلك لأنه كالتهوع»[٤].

ومن ثم نجد علماء التجويد يهتمون بنطق الهمزة، يقول الداني: «فينبغي للقارئ إذا همز الحرف أن يأتي بالهمزة سَلِسَة في النطق، سَهْلَة في الذوق، من غير لكز ولا ابتهارٍ لها، ولا خروج بها عن حَدِّها، ساكنةً كانت أو متحركة...»[٥]. وقد حَذَّرَ العلماء الذين بحثوا موضوع اللحن الخفي من تلكيز الهمزة[٦]، وطلبوا من القارئ أن يجتنب الهمزات الملكزة[٧].

---

(١) الإيضاح في القراءات ٧٠ظ.

(٢) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٩١، وكمال محمد بشر: الأصوات ص١٤٢.

(٣) ابن الجزري: النشر ١/ ٤٢٨.

(٤) سيبويه: الكتاب ٣/ ٥٤٨.

(٥) التحديد ص١١٨.

(٦) السعيدي: التنبيه على اللحن ص٢٦٠.

(٧) الأندرابي: الإيضاح في القراءات ٦٨ظ.

واللَّكْزُ في اللغة الضَّرْبُ أو الدَّفْعُ في الصدر بالكف[1]. أما في الاصطلاح فقد قال ابن البناء: «ويُكْرَهُ اللكز في القراءة، وهو الابتداء بقَلْعِ النَّفَسِ والختم به»[2]. ويمكن أن يكون المقصود بتلكيز الهمزة الضغط على مخرجها والمبالغة في إخراجها حتى تصير كالتهوع. وقد يكون اللَّكْزُ في الهمزة هو الذي أَدَّىٰ ببعض العرب إلى قلبها عيناً، وهو ما يعرف بالعنعنة[3].

٢- **الراء**: حَذَّرَ علماء التجويد من المبالغة في تكرير الراء، لأن طرف اللسان يطرق حافة الحنك طرقاً لَيِّناً مرتين أو ثلاثاً في أثناء النطق بالراء العربية[4].

ومن ثَمَّ فإن زيادة طرقات اللسان على الحنك يؤدي إلى الإخلال بالراء الفصيحة، ولذلك حَذَّرَ العلماء من المبالغة في تكريرها، فقال مكي: «فواجب على القارئ إخفاء تكريره ولا يظهره، ومتى ما أظهره فقد جعل من الحرف المشدد حروفاً ومن المخفف حرفين»[5]. وقال الجعبري (إبراهيم بن عمر ت ٧٣٢هـ): «وتكريره لحن، فيجب التحفظ عنه»[6].

ولا يعني إخفاء تكرير الراء إعدامه بالكلية، قال أبو الحسن شريح بن محمد الرعيني (ت ٥٣٩هـ): «واعلم أن الراء متكررة في جميع أحوالها، وأبين ما يكون ذلك عند الوقف عليها، وقد ذهب قوم من أهل الأداء إلى أنه لا تكرر فيها مع تشديدها، وذلك لم يؤخذ علينا، غير أنا لا نقول بالإسراف فيه، وأما ذهاب التكرار جملة فلم نعلم أحداً من المحققين بالعربية ذكر أن تكريرها يسقط بحال»[7].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٧/ ٢٧٣ لكز.

(٢) بيان العيوب ص٣١.

(٣) ينظر: رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص١١٥.

(٤) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٣١٨.

(٥) الرعاية ١٧٠.

(٦) نقلاً عن المرادي: شرح الواضحة ص٤٤.

(٧) المصدر نفسه ص٤٣.

٣- **النون**: حَذَّرَ علماء التجويد من تطنين النونات[١]، وقال عبد الوهاب القرطبي: «وينبغي أن يُجْتَنَبَ فيها الطنين، وهو أن يلحق بها إذا سكنت وأُظهرت صوت يُضَاهِي صوت الصنجةِ تُلْقَىٰ في الطَّسْتِ»[٢]. وقال الأندرابي، وهو يتحدث عما ينبغي أن يحترز منه القارئ: «وتطنين الغُنَّاتِ حتى تمتدَّ كحروف اللين»[٣].

والغنة هي الصوت المصاحب لنطق النون والميم الجاري من الخيشوم، قال محمد المرعشي: «واجعل غنة النون أكمل من غنة الميم لأنها أغن من الميم، لكنِ احْذَرْ من تطنينِ الغنة عند الوقف عليهما، لأن إظهار الغنة وإن احتاج إلى تمديد لكنَّ المبالغة في التمديد لحن، وهو معنى التطنين، وهو في اللغة: صوت الطست عند ضربه، واحتمال التطنين في النون أقرب من احتماله في الميم، لأن النون أغن»[٤].

٤- **الحركات وحروف المد**: تحتل الحركات وحروف المد مكاناً متميزاً في النطق، ولها دور في بنية الكلمة العربية لا يقل عن دور بقية الأصوات، والذي يعنينا من أمرها هنا هو تحذير علماء التجويد من الإخلال في نطقها، وتحذيرهم من الإفراط في الحركات حتى تصير حروفاً ومن التفريط في المدات وترعيدها[٥].

قال عبد الوهاب القرطبي: «الذي ينبغي أن يعتمده القارئ من ذلك أن يحفظ مقادير الحركات والسكنات، فلا يُشْبِعَ الفتحةَ بحيث تصير ألفاً، ولا الضمة بحيث تخرج واواً، ولا الكسرة بحيث تتحول ياءً، فيكون واضعاً للحرف

---

(١) السعيدي: التنبيه على اللحن ص٢٦٠.

(٢) الموضح ص١٢٠.

(٣) الإيضاح في القراءات ٦٨ظ.

(٤) جهد المقل ص٢٨٨.

(٥) السعيدي: التنبيه على اللحن ص٢٦٠.

موضع الحركة، ولا يوهنها ويختلسها ويبالغ فيضعف الصوت عن تأديتها ويتلاشى النطق بها وتتحول سكوناً»[١].

وحروف المد لها مقادير في النطق، وينبغي ألاَّ يُجَاوَزَ بالمدود منزلته، مع الاحتراز من المدات الطويلة الرَّعِشَةِ المطيطة التي نُهِيَ عنها[٢]. قال السعيدي: «ومما يُحْفَظُ أيضاً ترعيد المدات في مثل قوله... ما يشاء وجاء وشاء، وما أشبه هذه الحروف، تُمَدُّ مَدّاً حسناً مستوياً مستقيماً، بلا ترعيد ولا تهزيز ولا اضطراب عند إخراجهن»[٣] ومعنى الترعيد هنا هو «أن يأتي بالصوت إذا قرأ مضطرباً كأنه يرتعد من برد أو ألم»[٤].

خاتمة

كان هدفنا من كتابة هذا البحث توضيح فكرة (اللحن الخفي) في الدرس الصوتي العربي وتطبيقاتها في النطق العربي، كما يعرضها علماء التجويد خاصة. وأرجو أنَّ هذا الهدف قد تحقق على نحو مقبول. ويمكن أن نذكر أيضاً أن ما ورد في هذا البحث يدل على أمور أخرى أهمها:

١- إن كتب علم الأصوات المكتوبة حديثاً باللغة العربية قد أهملت كثيراً من جوانب الدرس الصوتي العربي، ولم تضعها في ميزان الدرس الصوتي الحديث، والاستفادة من الجوانب التي لا تزال مفيدة منها في دراسة أصوات العربية في زماننا.

٢- إن الدرس الصوتي العربي القديم قد بلغ درجة عالية من الدقة والشمول

---

(١) الموضح ص١٩١.

(٢) الأندرابي: الإيضاح في القراءات ٦٨ظ.

(٣) التنبيه على اللحن ص٢٨٢.

(٤) عبد الوهاب القرطبي: الموضح ١٨٨ و ص١١٢.

والعمق، حيث تجاوز الحديث عن مخارج الأصوات وصفاتها والأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب في النطق الفصيح، إلى النظر في دقائق الكلام المنطوق وتحديد الملامح الشاذة عن العربية الفصحى، ووصفها، وتحذير الناطقين من الوقوع فيها.

٣- إن بقاء العربية الفصحى ودوامها ومحافظتها على ملامحها الصوتية والتركيبية من الحالات النادرة في تأريخ اللغات البشرية، وأكبر عوامل هذه الظاهرة ارتباط العربية بالقرآن الكريم، وكان من ثمرات ذلك الارتباط ما بذله علماء اللغة وقراءة القرآن من جهود في تدوين قواعد العربية وتعليم النطق الفصيح، وقضية اللحن الخفيِّ في الدرس الصوتي العربي مظهر من مظاهر العناية بلغة القرآن والعمل على تعليمها والمحافظة عليها وصيانتها من الانحراف الناتج عن تطور أصواتها بشكل لا تقره قواعد اللغة.

٤- قد لا أكون مجاوزاً الحقيقة إذا ما قلت إن دراسة أصوات اللغة عندنا الآن متخلفة كثيراً عما وصلت إليه في الدول الأُخرى، كما أنها قاصرة عن الإحاطة بالتراث الصوتي العربي القديم، إن النهوض بعلم الأصوات عندنا يحتاج إلى نشر النصوص القديمة ودراستها، وإلى ترجمة النتائج التي أحرزها هذا العلم في البلدان المتقدمة في دراسته، عند ذلك يمكن أن نكتب علم الأصوات العربي بصورته المعاصرة المشرقة. إن شاء الله تعالى.

المصادر

١- الآجري (أبو بكر محمد بن الحسين): أخلاق حملة القرآن، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة راغب باشا بتركيا ١٤/ ٥.

٢- إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣م.

٣- إبراهيم أنيس (دكتور): الأصوات اللغوية، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧١م.

٤- إبراهيم محمد نجا (دكتور): التجويد والأصوات، مطبعة السعادة بمصر (د. ت).

٥- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي ابن أبي الكرم). الكامل في التاريخ مج٧، دار صادر - دار بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

٦- أحمد تيمور: لهجات العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٢٩٠، القاهرة ١٩٧٣.

٧- أحمد فروخي: التجويد الواضح، الجزائر ١٩٧٢م.

٨- أحمد مختار عمر (دكتور): البحث اللغوي عند العرب، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

٩- أحمد مختار عمر (دكتور): دراسة الصوت اللغوي، ط١، مكتبة عالم الكتب، القاهرة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

١٠- إدريس عبد الحميد الكلاك: نظرات في علم التجويد، ط١، بغداد ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

١١- الإستراباذي (محمد بن الحسن): شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد الزفزاف وآخرين، مطبعة حجازي، القاهرة (د.ت).

١٢- اسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، مج٢ استانبول ١٩٥٥م.
١٣- إلفارت (و): فهرس المخطوطات العربية في المكتبة الملكية في برلين، مج١ برلين ١٨٨٧م. وقد ترجم لنا ما كتب من معلومات بالألمانية في هذا الفهرس الأستاذ برهان عيد، المعلم في بيجي، المتمكن من عدة لغات أوربية، جزاه الله خيراً.
١٤- ابن الأنباري (محمد بن القاسم بن بشار أبو بكر): كتاب إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧١م، تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان.
١٥- الأندرابي (أحمد بن أبي عمر): الإيضاح في القراءات العشر، مخطوط في جامعة استانبول برقم (١٣٥٠) ومنه نسخة مصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي.
١٦- الأهوازي (الحسن بن علي): الوجيز في شرح أداء القراء الثمانية أئمة الأمصار الخمسة. مخطوطة جستربتي (٣٦٠٣) مصورة الدكتور حاتم الضامن.
١٧- ابن الباذش (أحمد بن علي): الإقناع في القراءات السبع، تحقيق د. عبد المجيد قطامش، مطبعة دار الفكر بدمشق ١٤٠٣هـ.
١٨- برجستراسر: التطور النحوي للغة العربية. مطبعة السماح، القاهرة ١٩٢٩م.
١٩- بروكلمان (كارل) تاريخ الأدب العربي. ج٤، دار المعارف بمصر ١٩٧٥م، ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر والدكتور رمضان عبد التواب.
٢٠- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس. مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.
٢١- البقري (محمد بن القاسم): غنية الطالبين ومنية الراغبين، مخطوط في دار صدام للمخطوطات في بغداد برقم (١٢٩٧٥).

٢٢- ابن البناء (أبو علي الحسن بن عبد الله): بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء وإيضاح الأدوات التي بُنِيَ عليها الإقراء، تحقيق د.غانم قدوري حمد منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية في الكويت مج٣١ ج١ سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م وطبع دار عمار/ الأردن ٢٠٠١م.

٢٣- تمام حسان (دكتور): مناهج البحث في اللغة، ط٢، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

٢٤- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد): فقه اللغة وسر العربية. ط٢، مصطفى البابي الحلبي بمصر١٣٧٣هـ ـ١٩٥٤م، تحقيق مصطفى السقا وآخرين.

٢٥- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م.

٢٦- جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية، ترجمة صالح القرمادي، تونس ١٩٦٦م.

٢٧- ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد): التمهيد في علم التجويد. مخطوط، دار الكتب الظاهرية رقم ٥٧٣٨ نسخة مصورة.

٢٨- ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م، تحقيق برجستراسر.

٢٩- ابن الجزري: النشر في القراءات العشر، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (د.ت).

٣٠- ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد): التمهيد في علم التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

٣١- ابن الجزري: متن الجزرية في التجويد، مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م.

٣٢- ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني): سر صناعة الإعراب، ج١، مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٤م، تحقيق مصطفى السقا وآخرين.

٣٣- جورج مونين: تأريخ علم اللغة، ترجمة د.بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.

٣٤- حاتم صالح الضامن (دكتور): مقدمة تحقيق كتاب (الاعتماد في نظائر الظاء والضاد) لابن مالك، مجلة المجمع العلمي العراقي مج٣١ ج٣ السنة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

٣٥- ابن أبي حاتم (أبو محمد عبد الرحمن): كتاب الجرح والتعديل، ق١، مج٤، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

٣٦- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وكالة المعارف الجليلة، استانبول، مج١، ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م، مج٣، ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٣م.

٣٧- ابن حجر (الحافظ أحمد بن علي): تهذيب التهذيب، دار المعارف العثمانية بالهند.

٣٨- ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٨٠هـ.

٣٩- حسام سعيد النعيمي (دكتور): أصوات العربية بين التحول والثبات، سلسلة بيت الحكمة (٤) جامعة بغداد ١٩٨٩م.

٤٠- حسام سعيد النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، بغداد ١٩٨٠م.

٤١- حسن بن إسماعيل الدركزلي: خلاصة العجالة في بيان مراد الرسالة، مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد برقم (٢٣٥١٣).

٤٢- حسني شيخ عثمان: حق التلاوة، ط٢، مؤسسة الرسالة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

٤٣- حمزة بن الحسن الأصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق محمد أسعد طلس، دمشق ١٩٦٠.

٤٤- أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي): ارتشاف الضَرَب من لسان العرب، تحقيق د. مصطفى النماس، القاهرة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٤٥- خالد الأزهري (الشيخ): الحواشي الأزهرية في حل ألفاظ المقدمة الجزرية، مطبعة محمد علي صبيح بمصر (د.ت).

٤٦- الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي): تاريخ بغداد، مكتبةالخانجي بالقاهرة، والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١م.

٤٧- خليل إبراهيم العطية (دكتور): في البحث الصوتي عند العرب، منشورات دار الجاحظ، سلسلة الموسوعة الصغيرة العدد ١٢٤ بغداد ١٩٨٣م.

٤٨- الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، مطبعة العاني، بغداد ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م، تحقيق د. عبد الله درويش.

٤٩- ابن خير الإشبيلي (ابو بكر محمد بن خير): فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم، ط٢، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٣م.

٥٠- الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد): التحديد في الإتقان والتجويد، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة جار الله بتركيا رقم ٢٣. ومنه نسخة مصورة في كل من مكتبة جامعة القاهرة، ومعهد المخطوطات العربية.

٥١- الداني: شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني، نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة جستر بتي بدبلن بإيرلندة رقم ٣٦٥٣/ ١٠.

٥٢- الداني: المحكم في نقط المصاحف، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق ١٩٦٠م، تحقيق د. عزة حسن.

٥٣- الداني(أبو عمرو عثمان بن سعيد): التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق د. غانم قدوري حمد، مطبعة الخلود، بغداد ١٩٨٨م ودار عمار / الأردن ٢٠٠٠.

٥٤- الداني (ابو عمرو عثمان بن سعيد): جامع البيان في القراءات السبع المشهورة، مخطوطة، دار الكتب المصرية رقم ٩ قراءات.

٥٥- الدمياطي (أحمد بن محمد): إتحاف فضلاء البشر بقراءات الأربعة عشر، راجعه علي محمد الضباع، مطبعة عبد الحميد حنفي، القاهرة ١٣٥٩هـ.

٥٦- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد): معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٩م.

٥٧- رشيد عبد الرحمن العبيدي (دكتور): عيوب اللسان واللهجات المذمومة، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي مج٣٦ - ج٣، بغداد ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

٥٨- رمضان عبد التواب (دكتور): لحن العامة والتطور اللغوي، ط١، دار المعارف بمصر ١٩٦٧.

٥٩- رمضان عبد التواب (دكتور): فصول في فقه العربية، ط١، مكتبة دار التراث، القاهرة ١٩٧٣م.

٦٠- الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن): طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٣م.

٦١- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، ط٢، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٦٢- الزركلي (خير الدين): الأعلام، ط٣، بيروت د.ت.

٦٣- زكريا الأنصاري (الشيخ): تحفة نجباء العصر في أحكام النون الساكنة والتنوين والمد القصير، تحقيق د. محيي هلال السرحان، مجلة كلية الشريعة - العدد التاسع ١٩٨٦م.

٦٤- زكريا الأنصاري: الدقائق المحكمة في شرح المقدمة، بهامش متن الجزرية (رقم ١٠ أعلاه).

٦٥- ساجقلي زادة (محمد المرعشي): جهد المقل، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة المتحف العراقي رقم ١١٠٦٨.

٦٦- الساعاتي (أحمد بن عبد الرحمن البنا): الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١ القاهرة ١٣٧٤هـ.

٦٧- سالم عبد الرزاق أحمد: فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، ج٨ـ١٩٧٨م.

٦٨- السخاوي(علم الدين أبو الحسن علي بن محمد): جمال القراء وكمال الإقراء. نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب الظاهرية رقم ٣٣٣ (٤٤ القراءات).

٦٩- السخاوي (علم الدين علي بن محمد): جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٧٠- ابن السراج (محمد بن السري): كتاب الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط٣، بيروت ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٧١- ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد): الطبقات الكبرى، بيروت ١٩٥٧م.

٧٢- السعيدي (أبو الحسن علي بن جعفر بن محمد السعيدي الرازي): كتاب التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة المتحف العراقي رقم ٣٧٦٧.

٧٣- السعيدي (علي بن جعفر): التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي، تحقيق غانم قدوري الحمد، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثاني، المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٥م(ص٢٤٠ - ٢٨٧). ودار عمار/ الأردن، ٢٠٠٠م.

٧٤- السعيدي (علي بن جعفر): اختلاف القراء في اللام والنون، رسالة مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني برقم (٤٢٥٤ مشرقيات).

٧٥- السكاكي (يوسف بن محمد): مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٧٦- سلمان الجمزوري (الشيخ): فتح الأقفال بشرح متن تحفة الأطفال، مطبعة محمد علي صبيح بمصر ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.

٧٧- السماني (أبو الأصبغ عبد العزيز بن علي بن محمد السماني الأندلسي): مقدمة في الوقف والابتداء مسماة بنظام الأداء. نسخة مصورة من مخطوطة مكتبة جستر بتي بدبلن بإيرلندة رقم ٣٩٢٥/٥.

٧٨- السمرقندي (محمد بن محمود): روح المريد شرح العقد الفريد، مخطوط أوقاف الموصل.

٧٩- السنهوري (جعفر بن إبراهيم): الجامع المفيد في صناعة التجويد، مخطوط في مكتبة برلين، رقم ١٣٠٧.

٨٠- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

٨١- السيرافي (الحسن بن عبد الله): شرح كتاب سيبويه، ج٦. مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٢٨/ نحو ـ تيمور).

٨٢- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر): الإتقان في علوم القرآن ط١، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

٨٣- السيوطي: المزهر في علوم اللغة، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين.

٨٤- السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

٨٥- أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل)؛ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، دار صادر، بيروت ١٣٦٥هـ ـ ١٩٧٥م، تحقيق طيار التي قولاج.

٨٦- ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد): الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

٨٧- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، طبعة الحلبي الثالثة، القاهرة.

٨٨- عبد الرؤوف محمد سالم: الفريد في فن التجويد، ط٧، الكويت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

٨٩- عبد الرحمن أيوب (دكتور): أصوات اللغة، ط١، مطبعة التأليف، القاهرة ١٩٦٣.

٩٠- عبد الدائم الأزهري: الطرازات المعلمة في شرح المقدمة، مخطوطة المتحف العراقي ببغداد (٢٠١٦٥).

٩١- عبد الصبور شاهين (دكتور): أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٩٢- عبد الصبور شاهين (دكتور): في التطور اللغوي، ط١، مكتبة دار العلوم، القاهرة ١٩٧٥م.

٩٣- عبد العزيز مطر (دكتور): لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.

٩٤- عبد المجيد الخطيب (الشيخ): عمدة المفيد وعدة عبد المجيد في فصول التجويد، الموصل ١٩٧٧م.

٩٥- عبد الهادي الفضلي (دكتور): قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية، رسالة دكتواره محفوظة في مكتبة كلية العلوم بجامعة القاهرة ١٩٧٥م.

٩٦- أبو عبيد (القاسم بن سلام): غريب الحديث ط١، حيدر آباد ١٩٦٤ـ ١٩٦٧م.

٩٧- عزت عبيد الدعاس: فن التجويد، ط٥، دمشق ١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م.

٩٨- العطار (أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذاني): التمهيد في معرفة التجويد، مخطوط في مكتبة جستر بتي بدبلن برقم (٣٩٥٤) طبع دار عمار/ الأردن ٢٠٠٠م.

٩٩- علاء الدين القيسي: الأصول في تجويد القرآن الكريم، ط٥، مطبعة أسعد، بغداد ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

١٠٠- أبو العلاء الهمذاني العطار (الحسن بن أحمد): كتاب في التجويد، لعله له. نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة جستر بتي بدبلن بإيرلندة رقم ٣٩٥٤ باسم (التمهيد في التجويد) وذكر بأنه من تأليف أبي بكر جعفر بن محمد المستغفري.

١٠١- عَلَمُ الدين السخاوي (أبو الحسن علي بن محمد): جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق د.علي حسين البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

١٠٢- علي أحمد صبرة (الشيخ): ملخص العقد الفريد في فن التجويد، القاهرة ١٣٣١هـ = ١٩١٣م.

١٠٣- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دمشق ١٩٥٩م.

١٠٤- غانم قدوري الحمد (دكتور): الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، مطبعة الخلود، بغداد ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

١٠٥- غانم قدوري الحمد: علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، مطبعة أسعد، بغداد ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١٠٦- غانم قدوري حمد: علم التجويد نشأته ومعالمه الأولى، مجلة كلية الشريعة، العدد السادس، بغداد ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م (ص٣٣١ - ٣٩٦).

١٠٧- ابن غانم المقدسي (علي بن محمد): بغية المرتاد لتصحيح الضاد، تحقيق د. محمد جبار المعيبد، مجلة المورد مج ٢٤١٨ بغداد ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

١٠٨- ابن غانم المقدسي (علي بن محمد): بغية المرتاد لتصحيح الضاد، مخطوطة في مكتبة المتحف، بغداد، الرقم (١١٠٦٨/ ٧).

١٠٩- عبدالغني النابلسي: كفاية المستفيد في علم التجويد، مخطوط في مكتبة المتحف، بغداد الرقم (١٠٨٩٥).

١١٠- فرج توفيق الوليد: قواعد التلاوة وعلم التجويد، ط١، دار الرسالة للطباعة، بغداد ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١١١- فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، ج١، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧١م، ترجمة الدكتور فهمي أبو الفضل.

١١٢- ابن أم قاسم (الحسن بن قاسم المرادي): شرح الواضحة في تجويد الفاتحة، نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة جستر بتي بدبلن بإيرلندة رقم ٣٦٥٣/ ٤.

١١٣- ابن أم قاسم: المفيد شرح عمدة المجيد نسخة مصورة عن مخطوطة مكتبة جستر بتي بدبلن بإيرلندة رقم ٣٦٥٣/ ٧.

١١٤- قحطان عبد الرحمن الدوري وفرج توفيق الوليد: قواعد التلاوة، مطبعة جامعة بغداد ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

١١٥- القرطبي(عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب): الموضح في التجويد، تحقيق د.غانم قدوري الحمد، معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٩٩٠م ودار عمار/ الأردن ٢٠٠٠م.

١١٦- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد): الجامع لأحكام القرآن، ط٢، دار الكتب المصرية ١٩٥٢م.

١١٧- كمال الدين الطائي: رسالة في قواعد التلاوة، ط٢، بغداد ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

١١٨- كمال محمد بشر (دكتور): علم اللغة العام، قسم الأصوات، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

١١٩- كمال محمد بشر (دكتور): الأصوات، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

١٢٠- مالمبرج (برتيل): علم الأصوات، تعريب ودراسة د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٥م.

١٢١- المبرد (محمد بن يزيد): المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة.

١٢٢- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب، تحقيق د. زكي مبارك، القاهرة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م.

١٢٣- ابن مجاهد (أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس): كتاب السبعة في القراءت، دار المعارف بمصر ١٩٧٢م، تحقيق الدكتور شوقي ضيف.

١٢٤- محمد سالم محيسن: الرائد في تجويد القرآن، القاهرة ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

١٢٥- محمد صادق قمحاوي: البرهان في تجويد القرآن، القاهرة ١٩٧٥م.

١٢٦- محمد عبد الرحمن حامد الفولي (دكتور): دليل معلم القرآن الكريم في مرحلة التعليم الأساسي في الوطن العربي، تونس ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١٢٧- محمد عبد القادر خلف: قراءة عاصم بن أبي النجود ـ رواية رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة بغداد ١٩٩٥م.

١٢٨- محمد علي خلف الحسيني الحداد (الشيخ): إرشاد الإخوان شرح هداية الصبيان في تجويد القرآن، المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢٠هـ.

١٢٩- محمد علي خلف الحسيني الحداد: تحفة الراغبين في تجويد الكتاب المبين، ط١، مطبعة المعاهد بمصر ١٣٤٤هـ.

١٣٠- محمد المحمود(أبو ريمة): هداية المستفيد في أحكام التجويد، بغداد (د. ت).

١٣١- محمد عواد حمودي العاني(الحاج): خلاصة في علم التجويد، الأنبار ١٩٧٩م.

١٣٢- محمد المرعشي (الملقب ساجقلي زاده): بيان جهد المقل، مخطوط في مكتبة المتحف ببغداد برقم (١١٠٦٨/ ٥).
١٣٣- محمود السعران (دكتور): علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.
١٣٤- محيي الدين عبد القادر الخطيب: كفاية الراغبين في تجويد القرآن المبين، ط٢، بغداد ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.
١٣٥- محيي الدين عبد القادر الخطيب: كفاية المستفيد في فن التجويد، ط٥، بغداد ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.
١٣٦- المرادي (الحسن بن قاسم): شرح الواضحة في تجويد الفاتحة، تحقيق د. عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت (د.ت).
١٣٧- المرادي: المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة المنار، الزرقاء ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
١٣٨- المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى): معجم الشعراء، دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٩هـ - ١٩٦٠م، تحقيق عبد الستار أحمد فراج.
١٣٩- المرعشي (محمد بن أبي بكر الملقب ساجقلي زاده): جهد المقل مخطوطة مكتبة المتحف العراقي، بغداد (١١٠٦٨/٦)، تحقيق: د. سالم قدوري الحمد، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة بغداد ١٩٩٢م.
١٤٠- المرعشي (السابق): كيفية أداء الضادِ، مخطوط في مكتبة المتحف في بغداد، الرقم (١١٠٦٨/٦).
١٤١- مصطفى عبد الله (دكتور): المقتطف في علم الصوت اللغوي، ضمن كتاب مجمع الأشتات، ط١، بغداد ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.
١٤٢- مصطفى فهمي (دكتور): أمراض الكلام، ط٤، مكتبة مصر ١٩٧٥م.
١٤٣- مكي: الكشف عن وجوه القراءات وعللها، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، دمشق ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

١٤٤- مكي (السابق): الكشف عن وجوه القراءات السبع، تحقيق د. محيي الدين رمضان، دمشق ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

١٤٥- مكي بن أبي طالب القيسي: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، دار المعارف للطباعة، دمشق ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، تحقيق دكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٤، ١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٩٥، ١٩٩٧ الأردن.

١٤٦- ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، طبقة بولاق.

١٤٧- النابلسي (عبد الغني بن اسماعيل): كفاية المستفيد في علم التجويد، مخطوطة المتحف العراقي، بغداد (١٠٨٩٥).

١٤٨- ابن النديم (محمد بن إسحاق): الفهرست، مكتبة خياط، بيروت.

١٤٩- النضر بن شميل: رسالة في الحروف العربية (ضمن البلغة في شذور اللغة، نشرها أوغست هفنر والأب لويس شيخو)، ط٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٤م.

١٥٠- النووي (أبو زكريا يحيى بن شريف الدين): التبيان في آداب حملة القرآن، دار الفكر بدمشق.

١٥١- ابن وثيق (إبراهيم بن محمد الإشبيلي): كتاب في تجويد القراءة، مخطوط في مكتبة أياصوفيا باستانبول (الرقم ٣٩/ ٧)، ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة (رقم ٧٢ قراءات وتجويد).

١٥٢- ابن وثيق الأندلسي (إبراهيم بن محمد): كتاب في تجويد القراءة، نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية في القاهرة الرقم (٦٢قراءات وتجويد).

١٥٣- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب: فهرس المخطوطات العربية في الخزانة العامة للكتب والوثائق بالمغرب، ق٣ ج١، مطبعة التومي، الرباط ١٩٧٣م.

١٥٤- الوفائي (ابو الفتوح سيف الدين بن عطا الله): الجواهر المضية على المقدمة الجزرية، مخطوطة مكتبة الأوقاف في بغداد الرقم (٢٤٠٢/ ٢).

١٥٥- ونسنك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مكتبة بريل في مدينة ليدن ١٩٣٦م.

١٥٦- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، بيروت، دار المستشرق.

١٥٧- ابن يعيش (يعيش بن علي): شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

١٥٨- يوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن كيف نتعلمها ونعلمها، ط١، الخرطوم ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.

فهرس الموضوعات

الموضـوع	الصفحـة
مقدمـــة الكتاب	٥
١- علم التجويد نشأته ومعالمه الأولى	٩
مقدمـة	٩
المبحث الأول: الدراسات الصوتية العربية قبل أبي مزاحم الخاقاني	١٢
المبحث الثاني: أبو مزاحم الخاقاني: حياته وقصيدته في التجويد .	١٧
المبحث الثالث: تأثير قصيدة الخاقاني في جهود اللاحقين	٣٤
المبحث الرابع: أول المؤلفات في علم التجويد بعد القصيدة الخاقانية	٤٧
المبحث الخامس: مصطلح (علم التجويد)	٥٩
خاتمة البحث	٧٢
١- مناهج كتب تعليم قواعد التلاوة	٧٦
مقدمـة	٧٦
المبحث الأول: مخارج الحروف وصفاتها: أهميتها وموقعها في علم التجويد	٧٩
المبحث الثاني: ملاحظات حول المادة العلمية في كتب علم التجويد أو قواعد التلاوة	٨٧
الخاتمة	١٠٥
٣- إخفاء النون: حقيقته الصوتية وطريقة أدائه لدى القراء المعاصرين	١٠٧

مقدمـة ١٠٧
المبحث الأول: تعريف موجز بصوت النون وأحكامه ١٠٩
المبحث الثاني: إخفاء النون في التراث الصوتي العربي.... ١١٥
المبحث الثالث: إخفاء النون: مناقشة واستنتاج ١٢٢
خاتمة البحث ١٣٢
٤- إخفاء الميم في النطق العربي ١٣٤
مقدمـة ١٣٤
المبحث الأول: الميم: صفاتها وأحكامها الصوتية........ ١٣٥
المبحث الثاني: حكم الميم مع الباء ١٣٩
المبحث الثالث: حقيقة إخفاء الميم الساكنة قبل الياء ١٤٣
الخاتمة.................... ١٤٥
٥- قضية الضاد في العربية.............. ١٤٦
مقدمـة ١٤٦
المبحث الأول: قضية الضاد في التراث العربي القديم ١٤٧
المبحث الثاني: قضية الضاد في العصر الحديث ١٥٩
٦- علم التجويد نشأته ومعالمه الأولى ١٦٧
مقدمـة ١٦٧
المبحث الأول: الانحرافات النطقية في التراث الصوتي العربي ١٦٨
المبحث الثاني: ظواهر اللحن الخفي التي عالجها علماء التجويد ١٧٥
خاتمة البحث ١٨٧
المصادر ١٨٩
الفهرست.................... ٢٠٥